رواية

# تمّ قتلُك بنجاح

تأليف

أسماء محسن

# مقدمة

تأمل سلوك الناس من حولك، كم منهم يفتخر بأنه يقوم بتسميم الكلاب أو يترك أطفاله يقطعون ذيول القطط، بل قرأت على الفيس لشخصٍ كتب أنه كان يقوم في طفولته بدفن القطط الوليدة حية ويقيم لها جنازة، قال هذا دون أن ُيظهر أي ندم وتلقى الإعجاب والضحك وكأن ما قاله مضحك لا مبكي، فإن تركنا السلوك القاسي مع الحيوان رغم أنه أولى علامات الخلل النفسي فسنجد حولنا قتلة فعليًا..أقرأ عن تاريخ البشرية..كم من الطغاة قتل ألاف من شعبه؟

هناك نوعٌ آخر من القتلة أكثر أنتشارًا وهم أشر من القاتل العادي، هؤلاء لا يحملون سلاحًا يقتلون به الناس ولكنهم قتلة، يقتلون الآخرين نفسيًا أو معنويًا، منهم موظفون يعطلون مصالح الناس فقط كي يستمتعوا برؤية معاناتهم، منهم آباء وأمهات يضربون أطفالهم طوال الوقت حتى تتشوه نفسيتهم للأبد، منهم من يتحرش بالفتيات كي يشعر بقوته، نحن مجتمع مليء بالمرضى النفسيين الرافضين أعتبار أنفسهم كذلك وعليه فهم يرفضون أن يتغيرو أو ُيعالجوا.

# (1)

## 2 يناير 1990م

(وفاء) فتاة جميلة حقًا، مجتهدة على الدوام، متفوقة دراسيًا، تبلغ من العمر ستة عشر ربيعًا، معلميها أخبروا والدتها أنها ذكية جدًا بل وعبقرية وأنها حتمًا ستصبح طبيبة، دائمًا يرددون هذا منذ كانت طفلة في الصف الأول الأبتدائي لذا صار هم والدتها هو أن تدخر كل مليم تستطيع جمعه كي تتمكن من نفقات كلية الطب الباهظة، لقد تقرر الأمر.. ستصبح ابنتها (وفاء) طبيبة، فالفكرة تمكنت من قلب وعقل والدتها ورأت فيها تعويضًا عن كل ماقاسته كي تربي ابنتها بعد وفاة زوجها كما أنها فرصة لتحقق أحلامها هي التي عجزت عنها، فكانت تقول:أم الدكتورة (وفاء)، ابنتي ستصبح طبيبة وسيتهافت عليها المرضى كي تعالجهم، فهي ذكية وحتمًا ستصبح طبيبة مشهورة.

تأتي (وفاء) عادة إلى والدتها عاملة النظافة في جامعة القاهرة كل يوم خميس، مرتدية ثياب المدرسة بينما الحقيبة التي تم خياطتها عدة مرات على ظهرها، وجهها الرقيق المستدير وعينيها العسليتين اللتين تشبهان حبة اللوز تجذب عيون من يراها في إعجابٍ أو حسد، والدتها إحدى عاملات النظافة في كلية الآداب وجميع العمال وبعض الأساتذة كذلك يعرفونها فيلقون عليها التحية وتردها في تهذيب.

كانت (وفاء) تحب يوم الخميس لأنه اليوم الذي تلقي فيه الأستاذة (حسناء) محاضرتها الأسبوعية في قسم علم النفس..

بالطبع لم تجرؤ على التصريح لوالدتها بحبها لعلم النفس فوالدتها وضعت كل أملها على أن تصير ابنتها طبيبة فوافقتها ابنتها ببساطة وبإستسلام وبشيءٍ من الحزن الخفي، فقط تريد أن ترى والدتها سعيدة.

طرقت باب القاعة ودلفت فألقت التحية في خجل وتهذيب، كانت (حسناء) واقفة تلقي المحاضرة على الطلبة الذين أزدحمت بهم القاعة الواسعة وردت (حسناء) التحية في مودة، وقالت:أوحشتني يا (وفاء)، ستحضرين المحاضرة اليوم، تفضلي بالجلوس.

جلست (وفاء) بجوار بعض الفتيات وبدا عليها الآنتباه الشديد إذ كانت تحب حقًا محاضرات الأستاذة (حسناء) والتي كانت تسمح لها بالحضور كنوع من الاستثناء الخاص.

عادت (حسناء) تقول: قبل إستكمال المحاضرة، أود توضيح الفرق بين علم النفس والطب النفسي، وهو أن علم النفس هو الدراسة العلمية للعقل البشري والسلوك، مثل: كيف نفكر، ونشعر، ونتصرف، بينما الطب النفسي يهتم بفهم وتقييم وتشخيص وعلاج الاضطرابات العقلية.

وتنحنحت وهي تتأمل وجه (وفاء) ثم أكملت: علماء النفس مؤهلون للقيام بالإرشاد والعلاج النفسي، أداء الاختبارات النفسية، ولكن..

ورفعت أصبعها وكأنها تحذر تلاميذها من أمرٍ خطير، ثم قالت: فقط الأطباء النفسيين هم الوحيدين الذين لديهم الرخصة لكتابة وصفات طبية لعلاج الاضطرابات النفسية مثل الفصام، الاكتئاب وغيره.

كان الحماس قد أستبد ب(وفاء) فقد فهمت الرسالة فرفعت يدها في لهفة، ووقفت ثم سألت: هل يعني هذا أنني إذا دخلت إلى كلية الطب يمكنني أن أصبح طبيبة نفسية؟

ردت (حسناء) باسمة: أجل، ستدرسين الطب البشري وبعد التخرج ستتدربين لمدة أربعة أعوام على الطب النفسي في المستشفيات أو المراكز النفسية.

عادت (وفاء) تجلس بعد أن نظرت نحو (حسناء) بامتنان، لقد وجدت حلًا يسعدها حقًا، ستصبح طبيبة كما تتمنى والدتها

ثم ستتخصص في علم النفس كما تتمنى هي، هكذا تضرب عصفورين بحجرٍ واحد.

قالت (حسناء): الآن نعود لموضوع اليوم، سنستكمل اليوم حديثنا عن الشخصية المعادية للمجتمع، ذلك المرض المشترك بين أغلب القتلة والذي نجده لدى القاتل التسلسلي، هذا المرض كان قديمًا يطلق على صاحبه الشخصية السايكوباثية، ولكن هذا المفهوم تغير الآن مع تقدم العلم، هذا المرض يعرف باسم الشخصية المعادية للمجتمع.. أما عن أسبابه فلم يتم تحديدها بشكلٍ حاسم، ولكنها تجمع بين عوامل البيئة والجينات

الوراثية،المريض ليست لديه القدرة على الشعور بالتعاطف مع الآخرين، يمكنه مشاهدة طفل يموت أمامه دون أن تهتز فيه شعرة، يتميز هذا النوع من اضطراب الشخصية بعدم الاكتراث لحقوق الآخرين وانتهاكها سوية مع عدم التأقلم مع المعايير والأعراف الاجتماعية السائدة والمقبولة، وتعود بدايات هذا الاضطراب، عادة إلى سن الطفولة أو إلى المراحل المبكرة من سن المراهقة، ويستمر حتى سن البلوغ بل وبعده.

بعد انتهاء المحاضرة أسرعت (وفاء) إلى حجرة العاملات حيث جلست والدتها مع عاملة أخرى تحتسي كوب الشاي فاحتضنتها وخلعت حقيبة ظهرها أخيرًا.

سألتها والدتها بحنو:هل أحضرتِ معك ملزمة الفيزياء؟

-أجل، ماما لقد قررت أن أصبح طبيبة نفسية.

ردت والدتها ضاحكة: تريدين علاج المجانين، كلا، ستصبحين طبيبة أطفال أو أسنان أو ربما جراحة، أي تخصص رائع.

ثم أكملت بلهجة قاطعة: لكنني لن أسمح لابنتي الوحيدة بعلاج المجانين.

لم تعلق (وفاء)، والدتها لم تكمل تعليمها ولذا أعتبرت فرع الطب النفسي محصور في علاج الجنون..وهي طبعًا لا تفرق بين المرض العقلي والمرض النفسي، سوف تقنعها فيما بعد.. مازال أمامها سنوات حتى تتخرج من الكلية وتتدرب.

كانت (وفاء) برغم براعتها تعاني كأغلب الطلاب في مصر أمام مادة الفيزياء للثانوية العامة، لذا وجدت نفسها مضطرة لحضور دروس تقوية في أحد المراكز التعليمية بسعر أقل بكثير من أسعار الدروس الخصوصية، وكان موعد الدرس هو يوم الخميس من كل أسبوع، وكان المعلم شديد الانشغال يحضر إلى المركز التعليمي في الثامنة مساءً بل وأحيانًا يتأخر عن الموعد ولأن (وفاء) تسكن في المرج بينما المركز في الجيزة فقد كان من الأسهل لها أن تقضي اليوم هنا مع والدتها ثم تذهب إلى الدرس وبعده تعود إلى منزلها، كان عليها تحمل هذا اليوم المرهق لأن والدتها لا تملك الترف المادي كي تدفع لمعلم خاص.

***

دلفت الأستاذة (حسناء) إلى سيارة زوجها الأستاذ (هشام) وجلست على المقعد بجوار السائق مغمغمة:هيا بنا يا عزيزي.

قال (هشام) وهو يتثاءب: أنا مرهقٌ حقًا، فلنعد إلى المنزل سريعًا كي...

قاطعته (حسناء):هل نسيت أن لدينا موعد اليوم مع الطبيب؟

وبدا عليها الغضب مستنكرة كيف نسي هذا الموعد الهام، الآن ستنفجر زوجته غاضبة ويتحول اليوم إلى كتلة من النكد.

رد في ضيق: كنت مشغولًا، معذرة.. أجل.. سنتوجه إلى عيادة الطبيب.

هو أستاذ في كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية، في بداية الأربعين، يرتدي نظارة طبية أنيقة ويصفف شعره الناعم بعناية، له بشرة قمحية وعيون وشعر داكنين وملامح تشي بالطيبة والتربية الجيدة، بدأت بعض الشعيرات البيضاء تغزو شعره أما زوجته الأستاذة (حسناء) فقد كانت في منتصف الثلاثينات من العمر، ترتدي حجابًا يخفي شعرها الكستنائي عن الأعين، لها عيون خضراء وبشرة بيضاء وملامح جميلة، وفي بداية زواجهما منذ سبع سنوات كانت أكثر مرحًا ولطفًا ورقة، بعد مرور عام على الزواج بدأت تشعر بالقلق بسبب تأخر حدوث الحمل والإنجاب وبدأ والديه ذوي الأصول الصعيدية يتذمران، متى سنرى حفيدنا؟ بعد عامٍ آخر قررا الذهاب إلى طبيب متخصص، بعد التحاليل والفحوصات تبين أنهما بخير، لا يوجد مرض ولا أي سبب طبي يمنع الانجاب.

من وقتها وحتى الآن وهما يذهبان إلى الطبيب، قاما بتغيير الطبيب عدة مرات دون جدوى، كلاهما سليم.. لا يوجد سبب واضح يمنع حدوث الحمل، كانت (حسناء) تزداد عصبية وضيق بسبب اشتياقها المجنون إلى الأمومة وبسبب ضغوط أسرته بل وأسرتها أحيانًا، وكانت تعامله على أنه لا يبالي.. في الحقيقة كان هو أيضًا يريد أن يصير أبًا، حاولا مع تقنية أطفال الأنابيب في الفترة الأخيرة ولكنها فشلت، في النهاية قال الطبيب: إنها إرادة الله، لا تيأسوا.. سنستمر في العلاج حتى حدوث الحمل.

كان ل(هشام) أختًا تدعى (هناء) تأتي لزيارتهم من وقتٍ لآخر وتجر معها طفليها، لا تكف عن مضايقة (حسناء) بالكلام والتلميحات السخيفة الغير منطقية أحيانًا، مثلًا تهز

رأسها مؤكدة: هذا لأنك امرأة عاملة، لو أنك تصبحين ربة منزل مثلي سيستريح جسدك وتحملين بسهولة.

وأحيانًا تغير الحفاض لأصغر الأبناء على الأريكة غير عابئة بنظرات الضيق من (حسناء) وتغمغم: يجب أن تحاولوا أكثر، أنتِ لاتعرفين كم هي الأمومة جميلة، كم هي رائعة ضمة أطفالك لصدرك.

دعك من جملتها المكررة: أنت تتقدمين في العمر، بعد عدة سنوات لن تتمكني من الإنجاب، أخي رجل ويمكنه أن ينجب في أي عمر ولكن أنتِ..

هنا يقاطعها (هشام):ألا تملين الحديث في هذا الأمر؟

كل هذا جعل (حسناء) عصبية وغاضبة وبائسة معظم الوقت.

***

الجو شديد البرودة اليوم، شهر يناير ببرودته المعهودة خاصة في المساء، تسرع (وفاء) الخطى إلى المركز التعليمي في الطابق الثالث من تلك البناية، الشارع الذي تضطر للسير فيه كان يخيفها، كان خاليًا دائمًا في هذا الوقت، لا توجد به محال تجارية أو مطاعم كما أن أعمدة الإنارة به كانت لا تعمل أحيانًا، به عدة مبان سكنية لا يصدر منها صوت وكأنها مهجورة أو تسكنها الأشباح، وهناك مبنى قيد الإنشاء.. في نهاية الشارع يوجد شارع آخر بالعرض به بعض المارة وبه عدة مبانٍ سكنية وبه المبنى المنشود، لقد غرقت في النوم أثناء المذاكرة وقامت والدتها بتغطيتها وتركتها ثم أيقظتها قبل ساعة ووضعت في يدها شطيرة وكوبًا من الشاي ريثما تبدل ثياب العمل، كالعادة غادرا معًا الجامعة فتوجهت والدتها إلى محطة الحافلات بعد أن دست في يدها بعض المال ثمنًا للدرس وللملزمة الجديدة والمواصلات بينما توجهت هي إلى المركز التعليمي، وألقت التحية على الفتيات، كن في نفس عمرها وقد تكونت بينهن صداقة سطحية، جميعهن يدرسن في مدارس أخرى قريبة من هنا وهي الوحيدة تقريبًا التي تأتي تلك المسافة بعيدًا عن مدرستها وسكنها في المرج نظرًا لبراعة وسمعة المعلم، جلست على أحد المقاعد تنتظر فبعد انتهاء الدرس ستعود إلى المنزل لتتناول الغداء

المتأخر مع والدتها ويشاهدان المسلسل العربي ويناما متجاورين على السرير الوحيد في المنزل الضيق الفقير.

ولكن المعلم كعادته تأخر حتى شارفت الساعة على التاسعة ثم ظهر أخيرًا وشرع يشرح الدرس، ولولا براعته لما أضطرت (وفاء) إلى القدوم حتى هنا ولأكتفت بأي مركز تعليمي قريب من سكنها.

بعد أن أنتهى الدرس وأنتهى المعلم من حل المسائل الفيزيائية وأثقل كاهل الطلبة بكم هائل من الواجبات باعتبار أن أجازة نصف العام قد اقتربت وهي ليست فرصة للراحة من وجهة نظره، بل هي فرصة للأجتهاد أكثر في المذاكرة.. كانت الساعة قد أصبحت الحادية عشر مساءً، بعض أولياء الأمور جاءوا كي يصطحبوا أبنائهم، بعضهم لديه سيارة خاصة وبعض الفتيات كن يغادرن معًا من طريق مختلف، ودعتهم (وفاء) وتحركت وحدها في طريق عودتها، جميلة ورشيقة برغم حذائها المتهالك وثياب المدرسة البالية التي تدل على ضيق ذات اليد فهي ترتديها منذ ثلاث أعوام، دلكت كتفها محاولة منح جسدها بعض الدفء مع برودة الطقس، السحب متجمعة والسماء مكفهرة فغالبًا ستمطر، ضمت الملزمة إلى صدرها وأسرعت الخطى وتحركت في الشارع المظلم الخالي.

صمت مخيف من حولها، لا تسمع سوى صوت كعبي حذائها كلما لامسا الأرض، كل ما عليها هو أن تصل إلى نهاية الشارع حيث الشارع العمومي ومحطة الحافلات القريبة المزدحمة، إنها مرهقة اليوم ولولا ذلك لركضت في هذا الشارع حتى تبلغ نهايته.

لم تدري لم خطر في بالها الآن محاضرة الأستاذة (حسناء)، الشخصية المعادية للمجتمع.."يتميز هذا النوع من اضطراب الشخصية بعدم الاكتراث لحقوق الآخرين وانتهاكها سوية مع عدم التأقلم مع المعايير والأعراف الاجتماعية السائدة والمقبولة".

ثم شعرت بمن يتبعها، استدارت في حذر وتأملت الشارع الخالي.. لقد انتابها هذا الشعور في الأسبوع الماضي وفعلت ما فعلته الآن ولم ترى أحد.. يبدو أن الخوف جعلها متوترة، أسرعت الخطى قليلًا ثم لمحت هذا الجسد الصغير الملقى جانبًا..
ضيقت عيناها وهي تحاول رؤيته وسط هذا الظلام، ثم تراجعت وقد أقشعر بدنها

ودمعت عيناها، كان هذا جرو صغير ميت وقد حطم وغد ما رأسه ثم ألقاه غارقًا في دمه، وقد كانت (وفاء) تخاف الكلاب ولكنها كذلك ليست وحشًا، وأي شخص لديه قدر من الانسانية سيتأثر بهذا المشهد الأليم.. شهقت كي تمنع نفسها من البكاء ثم عادت تجد السير وقد أدركت أنه ليس بيدها شيء تقدمه لهذا الحيوان البائس، سيُقتص من قاتله في الآخرة وهو ما أشعرها ببعض الراحة.

هذه المرة هي متأكدة، هناك من يقترب منها ركضًا، خفق قلبها في ذعر وقبل أن تبدأ في الركض أو حتى تستدير تلقت ضربة قوية على رأسها سقطت معها أرضًا وسقطت ملزمة الفيزياء وأنزلقت بعيدًا بعض الشيء.. مادت بها الأرض وشعرت بأن وعيها ينسحب منها، رفعت عينيها المذعورتين إلى مهاجمها الذي عاجلها بضربة ثانية أفقدتها الوعي هذه المرة وجعلت الدماء تسيل من رأسها، جذبها المهاجم إلى المبنى قيد الانشاء وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة شيطانية غريبة تجمع بين الاستمتاع والشراسة، تخلفت على الأرض بقعة دم ليست واضحة للعيان بسبب الظلام.

***

أعدت (حسناء) عشاءً سريعًا، كانت العيادة مزدحمة اليوم وأستغرق وصول دورها مع زوجها (هشام) ساعتين، لهذا عادا متأخرين إلى المنزل، كان (هشام) يشعر بالنعاس فبدل ثيابه ثم جلس إلى طاولة الطعام وسرعان ما استغرق في النوم.

أقترح عليها أن يشتروا طعامًا جاهزًا، صحيح أن تكلفة العلاج تلتهم راتبهما معًا ولكنه يستطيع شراء الطعام الجاهز من

وقتٍ لآخر، إلا أن (حسناء) التي كات غاضبة كعادتها قالت في عصبية: لن نفعل، من يدري كيف يطهون الطعام وأي زيوت يستخدمونها للقلي، ربما لهذا تأخر الحمل.

قرر ألا يجادلها فليست لديه السعة النفسية أو الأستعداد لهذا الآن.

قالت وهي تضع بعض أقراص اللحم داخل الفرن والتي تعدها بنفسها في البيت وتخزنها في المجمد: سوف أعد (البورجر)، أظن أن علينا استكمال العلاج مع طبيبٍ آخر.

أنتظرت أن تسمع رد زوجها من الصالة فلم يجبها، أشعلت الفرن وأخرجت الخبز من المبرد ثم توجهت إلى الصالة ومعها طبق ستعد به بعض السلطة الخضراء فوجدت زوجها نائم، زفرت في ضيق ثم بدأت تعد السلطة الخضراء.

بعد نصف ساعة كان الطعامٌ جاهز وفتح (هشام) عينيه الحمراوين وتناول الطعام سريعًا وهو يتوق إلى النوم، من حسن الحظ أن غدًا الجمعة أجازة، سوف ينام حتى يحين موعد صلاة الظهر.

قالت (حسناء): كنت أقول أن علينا أن نغير الطبيب.

رد في ضيق: لا أتفق معك.

-أنه باردٌ للغاية، كل ما يفعله هو ان يكتب الأدوية ويطلب منا الصبر، أنه يفعل هذا منذ عامين.

-علينا الأستمرار في العلاج مع طبيب ما، لا يمكننا تغيير الطبيب والبدء من جديد في كل مرة.

-أنت لا تبالي حقًا، أليس كذلك؟ أصدقني القول، هل تريد أن تنجب مني؟ أم لعلك ترغب في الزواج من أخرى وربما ترغب في الطلاق، ألا تقترح عليك والدتك وشقيقتك ذلك؟

-أستغفر الله العظيم.

ونهض فأرتدى المعطف مغادرًا المنزل، لو ظل قليلًا فسيبدأ الشجار ويفقد أعصابه، هتفت به: إلى أين؟

غمغم وهو يضغط زر المصعد بعصبية: سأتمشى قليلًا.

ردت ببرود: خذ معك كيس القمامة إذًا.

بلا كلمة تناول كيس القمامة الأسود المغلق الموضوع أمام باب الشقة، وأغلق باب الشقة بشيء من العصبية.. لقد حاول أن يظل صبورًا لسنوات.. لم تعد (حسناء) هي الزوجة الرقيقة الهادئة كما كانت في أول عام من زواجهما، أصبحت عصبية وغاضبة

ومحبطة بشكلٍ لا يطاق، وقد لعبت الأدوية التي تتعاطاها دورًا في تغيير مزاجها بهذا الشكل، لن ينكر أن لأسرته كذلك دور فعال، ولكن ماذا بوسعه أن يصنع، يبدو أن الطلاق هو الحل الانسب فعلًا.. لعلها تتزوج غيره وتتجب منه وتحقق حلمها بالأمومة بدلًا من صب جام غضبها على رأسه وكأنه السبب في تأخر إنجابهما، وكأنه بلا مشاعر ولا يتوق لأن يصبح أبًا بدوره، حسنًا.. عندما يعود سيخبرها بقرار الانفصال، سيخبر شقيقته المزعجة ووالدته علهما تتوقفان عن الألحاح والكيد أخيرًا.

أخذ نفسًا عميقًا محاولًا تهدئة أعصابه ولكن هيهات، أذنه ساخنة ووجهه محتقن.

وصل إلى مدخل المبنى السكني ثم وقف ينظر في حيرة إلى حقيبة حمل أطفال ينام بداخلها طفل حديث الولادة يرتدي ثيابًا جميلة وقد بدأ لونه يزرق من البرد.

على الفور خلع (هشام) معطفه دون تفكير وقام بلف الطفل محاولًا منحه الدفء وقد ألقى كيس القمامة أرضًا، أنّ الطفل بصوتٍ مكتوم، من حسن الحظ أنه مازال حيًا ولم يتجمد من البرد، وحتى مداخل البيوت ليست مكانًا دافئًا او آمنًا بما يكفي كان الطفل الضئيل الصغير هش وفي غاية الضعف، فكر أن يسرع بالعودة إلى المنزل ولكن لا وقت يضيعه، أسرع (هشام) إلى الشارع العمومي وأوقف سيارة أجرة وهتف بالسائق أن ينطلق به إلى مستشفى الأطفال، وتجاهل نظرات الأرتياب من السائق وهو يضم الرضيع إليه بقوة محاولًا تدفئته وغير مبالٍ بكونه الآن لا يرتدي سوى بنطال وبول أوفر برقبة وغالبًا سيصاب بنزلة برد قاسية بعد أن خلع المعطف، بدأت السماء تمطر وبمرور الوقت أزدادت كثافة الأمطار.

وعندما دلف إلى المستشفى شبه الخالية ملهوفًا وجد ممرضة صغيرة السن تجلس على أحد المقاعد في أرهاق فهتف: بسرعة، ساعدي الطفل، عثرت عليه منذ قليل يكاد يموت بردًا.. فلنسرع إلى الطبيب.

حملت الممرضة الرضيع عن يده وأسرعت إلى حجرة كان بها طبيب شاب نائم على الأريكة فأستيقظ على الفور محمر

العينين وتطلع إليه الطبيب متسائلًا، قال (هشام) مفسرًا: عثرت عليه على مدخل العمارة، سأقدم بلاغًا في القسم أو لنتصل بالشرطة.

فحصه الطبيب ثم قال: أنها لمعجزة أنه ظل حيًا، لقد تم تركه منذ ساعات، علينا إبلاغ الشرطة وعمل محضر.

أومأ (هشام) موافقًا بلا تركيز، لم يلاحظ أي طفل وهو عائد مع زوجته فكيف تم تركه منذ ساعات.

وتم نقل الصغير إلى حجرة أخرى بها عدة أطفال ووقف (هشام) يرمق الصغير الذي تم ايصال المحاليل إليه خلال أبرة مغروسة في يده الصغيرة وخفق قلبه وهو يرمقه، قامت الممرضة بوضع حفاضة له وبدت الثياب واسعة قليلًا على جسده الضئيل، ولكن ما جعل (هشام) يطمئن أن لونه عاد طبيعيًا بشكلٍ كبير ولم يعد مزرقًا.

عاد الطبيب يقول:يجب وضعه تحت الملاحظة لمدة 24 ساعة فقد تسوء حالته، وأنت تعلم طبعًا أن علينا إبلاغ الشرطة.

غمغم (هشام): أجل، أجل.

مع اقتراب الساعة من الثانية بعد منتصف الليل، عاد (هشام) إلى المنزل وحدقت فيه (حسناء) مذهولة وبدا أنها لم تنم بسبب القلق ثم تمتمت: قلقت عليك كثيرًا.

جلس على الأريكة بجوارها مرهقًا وقال:أسف، سأخبرك كل شيء.

وقص عليها كل ما حدث ثم أكمل: تركت الطفل وعدت إلى هنا، غدًا سيتم تسليمه إلى إحدى دور الرعاية وستبدأ الشرطة التحقيقات، لقد استجوبوني عدة مرات وغالبًا سيستجوبون الجيران والسكان في المنطقة.

تساءلت (حسناء): أي وحش يطاوعه قلبه على هجر هذا المسكين وتركه ليموت.

رد: ما أكثر الوحوش في هيئة البشر يا عزيزتي.

نهضت وقالت بلطف: هيا إذًا لتستريح.. غدًا ستصلي الجمعة ثم يمكننا زيارة الطفل في المستشفى.

جذبها من ذراعها في رفق ثم قال بغتة:لمَ لا نكفل هذا الطفل في منزلنا؟

عادت تجلس بجوراه وتأملته بصمت. قال: أشعر بشفقة عليه، مسكين.. سيظل طوال حياته يدفع ثمن جرم لم يرتكبه.. وسيعاني في دور الرعاية، إنه يحتاج إلى حنان الوالدين ونحن نحتاج إلى ابنًا يملأ حياتنا.

كانت (حسناء) بحكم دراستها وعملها قد رأت الكثير من الأطفال المضطربين خاصة في دور الرعاية ولهذا وبرغم أن اقتراحه لاقى صدى في قلبها لكن عقلها كان مترددًا.

فكرت قليلًا ثم قالت: الاجراءات صعبة والقوانين معقدة ثم لا يمكننا أن نكفله قبل أن يتم عامين على ما أظن وفقًا للقانون.

رد (هشام):نحن أسرة محترمة ولدينا سكن مناسب وفي شقتنا غرفتان جاهزتان لأستقبال الأطفال، لدينا وظيفة محترمة ودخل محترم، إذا استدعى الأمر سأوكل محامٍ لرفع قضية والحصول على حق كفالة الصغير في منزلنا.

تراجعت (حسناء) قليلًا أمام حماسه واجابته: إلى هذه الدرجة؟ قضية ومحام!!

وغرقت في التفكير لدقائق ثم كان ردها:حسنًا، لنفعل هذا إذًا.. غدًا صباحًا سنذهب إلى زوج صديقتي فهو محامٍ بارع

ونستشيره، ولكن أعلم أننا سنجابه معارضة من أسرتينا.

رد بأصرار: لا يهم.

ابتسمت (حسناء) ونهضت جاذبة أياه لينام قليلًا فكلاهما مرهق بشدة وقالت مشجعة: سأدعمك في قرارك.

***

بعد تأدية صلاة الجمعة في المسجد القريب توجه (هشام) مع زوجته إلى المستشفى ليطمئن على الصغير وراح يشير إليه ويقول: ها هو ذا، أنظري إلى حالته.. ذلك الطفل المسكين.

ووجدت (حسناء) قلبها يخفق وقد أستدعى كل مشاعر الأمومة الدفينة، هذا الرضيع الجميل الهش قد يصبح ولدها فتحمله وترعاه وتعتني به، ليست الفكرة سيئة أو مستبعدة

الآن بل لقد تحمست الآن للفكرة كثيرًا فغمغمت لزوجها: فلنذهب إلى المحامي، لقد اتصلت بصديقتي وأخبرتها.

وذهبا إلى المحامي فدلهما على زميل له بارع متخصص في تلك القضايا فلم يضيعا الوقت وتوجها إليه في نفس اليوم في منزله لأن مكتبه مغلق يوم الجمعة وبعد إلحاح منهما وجلسا معه وراح يشرح لهما الإجراءت والقضية التي سيقومون برفعها بعد ذلك حتى يتمكنا من الحصول على حكم في صالحهما فلا يستطيع أحد ان ينزع منهما الحضانة فيما بعد، بالطبع ما لم يظهر للصغير أم أو أب حقيقيان.

قال المحامي:وربما لن تحتاجا إلى قضية، جربا أولًا تقديم طلب لكفالته، من يتخلى عن طفله بهذا الشكل البشع لا يحاول البحث عنه من جديد، صدقوني، لا تقلقوا.. هناك ثغرات عدة في القانون يمكن استخدامها لصالحنا.

قالت (حسناء) وزوجها يقود السيارة متوجهًا إلى منزل والديه: نستطيع التوقف عن دفع أموالنا للأطباء الآن، لا تستغرب كلامي.. نحن لسنا مرضى والأدوية بلا جدوى، إنها إرادة الله والآن يعوضنا بهذا اليتيم كي نكفله، لنوفر أموالنا لمصاريف القضية ومصاريف الطفل فيما بعد.

وكانت شقيقة (هشام) (هناء) متواجدة مع طفليها في منزل والديهما ككل يوم جمعة وكان هذا اليوم مخصص لأجتماع الأسرة وقالت كعادتها في مضايقة (حسناء): هلا قمت بتغيير الحفاضة لابني ريثما أريح ظهري قليلًا، لا تنظري إلي هكذا، إنما أريدك أن تجربي مشاعر الأمومة.

مصمصت والدة (هشام) شفتيها في حسرة.

تبادل (هشام) النظرات مع زوجته التي تغير لون وجهها بطبيعة الحال وبدا أنها ستنفجر غاضبة، ثم قال: لقد قررنا أنا و (حسناء) أن نكفل طفلًا في منزلنا.

مضت لحظة صمت، ثم قال والده (منصور) بصرامة: أي طفل؟

رد (هشام): طفل رضيع عثرت عليه ملقى في مدخل البيت بالأمس.

اتسعت عينا الأب وضرب الأرض بعصاه الغليظة التي يتوكأ عليها وصاح: تتبنى لقيط، طفل سفاح.. هل جننت؟

-وما ذنب الصغير في كل هذا.. أليس من حقه...

قاطعه والده وهو ينهض بعصبية وقد أحمر وجهه غضبًا: تزوج إذًا بأخرى إن كنت تتوق للأبوة، أما أن تحضر لي طفلًا مجهول النسب وتريد مني أن أعتبره حفيدي.

رد (هشام): ليس هذا ذنبه، وليس تأخر إنجابنا ذنب زوجتي فلا تلقي عليها اللوم وتطالبني بالزواج من جديد.

أحتضنت (حسناء) كف زوجها وقالت بتهذيب: عماه، هذا لا يعني أننا لن نحاول حتى آخر لحظة أن ننجب أطفالاً من صلبنا، أحفادً لك يحملون أسمك واسم والدهم ولكن هذا الرضيع المسكين يحتاج إلينا كما نحتاج إليه.

وقال (هشام): لقد تعلق به قلبي منذ عثرت عليه، أريد أن أكفله وقد قررت بالفعل وتحدثت مع المحامي بالفعل.

قاطعه والده وقد بدأ اللعاب يتطاير من فمه من فرط الغضب:تعلق به قلبك في يومٍ واحد، هل فقدت عقلك!! ليكن، أفعل ما يحلو لك، ولكننا لن نعتبره من العائلة ولن يرث مني مليمًا، ولن أستضيفه في أي مناسبة أو اجتماع، الا تعلم يا ولدي أن العرق دساس.

توترت (حسناء) قليلًا، كانت جملة حماها الأخيرة هي الوتر الحساس ومنبع رفض عقلها لفكرة كفالة الطفل، الجينات.. ماذا إن كان هذا الطفل يحمل جينات الغجرام أو الأمراض العقلية أو النفسية.

قالت حماتها المثل العامي الشهير: (يا مربي غير ولدك يا باني في غير ملكك).

زفر (هشام) في استسلام، تطلع إلى زوجته طالبًا دعمها ولكنها ظلت صامتة شبه شاردة، فقال: ويقول النبي عليه الصلاة والسلام (أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة)، أظن أنني سأتبع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ولن أتبع الأمثلة الشعبية.

رد والده في عناد: أكفل يتيمًا توفي والداه أو تركوه بسبب الطلاق أو غيره، هناك أطفال معروفي النسب، أليس كذلك؟

رد (هشام) بأكبر قدرٍ من الهدوء والرفق استطاعه: أي عدلٍ وإنسانية أدعي أنني أحملها إذا ما أنتقيت طفلًا وتخليت عن آخر بسبب ظروف لا ذنب له فيها، إنهم بشر وليسوا فاكهة أقوم بانتقاء أفضلها، أبي.. هذا قراري ولن أتراجع عنه.

-.....................

***

(حسناء) التي كانت قد أنهت منهجها بالفعل قد تنبهت لإختفاء (أم وفاء) عاملة النظافة وكذلك ابنتها اللطيفة المتحمسة لحضور محاضراتها، سألت عنها إحدى العاملات فقالت لها: اتصلنا على هاتف جارتها فأخبرتنا أن (وفاء) دخلت المستشفى للقيام بعملية استئصال الزائدة.

ولكن بعد عدة أيام قدمت والدة (وفاء) طلب استقالتها ولم تعد تتواصل مع أحد وغادرت منزلها إلى مكانٍ آخر لا يعرفه

أحد، ومع قدوم الامتحانات ثم الأجازة ثم إجراءات الكفالة نسيت (حسناء) تمامًا كل أمر يتعلق بطالبة الثانوي الحسناء

العبقرية ولم تعد تتذكرها إلا لمامًا.

كانت (حسناء) تنتمي لعائلة مفككة، فقد أنفصل والديها وهي طفلة في العاشرة، وتزوج كلًا منهما وكانت ردة فعلهما مشابهة لردة فعل حماها وإن كانت أقل غضبًا وانفعالًا وربما لا مبالاة حقيقية يحاولون مداراتها بانفعالٍ زائف، لسان حالهما هو أفعلي ما يحلو لك ولكننا طبعًا سنعترض قليلًا كي نشعر بأننا قمنا بواجبنا بتقديم النصح لك.

قاما بإعداد حجرة للطفل، انتقيا أجمل حجرات الشقة، قاما بإعادة طلائها وقاما بشراء السرير ومستلزمات الحجرة كاملة ثم بعد أشهر وحينما أتم الطفل عمر ستة أشهرتمكنا من كفالته رسميًا، وبطبيعة الحال لم تسفر تحريات الشرطة عن شيء ولم يتم الاستدلال على والدي الطفل ولم يتم تقديم أي بلاغ عن طفلٍ مفقود ولم يسفر الأعلان الذي وضعه (هشام) في الجريدة عن أي نتيجة وهكذا أصبح من الواضح أنه طفل تم التخلي عنه.

قاما بجولة على محال الثياب وأبتاعا للصغير الكثير من الثياب الشتوية والصيفية المناسبة لعمره وابتاعا الألعاب والحفاضات وكل مستلزمات الصغير.

أحتاجت (حسناء) إلى المتابعة مع طبيبة و تناول أدوية تجعل صدرها يدر الحليب كي ترضع الصغير خمس رضعات مشبعات.. هكذا تصبح والدته بالرضاعة وإذا منّ الله عليهما بالأطفال فسيصير أخًا لهم بالرضاعة.

كان اليوم الذي تسلما فيه الصغير من دار الرعاية من أجمل الأيام التي مرت عليهما مؤخرًا، إنها أواخر شهر (يونيه) الآن والمناخ بديع اليوم ونسمات الهواء منعشة، برغمها، أنهالت دموع (حسناء) وهي تحتضن الصغير الذي صار عمره ستة أشهر وبدأت ملامحه الجميلة في التشكل، حملت كنزها الثمين مع زوجها وركبا السيارة مغادرين.

قالت (حسناء) وهي تربت على شعر الصغير الهاديء:يا الله ما أجمله من طفل، أنظر إلى عيونه السوداء وشعره الناعم ووجهه المستدير، سوف يصير شابًا وسيمًا حقًا، (هشام)، أنظر كيف ينصت إلى كلامي، إنه ذكيٌ حقًا.

قال (هشام): لقد أسموه في الدار (معاذ)، أسمه جميل.

-ولكنه شاحبٌ قليلًا، أظنه يعاني من بعض سوء التغذية، أسرع إلى البيت، أريد أن أقوم بأطعامه.

-أنه بخير، لا تبالغي، ولكنه هاديءٌ للغاية، أرى أنه سيصير ولدًا مهذبًا.

-بكل تأكيد، سنوفر له بيئة مفعمة بالحب والحنان وسننشئه على الأخلاق والدين.

وتاملت الطريق أمامها، إنها سعيدة، سعيدة حقًا، فقط تتمنى أن تظل سعيدة لفترة أطول.

***

كان رفض عائلة (هشام) للصغير قاطعًا وكذا كان إصرار (هشام) على الاحتفاظ به، لذا توترت العلاقة بينه وبين والديه وشقيقته في البداية ثم حاولت أسرته التأقلم قدر المستطاع.

كانت الأسرة التي انضم إليها الصغير وأصبح عددها ثلاثة أفراد أسرة سعيدة هانئة، (معاذ) كان طفلًا ذكيًا وهادئًا بشكلٍ ملحوظ وكانت (حسناء) تعتبر هذا أمرًا طبيعيًا في البداية.. أستمرت سعادتها حتى بلغ الطفل عمر أربعة أعوام، وفي مرة أبدت إحدى صديقاتها ملحوظة عن تفحصه لهما بعينيه وكأنه يرى شيئًا خفيًا حولهما، ضحكت (حسناء) وأعتبرت أن صديقتها تبالغ.

أما الموقف الثاني فكان ذات يوم وبينما (حسناء) تعد عشاءً فاخرًا، بينما جلس (هشام) يشاهد الأخبار في التلفاز وأمامه جلس (معاذ) يلعب بألعابه، وضعت (حسناء)
الصحون على الطاولة فنهض الاثنان لإلتهام الطعام ولكن (معاذ) قال فجأة:

ماما، هناك دخان يخرج من بطنك.

ابتسمت في لطف وقالت: ماذا تعني؟

رد ببساطة وهو يلتهم حبة زيتون:هناك دخان أبيض يخرج من بطنك.

ضحكت وضحك (هشام)، ثم قالت: أنا لست ِمدخنة، (معاذ) لا يجوز أن تكذب هكذا.

-لا.. لا.. أنا لا أكذب.

قالها في إصرار، بدا في حيرة لأنه بسبب صغر سنه لا يستطيع التعبير عما يريد.

تساءل (هشام) باسمًا: هل تعني أن ماما تبدو كا الكرتون حيث يخرج الدخان من الأذن عند الغضب.

-أجل، ولكن دخانها أزرق وهذا دخانٌ أبيض.

-حقًا؟ وماذا عني.

-وأنت أيضًا يا بابا دخانك أزرق، ولكن.. هناك دخان آخر يخرج من ماما.

بالطبع كأي أبوين أعتبرا الصغير يقول أمورًا من خياله الطفولي الواسع ولم يلقيا اهتمامًا للأمر.

ولكن في اليوم التالي شعرت (حسناء) بالدوار دون سبب واضح وتكرر الأمر في يومٍ آخر فأصر زوجها على الذهاب إلى طبيبة للأطمئنان عليها، وهنا كانت المفاجأة، فحصت الطبيبة النبض ووضعت سماعة الأذن على بطنها ثم أعلنت باسمة: أنتِ حامل يا سيدتي.

ألجمت المفاجأة الزوجين وظلا يحدقان في بعضهما ثم في الطبيبة بعدم تصديق.

ثم قال (هشام): هل.. هل أنتِ متأكدة يا دكتورة؟

-بالطبع، زوجتك حبلى في شهرها الثاني.

-ولكن.. ولكننا نحاول منذ..

وغلبه الانفعال فسكت وراح يتنفس بثقل، أما (حسناء) فكانت رغم سعادتها البالغة الآن أكثر تماسكًا.

قالت الطبيبة وهي تعاود الجلوس خلف مكتبها وتدون بعض الملحوظات والأدوية: لقد تكون قلبه وهو ينبض بقوة، إذهبي

الآن للقيام بفحص السونار، سأكتب لك عدة أدوية.

قال (هشام) وقد بدأت عيناه تدمعان:الحمد لله، له الحمد والشكر على عطائه ورزقه.. حبيبتي.. سننجب طفلًا من صلبنا،

ألست سعيدة؟

كانت الإجابة في دموع السعادة التي أنهمرت من عينيها، وقامت بعمل فحص السونار وبعض التحاليل ولكنها أثناء ركوبها للسيارة بجوار زوجها بعد أن غادرا، شردت تفكر ثم قالت في توتر: (هشام)؟

-ماذا يا عزيزتي؟

ردت (حسناء) في حيرة: ولكن، هل هناك علاقة بين الحمل وبين الدخان الذي يكذب (معاذ) بشأن رؤيته؟

-.................

***

كانت سعادة أسرتيهما لا توصف، وأعلن (منصور) أنه سيكتب عدة أفدنة من أرضه باسم حفيده القادم، بالطبع لم ينسى أن يضيف: لو أنكما صبرتما قليلًا لصرتما أبًا وأمًا دون الحاجة إلى تبني ذلك اللقيط.

لم تقتنع (حسناء) بتفسير زوجها الذي أرجع كلام (معاذ) إلى الصدفة وخيال الأطفال، هو لا يرى شيئًا لأنه ببساطة لا يمكن لأنسان أن يصدر منه دخان أو يرى من الآخرين أمرًا كهذا، فقط تصادف أن قال هذا بينما (حسناء) حامل وحينما ناقشته رد في نفاذ صبر وهو يرمق (معاذ) النائم على المقعد الخلفي للسيارة:كوني منطقية، كيف لطفل أو لأي أنسانٍ أن يرى شيئًا لا وجود له؟

-لا أعرف، ولهذا أرى أن نذهب إلى طبيب متخصص لفحصه.

-هل تظنين أنه من كوكبٍ آخر؟ أم لعله ممسوس؟ أم أنه ليس بشر؟

صمتت لأنها أدركت أن كلامه أقرب إلى المنطق، ربما هي بالفعل صدفة.

ولكنها مساءً وهي تقبل (معاذ) وتحكم وضع الغطاء حول جسده قالت برفق وهي تربت على رأسه: (معاذ)، هل تذكر عندما رأيت الدخان الأبيض من بطني؟

-أجل.

-هل حقًا ترى دخان؟

-أجل.

-وهل تراه لدي ولدى والدك؟

-أجل.

ثم نـهض ولعق شفتيه وقد دب فيه الحماس بسبب الاهتمام الزائد بوضعه وقال: جدي عندما يغضب يحيط به الدخان بلون أحمر،وذات مرة خرج من المعلمة (فايزة) دخان لونه أخضر، بعدها مرضت شهرًا.

اتسعت عينا (حسناء) قليلًا وقالت متوترة :ماذا؟ هل تقول الصدق؟

رد: أجل، ولكنني يجب أن أغلق عيني حتى أرى الدخان أحيانًا ويؤلمني رأسي كذلك.

حدقت فيه وسألته بقلق: تصاب بالصداع؟

-فقط أحيانًا.

-وكيف ترى الدخان؟

-أغلق عيني وأحاول التركيز على رؤية الدخان.

نهضت متوترة بحركة حادة وقالت:حسنًا، لنؤجل هذا الحديث لما بعد، تصبح على خير.

في اليوم التالي توجهت إلى مكتبة الجامعة وراحت تبحث في الكتب مطولًا، تظن أن لديها فكرة ما عن تلك الظاهرة التي يصفها (معاذ) ولكنها لا تتذكر مطلقًا، لم تعثر على شيء مفيد وقررت بعدها أنها ستتجاهل الأمر تمامًا كأنها لم تسمعه، هذا خيال طفل لا أكثر أو هكذا أقنعت نفسها.

كانت (حسناء) سعيدة وهي تمر بأعراض الحمل المختلفة وأدركت أنها ستظلم (معاذ)، كانت تحبه حقًا كابن من قلبها ولكن مشاعرها نحوه لا تقارن بمشاعرها الآن اتجاه الجنين الذي ينمو في أحشائها، فقط تدعو الله أن يعينها على اخفاء مشاعرها أمامه، يومًا ما سيكبر ويزداد استيعابه وسيدرك أنها تفضل ابنها أو ربما أبنائها عنه رغمًا عنها، قالت لنفسها تلك هي الغريزة الطبيعية أن تحب الأم أبنائها من صلبها بينما تحب هذا الطفل اليتيم الذي صار ابنها بالتبني بدافع من الإنسانية.

الموقف الثالث حدث بعد مرور شهرين وكان يوم الجمعة، كان (هشام) قد أستيقظ ودلف إلى الحمام للتو وكانت (حسناء) تهرس الفول في الطبق تمهيدًا لوضعه على مائدة الطعام بينما كان (معاذ) يرتدي ثيابه استعدادًا للذهاب مع والده إلى المسجد القريب لصلاة

الجمعة ثم توقف فجأة وبدا عليه شيءٌ من القلق.. تأملته (حسناء) بنظرة سريعة ثم بدأت تضع أطباق الطعام على المائدة، ظل (معاذ) قلقًا فسألته: ماذا؟

رد بحيرة:هناك دخان أخضر ينبعث من منزل (دنيا).

و (دنيا) هي ابنة الجيران في نفس الطابق، ردت باستهجان: أنا لا أرى شيئًا.

-ولكنني أراه.

نهضت في ملل واقتربت من باب المنزل وواربته وتطلعت إلى باب الجيران المغلق ولكن (معاذ) قال: لن تريه.

تأملته في حذر ثم قالت: هل تركت المرأة المجنونة ابنتها وحدها في المنزل من جديد؟

-لا أعلم، لقد توقف الدخان الآن.

غادر (هشام) الحمام وهو يجفف شعره بالمنشفة ثم جلس على المائدة فأخبرته (حسناء) بما قاله الصغير للتو، هز رأسه بلا مبالاة وبدأ يأكل.

بعد دقائق سمعا صرخات جارتهما فهرع (هشام) مغادرًا المنزل ومعه زوجته التي دلفت إلى منزل جارتها خلال الباب المفتوح فوجدت المرأة تحمل طفلتها (دنيا) وتسرع راكضة إلى باب الشقة وهي تهتف:أنجدوني، لقد اختنقت بالغاز.

تجمع بعض الجيران وتطوع أحد الجيران مع (هشام) لنقل الطفلة إلى أقرب مشفى في سيارة الأخير.

السيناريو المعتاد، المرأة الحمقاء ذهبت إلى السوق لشراء بعض مستلزمات المنزل وتركت طفلتها نائمة، أستيقظت الطفلة جائعة وحاولت إشعال الموقد، من حسن الحظ أنها مازالت حية وأن والدتها لم تتأخر.

أمتقع وجه (حسناء) وهي ترمق (معاذ)، همست لنفسها: هذا الطفل يجب أن يتم فحصه.

***

# (2)

<u>مايو 1995 م</u>

اليوم بلغ (عامر عامر) السبعين عامًا، واتخذ قرارًا هامًا وخطيرًا، إنه رجل متوسط الطول له شعر أشيب خفيف وأنف حاد وبشرة مائلة للأسمرار، فاحش الثراء ولكنه وحيد في فيلا في حيٍ راقٍ من أرقى أحياء القاهرة.

يجلس على الأريكة المفضلة لديه ليتابع القنوات الفضائية وفي هذا الزمن كان طبق الاستقبال أو الِدش بلغتنا الدارجة اختراعًا جديدًا باهظًا وأغلب الناس تتابع قنوات التلفاز المحلية، وككل شيءٍ جديد وباهظ.. أبتاع (عامر) الدِش كما أعتاد أن يبتاع أي جديد يستعرض به ثروته وامكانياته أمام الآخرين، كان لديه ثلاثة أبناء من زوجته الأولى المتوفية وجميعهم يعيشون في كندا والولايات المتحدة منذ سنوات، يتصلون به عبر الهاتف بمكالمة دولية من وقتٍ لآخر، لا يرغبون في إدارة أعمال والدهم ولا ثروته بعد أن أنفق على تعليمهم في أغلى المدارس وأطعمهم وكساهم تركوه، بل لم يرى أحفاده من قبل وقد علم منذ يومين أن حفيده الأكبر سيدخل إلى الجامعة.

نهض أخيرًا من مجلسه وأرتدى ثيابه وغادر، يريد أن يذهب لزيارة السوق القريب وكان يحب أن يفعل هذا من وقتٍ لآخر ولعلها ستكون آخر مرة.. لقد أتخذ قراره بتصفية جميع أعماله والسفر إلى أبنائه أو بالأحرى الهرب إليهم.

أشار إلى السائق الخاص الجالس في حديقة القصر يثرثر مع حارس البوابة المسن فأسرع يركض ويجلب السيارة.

وسرعان ما أنطلق بها إلى السوق بينما أسترخى (عامر) على المقعد الخلفي، لقد قام بتطليق زوجته رقم 3 منذ شهرين الآن فقد سأم منها بسرعة خاصة أنها فشلت في القضاء على شعوره بالوحدة، والآن يفكر في ألا يضيع المزيد من الوقت، هذه المرة أرتكب خطئًا جسيمًا سيكلفه حياته على الأغلب إذا لم يسرع بالهرب.

راح يلعن نفسه سرًا، منذ سنوات طوال وهو يعمل مع الزعيم، البك الكبير المجهول، يتاجر معه ويقوم بعمليات التهريب معه.. آثار في البداية ثم حبوب ومخدرات وكان كالكلب الأمين، لا يسأل ولا يبحث، ينفذ ويعمل ويتلقى مكافأته الثمينة والحق أن الزعيم كان في غاية الكرم عندما يكافيء رجاله، لماذا تحامق تلك المرة بالذات؟ لماذا فحص البضاعة؟

وصلا إلى السوق فترجل من السيارة وأشار إلى السائق أن يظل في مكانه، راح يتمشى في السوق الذي كانت بضائعه أغلى ثمنًا من أي سوقٍ آخر بحكم أن المنطقة راقية ومع هذا ابتاع بعض البطاطس والطماطم وتوجه إلى حيث أعتاد أن يتوجه منذ سنوات إلى المرأة الريفية التي تجلس لتبيع بضاعتها من الفطير المشلتت والجبن القديم والبيض البلدي.

تجلس بجلبابها الرث وطرحة الرأس وملامحها المليحة تنظر في أمل نحو الناس.

ابتاع منها أول مرة منذ عشرون عامًا وكانت شابة وقتها وأعترف لنفسه أن بضاعتها طازجة وشهية، كما أنها كانت تمتلك ضميرًا متيقظًا لا وجود له في هذا السوق فكانت دومًا تُبعد البيض الفاسد من بضاعتها وتنبه الزبائن إلى العيوب فيما تبيع إن وجدت وترفض أخذ مالٍ أكثر مما تستحق، لسببٍ ما كان هذا يثير أعجابه وغيظه وتمنى لو يراها تسقط وتتنازل كغيرها ولو لمرة حتى أنه في مرة سألها: هل تقلبين إن عُرض عليك توصيل صندوق من مكان لمكان مقابل آلاف الجنيهات؟

نظرت إليه بشك وقالت بشيءٍ من العدوانية: وماذا في داخل الصندوق؟

رد بجرأة: يا ستي أفترضي أنه يحوي بعض الحشيش، فرضًا.

-لا، لن أقبل

-ولا مقابل مائة ألف جنيه.

-ولا مليون.

-لماذا؟ أتحبين الفقر؟

ولكنها قالت جملة ظلت في عقله إلى الآن:"المال الحرام كالسيل، يجرف معه كل الخير من البيت ويجلب سخط الله".

واليوم يتساءل حقًا، لعل ماله الحرام هو السبب في عقوق أبنائه رغم ما بذله من جهد ومال في رعايتهم ورغم أنه دللهم ومنحهم الكثير من الحب الأبوي.

وقف في مكانه ينظر حيث تجلس فتاة ما ريفية لا يعرفها تبيع بضاعتها في نفس الموضع.. أين ذهبت المرأة؟!

توجه إلى الفتاة وسألها:أين (أم رشا)؟

ردت الفتاة بلهجة شابها بعض الحزن: الله يرحمها، توفيت منذ أسبوع.

تجمد (عامر) في مكانه، لقد كانت أصغر منه سنًا بمراحل فلا شك أنها لم تصل حتى إلى الخمسين من عمرها، دومًا كانت فقيرة وتئن من ألم الظهر فتحمد الله، ماتت فقيرة معدمة لأنها حمقاء محتفظة بأخلاقها التي لا تسمن ولا تغني من جوع في هذا الزمن الصعب، هكذا قال لنفسه وهو يستدير مغادرًا.

عاد إلى قصره وهو يهز رأسه، أجل أمواله حرام، تاجر في الآثار والمخدرات وهجر الفقر إلى الأبد، بمجرد أن لاحت له  الفرصة لم يضيع وقته، ولولا أنه فعل ذلك لظل مجرد ريفي فقير لا يجد قوت يومه ويتضور أبنائه جوعًا دون أن يتذوقوا شعور الشبع يومًا ودون أن يستكملوا تعليمهم تمامًا مثله.

طلب من الخادمة أن تطهو بعض البطاطس والدجاج وغير ثيابه ثم عاد يجلس على الأريكة المفضلة من جديد.

تساءل لمَ لم يحاول يومًا معرفة أسمها، فقط تكنى ب (أم رشا)، ولمَ يتساءل عن اسمها الحقيقي الآن بعد أن ماتت.

عليه أن يستعد للهرب خلال أيام.. فقط ليأمل أنهم لم يعرفوا أنه تفحص البضاعة.

ما إن كون ثروة جيدة حتى قام بفتح محل للثياب كتنظيف للأموال طبعًا وظل يدير شركة الأستيراد والتصدير، والآن بعد أن تقدم به العمر وهجره أبنائه منتظرين موته كي يرثو ثروته ترك كل شيء وجلس على تلك الأريكة منذ سنوات، ربما يذهب إلى

النادي أو السوق من وقتٍ لآخر، ربما تزوج من تؤنس وحدته دون جدوى وانتهى الأمر بالطلاق مرتين.

في المساء غادرت الخادمة والسائق وظل حارس البوابة المسن المصاب بثقل السمع في الحديقة وظل (عامر) جالسًا في ملل، لم ينكر أن وفاة تلك البائعة قد أحزنه قليلًا، لم ينكر أن عبارتها حتى اليوم تثير فزعه قليلًا، لم يكن يومًا متدينًا ولم يكن يبالي كثيرًا بالحرام والحلال، كما أنه كان يؤمن أنه لا يفعل شيئًا خاطئًا.. إنه لا يجبر المدمنين على التعاطي فهي أرادتهم ورغبتهم، ولا يرى ضررًا في بيع تماثيل ومومياء لأشخاص ماتوا منذ آلاف السنين، فعبارات كالثروة القومية وتاريخ وحضارة وطن لاتؤثر فيه بمقدار ذرة، كما أنه كف عن هذا وأصبحت أمواله حلالًا الآن رغم أنها مختلطة بالحرام.

يتذكر اتصال ورده منذ أسبوع من طرف الزعيم، يريدون منه أن ينقل بضاعة ما وسط بضاعة شركته التي ستصدر إلى الخارج مع تعليمات مشددة بأن عليه ألا يفحص البضاعة أبدًا وتلك التعليمات الأخيرة هي التي أثارت جنونه وفضوله لأبعد حد ولهذا توجه إلى الميناء يومها وقام بفتح الحاوية ووسط بضاعته وجد الصندوق الضخم...

"المال الحرام كالسيل، يجرف معه كل الخير من البيت ويجلب سخط الله".

يعرف بعض الموظفين هناك وهم يتلقون منه الرشاوى ولا يتفحصون بضاعته ولهذا كان بوسعه تهريب ما يريد.

الكوابيس تطارده من وقتها، لا يستطيع تفسير ما رأته عيناه حتى الآن، هل يتاجر الزعيم في بقايا البشر؟ كانت هناك ثلاث جثث أو ربما أكثر أوأقل، لا يدري، تم تقطيعها كي يتسع لها الصندوق تمهيدًا للتخلص منها في عرض البحر كما يبدو.

فقط يدعو الله ألا يعلموا قبل أن يهاجر خلال أيام، ليس له أصدقاء حقيقيين، الكل يبحث عن مصالحه، أبنائه هربوا متسللين واحدًا تلو الآخر، قطع علاقته بأقاربه منذ عشرات السنين ولم يعد يعلم عنهم أي شيء، حتى الخدم لو لوح لهم أي شخص بأموالٍ أكثر لتركوه.

انقطعت الكهرباء فجأة فأطلق سبة يلعن فيها الحكومة ثم شعر بتلك الحركة الخفيفة من خلفه، هناك من يسير بهدوء وثبات، استدار بسرعة ثم تطلع إلى القادم فلم يتبينه فقد ضعف بصره في الآونة الأخيرة.

هتف بصوتٍ أمر:من أنت؟

سمع همهمة أقرب إلى ضحكة مكتومة ثم ابتسم القادم ابتسامة شيطانية غريبة تجمع بين الاستمتاع والشراسة.

كان القادم يحمل كشافًا فأضائه كأنما يريد ل(عامر) أن يتعرفه وقد كان.

أتسعت عينا (عامر) وغمغم:من أنت أيها الصبي.

ثم هتف محتجًا: هل تظن أنك ستفلت؟ هل تظن أن أبنائي سيتركون الأمر يمر؟ أنا.. لطالما كنت مخلصًا لكم، أنا سأهاجر ولا أنوي العودة.

كلمات ضعيفة يحاول بها إستعطاف القادم عله يمنحه فرصة أخيرة للنجاة ولكن ودون كلمة أخرج القادم سلاحه المفضل ووجه الضربة إلى رأس (عامر) وخفق قلبه وهو يراه يسقط أرضًا والدم يتدفق من جرح رأسه.. خسارة.. كان يتمنى أن يتركه حيًا لوقتٍ أطول كي يتسلى به قليلًا ولكنه لا يرى أي تسلية مع عجوز كهذا.

هناك رجلين ظهرا وبدأ يقيدان الرجل العجوز بالحبال الغليظة وقاما كذلك بتكميم فمه بإحكام.

تم احضار صندوق خشبي متين الصنع ووضع فيه (عامر) ثم أُغلق عليه بأحكام.

قال صوت زعيمهم: أنقلوه مع البضاعة وتخلصوا منه كذلك في عرض البحر.

بدأ (عامر) يستعيد وعيه بعض الشيء، تأمل الصندوق حوله ثم أتسعت عيناه ذعرًا، حاول أن يصرخ فخرجت من فمه همهمات مكتومة لأن فمه مكمم، حاول أن يقاوم وراح يضرب الصندوق بضعفٍ دون جدوى، شعر بأنه يُحمل إلى داخل سيارة ثم شعر بالسيارة تنطلق بسرعة، ظل يطلق الهمهمات بحرقة شديدة، ظل يحاول التملص لوهلة دون جدوى وشعر ببقايا قوته تخور، إنه يعترف لنفسه أنه مذعور من لقاء الله.. يدرك

أيضًا أنه لن يلتقي ب (أم رشا) في الحياة الأخرة فلم يكن طريقهما في الحياة الدنيا واحد.

***

تأمل الطبيب الطفل الصغير في شيئًا من الشفقة، لقد كان (معاذ) شجاعًا حقًا ولم يبكي أو يفزع من كل تلك الفحوصات بل ظل ينظر بثبات وشجاعة نحو والديه والطبيب.

نزعت الممرضة الأقطاب الموضوعة على فروة رأسه وقال لها الطبيب: هذا الولد الشجاع يستحق مكافأة،أصطحبيه إلى حديقة المستشفى ليلعب قليلًا.

تطلع (معاذ) إلى والديه مستأذنًا ثم غادر.

مضت لحظة صمت ثم قال الطبيب: ما الذي تشكان فيه بالضبط؟ أعني أن الطفل كما يبدو يا أستاذ (هشام) وأستاذة (حسناء)

وسكت باحثًا عن كلمة مناسبة ثم أكمل جملته: طبيعيًا.

نظر (هشام) نحو زوجته في ضيق، أما هي فقالت: ولكن ما تفسير قدراته إذًا، لقد أخبرتك يا دكتور بكل شيء.

رد الطبيب: التصوير المقطعي وتخطيط أمواج الدماغ كلاهما سليم تمامًا، لا علامات لوجود صرع أو كهرباء أو أي مرض أو إصابة في المخ.

قال (هشام):يقال ان الانسان يستخدم 10% فقط من قدرات مخه، لعل (معاذ) يستخدم نسبة أعلى.

رد الطبيب باسمًا: هذه أسطورة طريفة يرددها العوام، علميًا الإنسان يستخدم عقله بالكامل وألا أصبح بوسع الإنسان أن يستأصل 90% من مخه ويعيش بالبقية.

مضت لحظة صمت ثم قالت (حسناء): والصداع؟

-لعله إرهاق أو سوء تغذية، أستاذة (حسناء)، لم ألقى طفل أو انسان لديه تلك القدرة المزعومة، لا تنسي أنه طفل وخيال الأطفال واسع، لعله شاهد فيلمًا غربيًا وتأثر به.

- وماذا عن هذا الدخان الذي يزعم رؤيته حول الناس؟

-خيال طفل.

-وماذا عن دخان الجنين في بطني، ودخان ابنة جارتنا التي كادت تموت؟

- إنه طفل عادي، ذكي وخياله واسع لا أكثر، نصيحتي لكما أن تبحثا عن الأسباب النفسية وراء كذبه هذا.

نهض (هشام) وقال وهو يصافح الطبيب: جزيل الشكر لك.

وقال في لوم وهو يتوجه مع (حسناء) إلى حديقة المستشفى: أرأيتِ؟ (معاذ) طفل طبيعي وبخير.

ثم هتف مناديًا الصغير الذي أسرع ركضًا إلى والده ليحتضنه ويحمله وتساءل: هل سنغادر؟

رد (هشام) وهو يسير حاملًا اياه: أجل، سنعود إلى المنزل ونتناول الغداء ونحتفل فأنت بخير يا بطل.

وقبله في وجنته، راح (معاذ) يرمق والدته في ثبات وقد أراح رأسه على كتف والده، تلكأت (حسناء) قليلًا شاعرة ببعض الألم في أحشائها، نظر إليها زوجها في قلق فقالت باسمة: أنا بخير.

لكن (معاذ) هتف: ماما، دخان أخي يتحول إلى الأخضر.

-.................

***

في المساء وضعت (حسناء) طفلًا ذكرًا وتم نقله إلى الحضانة على الفور، مازالت في الشهر السابع إلا أن الأطباء قد طمئنوها أنه سيكون بخير، هذه المرة لم يستطع (هشام) أن ينكر ماحدث، إن كان إدعاء (معاذ) رؤية دخان الجنين في البداية صدفة وكل ما سبق صدفة فمن المستحيل اعتبار ماحدث منذ ساعات صدفة، لقد أعلن (معاذ) صراحة أن لون دخان الطفل أخضر وبمجرد فحص (حسناء) أعلن الطبيب أن نبض الطفل

متوقف بالفعل وأدخلوها حجرة العمليات فورًا، ومن حسن الحظ أن هناك عيادة خاصة كبيرة للولادة في نفس الشارع الذي كانوا فيه لذا أستغرق ذهابه معها حاملًا (معاذ) عدة دقائق، ثم تم نقلهم بعربة إسعاف مجهزة إلى المستشفى، مازال الطفل حيًا وبخير بفضل تلك الموهبة التي يمتلكها (معاذ).

(حسناء) نائمة في الحجرة تستريح، جلس (هشام) بجوار الصغير يفكر، هل هو شيطان أو من الجن أو ممسوس؟ أمر مستبعد، الطفل يصلي معه يوميًا بانتظام.

ليس كائنًا فضائيًا ما لم يكن هذا فيلم من إخراج ستيفن سبيلبرج، الأقرب إلى المنطق أنه يمتلك موهبة ما غير عادية، إنه حالة استثنائية بشرية لا أكثر ولا أقل.

غمغم (معاذ): أشعر بالصداع.

-إذًا لا تنظر إلى دخان الناس حتى لا تضر دماغك.

ثم غرق في التفكير، دخان.. دخان ينبعث من الناس.. ثم خطرت في باله الفكرة، هذا ليس دخان، إنها الهالة الحيوية المحيطة بالبشر، (هالة كيرليان)، ولكن لا يوجد إنسان يستطيع رؤيتها، وشعر بقلقٍ حقيقي، إذا استمرت موهبة هذا الطفل بالنمو فهناك أحتمال كبير أن يجن الصبي أو يصاب بخللٍ ما في الدماغ أو تنفر منه (حسناء) وتنبذه لأنه غير طبيعي.

وصل والديه وقد بدا على والده (منصور) أنه سيجن من الفرح وإن لم يمنعه هذا من النظر نحو (معاذ) شذرًا.

مصمصت (هناء) شفتيها عندما علمت أن الطفل في الحضانة وقالت: هذا لأنها كبيرة، لا أظنها ستنجب المزيد من الأبناء مع الأسف.

ألصق أفراد أسرة (هشام) وجوههم في نافذة غرفة الحضانة وأعينهم تتابع كل حركة يقوم بها المولود.

هتفت والدة (هشام): الطفل يشبهك كثيرًا.

ابتسم (هشام) مجاملًا فالحقيقة أن الطفل كان أقرب في الملامح إلى (حسناء) وحتى أنه ورث لون عينيها الخضراوين

تساءل (منصور): هل أخترت له الاسم؟

(هشام): أتفقنا على الاسم بالفعل، سنسميه (حازم).

أفاقت (حسناء) بعد ساعة وقال الطبيب المعالج: سيظل الطفل في الحضانة لنحو أسبوعين وربما أكثر إذا أستدعى الأمر.. لا تقلقا، إنه بخير وأعضائه سليمة ولكنه ولد مبكرًا ولديه نقص في الوزن والرئة غير مكتملة النمو، بالطبع عند عودته إلى المنزل سيتعين عليكما مراقبة تنفسه ونبضات قلبه.

هتف (معاذ) متحمسًا: أنا سأفعل.

تطلعت إليه (حسناء) بنظرة حادة لم تغب عن الصغير ولا زوجها، في المساء عاد (هشام) مع (معاذ) إلى المنزل وظلت هي في المستشفى ترمق السقف وتفكر إن كان من القسوة أن ترغب في التخلص من (معاذ) ولكن ماذا إن سبب الأذى للرضيع بدافع الشعور بالغيرة الفطري لدى الأطفال، ماذا إن كان طفلًا ممسوسًا، عن أي دخان يتحدث بالضبط؟

أما (هشام) فقد أعدت له والدته وشقيقته الكثير من الأطعمة نظرًا لبقاء (حسناء) في المشفى ولكنها كانت جميعها أطعمة دسمة متراصة في الثلاجة تنتظر التسخين، وهو لن يأكل في هذا الوقت المتأخر إلا طعامًا سريعًا خفيفًا فأسرع يعد عشاءً خفيفًا مكون من شطائر الجبن وبعض ثمرات الطماطم والخيار وتناوله مع (معاذ) ثم اصطحب الصغير إلى سريره وقص عليه حكاية من قصص الأطفال وقال وهو يتحسس شعره برفق: (معاذ)، أريدك أن تعدني بأنك لن تستخدم موهبتك في رؤية آه.. الدخان ثانية.

مضت لحظة من الصمت ثم تساءل (معاذ): بابا، هل أنا مريض؟

-لا يا بني، ولكن يمكن أن تصاب بالمرض وأنا أحاول حمايتك، عدني أنك لن تفعلها ثانية أبدًا.

-وعد.. أعدك بابا.

-تصبح على خير.

***

فبراير 2000م

تقلب على فراشه محاولًا النوم دون جدوى، لا يمكنه النوم بينما هذا الألم الممض يمزقه كما أنه أستيقظ للتو بعد أن رأى كابوسًا مفزعًا وكان فيه عم (مازن) يقتل الكلب، لقد أحب هذا الكلب رغم أنه لم يمضي معه سوى ساعة فقط وظل يحاول اللعب معه حتى قِبل الكلب أخيرًا وراح يبصبص بذيله في سعادة بينما يقذف له الكرة، عمو (مازن) وحش وشرير وهو يكرهه كثيرًا ولن يذهب إليه ثانية أبدًا.

كان صبيًا في التاسعة من عمره، له عينان عسليتان ووجه مستدير وجبين عريض غطته خصلة ناعمة من شعره الداكن يدعى (نادر)، إنها أجازة منتصف العام الدراسي ولكنه يقبع في قصر أسرته ولم يستمتع بالأجازة حتى الآن فلم يتنزه أو يخرج أو يسافر إلى أي مكان نظرًا لعدم تفرغ أي فردٍ منهم له ولأنه كذلك كان بلا أصدقاء، واليوم سمح له جده بتناول الأيس كريم والجبن لأنه يحب هذا النوع من الأطعمة كثيرًا مما أتعبه فنهض أخيرًا وتوجه إلى الحمام بالطابق الثاني في نفس طابق الحجرات.

من الغريب أن يصاب صبي مازال في سن الطفولة بالقولون العصبي فالمرض عادة يصيب البالغين وهو ما يعكس مدى التوتر والقلق الذي يعاني منه طفل كهذا إلى حد إصابته بالمرض، من الغريب كذلك وجود أثر حرق صغير مستدير على لوح كتفه لا يذكر عنه شيئًا بالمرة.

بدأ يتقيأ في المرحاض وشعر بعدها ببعض التحسن، ضغط صندوق الطرد وغسل وجهه بالماء البارد ومضمض فمه، خف

الألم بعض الشيء وربما يظفر بالنوم، استدار مغادرًا إلى حجرته وكان هذا الطابق مكون من ممر طويل تقع به الحجرات على الجانبين إضافة إلى الحمام ومر والده من جانبه متوجهًا إلى الحمام وقد عاد منذ قليل من عمله لأنه لم يغير ثيابه بعد وقال له: لمَ لم تنم بعد؟

وأكمل طريقه إلى الحمام دون أن ينتظر الاجابة، لكنه بعد أقل من دقيقة صرخ في فظاظة: أيها الحيوان، تعالى إلى هنا حالًا.

انتفض جسد (نادر) وتوقف في مكانه ثم عاد أدراجه إلى الحمام.

صاح والده: ماذا فعلت؟ تقيأت ولم تنظف؟ ولم تطلب الخدم كي ينظفوا؟

تمتم (نادر) وقد أحمرت أذناه: الخدم نائمون.

قالها بصوت خفيض كعادته كلما تحدث إلى والده والواقع أن الصبي قد غادر الحمام للتو ولم يجد وقتًا كي يخبر الخدم، يبدو أن الشركة تمر بأزمة ولهذا والده متعكر المزاج.

أنفجر الأب صائحًا: وأنت شعرت بالحرج من أيقاظهم...

وبدون مقدمات أمتدت يده ليجذب (نادر) من شعره الغزير ويجبره على الانحناء نحو المرحاض صائحًا:هل ترى كيف أن المرحاض قذر أيها الوغد؟ هل ترى؟

صرخ الصبي في ذعر وبدأ القولون العصبي يئن من جديد مسببًا للصبي المزيد من الألم، عاودته الرغبة في التقيؤ وبالفعل شرع في ذلك، تراجع والده ثم صاح وقد أفلت شعره أخيرًا:تقيأ أيها القذر، تقيأ فهذا ما تجيده، لعلك تموت وأتخلص منك.

واستدار متجهًا إلى الحمام الأكبر في الطابق الأرضي ولم يلتفت خلفه.

***

عشرة أعوام قد مرت على (هشام) و(حسناء)، يدلف (هشام) من باب البناية حاملًا كيسًا من الفاكهة وآخر يحوي علبة من البسكويت بالشيكولاتة، مازال الوقت باكرًا على صلاة الجمعة، تناهى إلى مسامعه صوت (حسناء) تصيح فتوجه إلى المصعد بخطوات سريعة، إنها حبلى ولا يجب أن تنفعل بهذا الشكل ولكنه حتمًا (معاذ) يثير غضبها وأعصابها فالصبي منذ بلغ الثامنة وقد بدأ سلوكه يتغير فصارت ردوده أقرب إلى الوقاحة وقلة التهذيب وكثيرًا ما يتشاجر مع زملائه في المدرسة، يتكاسل في تأدية الصلاة ويحاول التهرب من دروس حفظ القرآن، يرتعب (هشام) من تحقق مخاوفه بأن ينحرف هذ الصبي تمامًا، لقد حذرته (حسناء) من قبل بأن الجينات قوية وهما لا يعلمان شيئًا عن والدي (معاذ)، ربما كان والديه مجرمين أو مدمنين أو من أطفال الشوارع، فالناس الطبيعية لا تهجر أبنائها على مدخل البنايات، ولكن (هشام) كان يعارض بشدة، يرى أن تغير سلوكه ليس بسبب الجينات أو الوراثة أنما هي ردة فعل من الصبي اتجاه

مجتمع يسخر من مجهولي النسب وينعتهم بأبناء الحرام وينبذهم بدلًا من احتضانهم، كم من مرة علق زملاء الصبي في المدرسة بل وأحيانًا المعلمين على اسمه، لماذا لا يسمى (معاذ هشام)؟ لأن الأسرة تكفله فهو ليس أبنًا بيولوجيًا أنجباه.. كم من مرة علقت (هناء) أو (منصور) على وضع الصبي وسلوكه، بل إن المعاملة الفاترة الجافة وحدها التي يتلقاها منهما تكفي، بينما في المقابل يحظى (حازم) بالتدليل الشديد والحب، وكذلك أخاه الصغير (حسام).

أخرج (هشام) مفتاح المنزل من جيبه وبينما يفتح الباب كانت (حسناء) تصيح لأن (معاذ) و(حازم) ذو الخمسة أعوام يتشاجران على مشاهدة التلفاز، فلما رأت زوجها صاحت: ذلك الصبي سيصيبني بالجنون.

تطلع إليها (هشام) في لوم، طلب منها أكثر من مرة ألا تنعت (معاذ) ب (ذلك الصبي)، ثم أغلق التلفاز عقابًا لهما، تطلع (حسام) ذو العامين إلى ما يحدث وعاد ينشغل بالشخبطة على الورق، صمت (معاذ) وقد أحمر وجهه في ضيق ثم دلف إلى حجرته وأغلق الباب بعنف، وحدقت (حسناء) في غضب نحو حجرة (معاذ) ثم تطلعت إلى زوجها وقالت: دعنا نتحدث.

وضع كيس الفاكهة على الطاولة ووضع علبة البسكويت في الثلاجة ثم تبع زوجته إلى حجرتهما وكانت جالسة على حافة السرير تغلي من الغضب.

منذ وعد (معاذ) والده ألا يستخدم قدرته الخاصة وهو قد التزم بذلك الوعد وسرعان ما نسي كل شيءٍ عن تلك القدرات خلال عام ولم يعد يشكو من صداع أو غيره.

قالت (حسناء): أذهب به إلى طبيب نفسي لعلاج وتقويم سلوكه، أنا صبورة وأم محبة متعلمة وأستاذة في علم النفس وقد جربت العديد من الوسائل معه، وأعلم أن الضرب وسيلة تربوية خاطئة مضارها أكثر من منافعها ولكنني أقسم لك يومًا ما سأكسر عظام هذا الصبي وأقطع لسانه الوقح إن استمر الوضع هكذا.

جلس (هشام) على مقعد بجوار السرير وقال: تعلمين أنه غاضب ومحبط بسبب وضعه.

ابتسمت ساخرة وقالت بغضب: وضعه؟ لديه أسرة تكفله وترعاه وتحبه، ما به وضعه؟ إنه غيور وشرس، تلك طبيعته

وأنا لن أتحملها أكثر، لأنني والدته فلا أستطيع علاجه بحيادية، إن لم يعتدل سلوكه فلن يظل معنا.

-تقصدين أن نعيده إلى دار الرعاية؟

-أجل، دعه يدرك النعيم الذي يعيش فيه ولا يقدره.

نظر لها من جديد في لوم صامت فتنهدت ثم ترقرقت الدموع في عينيها، مضت دقيقة من الصمت ثم قالت: لا أصدق أنني قلت هذا، لو كان هذا (حازم) أو (حسام) من المستحيل أن أفكر في وضعهما في دار أو غيرها، الأمر هو أنه مُتعِبٌ جدًا في تربيته، لم يكن هكذا منذ عامين.

قال (هشام) وهو ينتقل للجلوس بجوارها:كلما كبر في العمر زاد إدراكه وزاد معه الغضب، ولكنها مرحلة عابرة، سوف يكون ابنًا نفتخر به وسترين، كل الجهد المبذول لرعايته سوف يثمر في النهاية بلا شك.

وتحسس بطنها المنتفخ وقال باسمًا ومحاولًا تخفيف التوتر:ثم أنه من الجيد ل (حبيبة) أن يكون لها أخٌ شرس لحمايتها.

ابتسمت (حسناء) في شحوب، ستلد خلال الأسبوع القادم، حامل في بنت وقد أتفقت مع زوجها أن يسموها (حبيبة)، هكذا يصير أبنائهم الثلاثة بأسماء أولها حرف الحاء عدا (معاذ) الذي كان يحزن كلما خطرت له تلك الفكرة.

سمع صوت جرس الباب فنهض (هشام) وفتح الباب ووجد ابنة الجيران ذات التسعة أعوام تقف متحمسة وحولها بعض الأطفال من أبناء الجيران الآخرين، هناك (عمر) ابن جارهم بالطابق السابع وهو في الرابعة عشر من عمره ووالده ضابط شرطة ومعه أخيه الصغير وهو يقوم بمراقبتهم وحمايتهم واللعب معهم أيضًا، من مميزات الأطفال أنهم أبرياء لا يعبئون بالأوضاع الأجتماعية أو الفروق العمرية أوغيرها.

قالت الصغيرة: عمو (هشام) أخبر (معاذ) أن يأتي ليلعب معنا.

باسمًا  طرق (هشام) باب حجرة (معاذ) وقال: (دنيا) تدعوك للعب معها ورفاقها.

على الفور أنتفض (معاذ) وهرع مغادرًا الحجرة في حماس وهتف مستأذنًا: سنلعب في الشارع بالأسفل.

-لا تبتعد.

-أجل.

-أنتظر.

وأخرج من جيبه ورقة بخمس جنيهات ناولها أياه، وقال: أشتري أنت ورفاقك بعض الحلوى.

نهض (حازم) بدوره وقد نسي كل شيء عن المشاجرة منذ قليل وهتف: وأنا أريد أن أذهب وألعب معهم.

صاح (معاذ): لا، لن أصطحبك، بابا إنه صغير ولن أصطحبه معي.

-هل قررت أن تصير أخًا شريرًا ؟

-أجل، لن أخذه.

أنفجر (حازم) في البكاء فهتف (معاذ): أنت مزعج، ليكن، تعالى معنا.

أوقف (حازم) بكائه دفعة واحدة وأمسك بيد أخيه وغادر الأطفال إلى الشارع في عصبة، سرعان ما تعالت أصواتهم المرحة والمزعجة، يلعبون الكرة، البلي، يقفزون الحبل، كل الألعاب التي يعشقها الأطفال في هذا السن وأعتادو القيام بها في تلك الحقبة الزمنية، دومًا يكون (معاذ) في نفس الفريق مع (دنيا).

ذهب الآباء لصلاة الجمعة في المسجد القريب مع الأولاد ثم عاد الأولاد لألعابهم.

بدأت (حسناء) تعد الغداء بينما (هشام) أنشغل بتصحيح بعض أوراق الطلبة تارة ومتابعة الأولاد في الشارع من الشرفة تارة أخرى فهو لا يريد أن يتركهم يمرحون ثم يكتشف أن وغدًا ما أختطف أحدهم، هنا لاحظ هذا الصبي يقف على مسافة نسبيًا

ويتطلع نحو بقية الأولاد بثبات، لم يتعرفه (هشام) ولم يدري من أين ظهر فهو ليس من المنطقة ويبدو أنه راغب في اللعب معهم ولكنه يشعر بالحرج أو التردد.. لا يدري بالضبط.

ظل (هشام) واقفًا يتأمل هذا المشهد في فضول، مرت عشر دقائق كاملة وهذا الصبي واقف في مكانه ثم أندفعت الكرة في أتجاهه فالتقطها، صاح أحد الصبية به كي يعيد لهم الكرة فتوجه نحوهم وناول الكرة للصبي وقال شيئًا ما، يطلب منهم حتمًا أن يسمحوا له باللعب معهم، بدأ بعض الصبية يعترضون لكن (دنيا) هزت رأسها موافقة فقد كانت دومًا طفلة طيبة القلب وبالتبعية وافق (معاذ) فكل ما تقوله (دنيا) أو تطلبه مجاب وهكذا أنضم الصبي ذو الخصلة الناعمة التي تغطي جبينه إليهم، إلا أنه بعد عشر دقائق فقط وبعد أن بدا أن الصبي سعيد ويحظى بوقتٍ ممتع ظهرت سيارة فارهة على أول الشارع وهبط منها سائق وأسرع يتحدث مع الصبي الجديد وعلى الفور استدار الصبي محبطًا وغادر بتثاقل.

سأل (هشام) ابنه فقال (معاذ) عندما صعد إلى البيت وغير ثيابه وغسل يديه: لا أعرفه، أسمه (نادر) وقد تأخر عليه السائق فغادر نادي الصيد ومشى كل تلك المسافة لأنه أراد ان يأكل الطعام في (...).

وذكر اسم أحد مطاعم الوجبات السريعة القريبة من شارعهم.

أكمل (معاذ): ثم رأنا فأراد أن يلعب معنا.

فكر (هشام) أن الصبي الثري - بما أن لديه سائق خاص - مهمل أسريًا، كيف يترك والدين ابنهما الصبي وحده في نادي ثم يغادر ويسير مسافة نصف ساعة على الأقل حتى يتناول طعام غير صحي دون أن ينتبه له أحد.

قال (معاذ): أخبرته أن بوسعه اللعب معنا كل يوم إن أراد، يقول أن لديه جهاز بلايسيشن، أتمنى أن يدعوني للعب معه

يومًا، قالت (دنيا) أنها تتمنى أن يلعب معنا ثانية.

**

# (3)

عادت موهبة (معاذ) تطفو إلى السطح من جديد، كان قد بلغ السادسة عشر من العمر والآن هو في الثانوية العامة في الصف الثالث الثانوي وقد أختار الشعبة العلمية.

بمجرد أن بدأ يخطو إلى سن المراهقة حتى بدأ والديه يتوتران وقررا عدم منحه ثانية فراغ واحدة، لن ينتظرا حتى ينحرف ويبدأ في تدخين التبغ أو تعاطي المخدرات أوالتسكع مع رفاق السوء، وهكذا كان ينشغل أيام الدراسة بالمذاكرة والدروس معظم الوقت وقراءة الكتب والروايات على سبيل التسلية والترفيه بعض الوقت فإذا ما أقبلت الأجازة يدفعه والديه إرغامًا للمشاركة في العديد من الأنشطة حتى يعجز عن أيجاد وقت للتنفس حتى، إشتراك في المكتبة العامة، دورة لغة أنجليزية في المعهد البريطاني، دورة لغة المانية في المركز الثقافي الألماني، دورة تعلم الكاراتيه، دورة تدريبية لتعلم السباحة، دورة تدريبية لليوجا، دورة تدريبية لتعلم مباديء النجارة، دورة تدريبية لتعلم الخط العربي... إلخ.

نفعته كل تلك الأنشطة حقًا، فقد نجحت بالفعل في إبعاده عن التسكع مع أقرانه أغلب الوقت ومنحته مواهب عدة فتحسن مستوى اللغة الإنجليزية لديه، وأجاد السباحة وتعلم العديد من الأمور بما فيها بعض فنون القتال.

مع الوقت نمت صداقة حميمة بينه وبين (نادر) الفتى الثري الأنطوائي والذي عرف (معاذ) بعد ذلك حكايته فهو يعيش مع والده وجده الأثرياء أما والدته فقد توفيت وهي تلده، وكان (نادر) مهذبًا يحظى بإحترام (هشام) و(حسناء) ويحظى بثقتهما ولهذا كان الوحيد الذي لا يمانعان بقائه بالقرب من (معاذ) فأصبح كثيرًا ما يأتي للعب في الشارع معه ومع أبناء الجيران، ومع الوقت نمت مشاعر (معاذ) اتجاه ابنة الجيران (دنيا) رفيقة لعب الطفولة لتتحول إلى إعجاب فحب ملك شغاف قلبه وكان يشعر أنها تبادله المشاعر ولكنهما لم يعودا صغيرين وما إن بلغا مرحلة المراهقة حتى أصبحت العلاقة

بينهما محصورة في صباح الخير فقط مع تخضب وجهيهما بحمرة الخجل وربما يتجرأ (معاذ) ليسأل عن صحتها فتجيبه أن الحمد لله.

وفي هذا اليوم من أيام أجازة منتصف العام وكان السبت أمطرت السماء مع الصباح الباكر وزفرت (حسناء) في ضيق معلنة: نسينا شراء البصل يا (هشام) بالأمس، كيف سأعد الغداء الآن؟ فليذهب أحد لشراء كيلو من البصل.

(هشام) اليوم تجاوز منتصف الخمسينات ولم يعد يملك نفس النشاط السابق كي ينهض ويذهب لشراء البصل و (حازم) مريض بنزلة برد و(حسام) دائمًا ما يخدعه الباعة لصغر سنه وأما (حبيبة) فهي طفلة في السادسة ووالديها لم يكونا من الطراز المجنون الذي يرسل طفلة في هذا السن كي تبتاع شيئًا.

هكذا نهض (معاذ) وقال: سأذهب أنا.

قالت (حسناء) محذرة: كيلو من البصل الأحمر وأنتقيه بنفسك، خذ معك المظلة.

غادر (معاذ) المنزل وتوجه إلى السوق القريب فوجد الباعة يحتمون من الأمطار إما بوضع قطع من الكرتون فوق رؤوسهم مزقوها من صناديق الفاكهة وإما بفتح المظلات لحماية بضاعتهم والجلوس بجوارها لحماية أنفسهم

أبتاع كيلو من البصل ثم غادر وهو يسرع الخطى وبسبب الأمطار والوقت المبكر إضافة إلى كون السبت أجازة كانت الشوارع خالية من الناس تقريبًا، دلف إلى شارعه حيث تقبع البناية السكنية في آخره فوجد أمامه (دنيا) عائدة من درس ما حتمًا فهي في الثانوية العامة بدورها في الصف الثاني الثانوي، خفق قلبه، يود أن يناديها لولا الحياء، اسم على مسمى.. هي بالفعل دنياه كلها، لا يطيق صبراً حتى ينهي الثانوية العامة ويتوسل إلى والديه كي يتقدم لخطبتها، من حسن الحظ أن

والديها طيبا القلب جدًا ولم يتعاملا معه يومًا بجفاء أو قلق من وضعه أو خلفيته وهو ما شجعه، ثم أنه كان قد بدأ في الآونة الأخيرة يستذكر جيدًا وبجدية شديدة فقد قرر دخول كلية الطب أملًا في أن يمنحه التفوق الأكاديمي نقطة في صالحه تغني عن نقطة ضعفه الكبرى كونه مجهول النسب.

أسرع الخطى، ربما يتمكن من ركوب المصعد معها وسؤالها عن صحتها، ثم رأى ما يشبه دخان خفيف لونه أسود بدا لوهلة كأنه يلحق ب (دنيا)، استدار حول نفسه وتطلع إلى النوافذ والشرفات والشارع باحثًا عن مصدر الدخان فلم يجد أحد، الشارع خالٍ تمامًا إلا من (دنيا) والنوافذ مغلقة والشرفات خالية، تساءل عن هذا الدخان الغريب الذي ظهر من العدم وأختفى الآن ثم تنبه أنه قد تلكأ وقد سبقته (دنيا) فأسرع يركض حتى وصل إلى مدخل البناية وكانت (دنيا) على وشك إغلاق باب المصعد فهتف: مهلًا.

أوقفت إغلاق الباب وتطلعت إليه وأحمر وجهها وهي تتراجع سامحة له بأن يدلف إلى المصعد الواسع وقال: كيف حالك؟

-الحمد لله.

تجيبه في صوت خفيض خجول، تمضي لحظة صمت ثم يقول: هل تحتاجين إلى أوراق دروس للمذاكرة، لدي مذكرات عديدة من العام الماضي.

-شكرًا، لدي مذكرات.

يتوقف المصعد وتغادر أولًا ثم يتبعها فيجدان والدتها تثرثر مع (حسناء) التي قالت باسمة: هاهو (معاذ) قد أحضر البصل.

تقول والدة (دنيا): التقيتما مصادفة؟

تجيب (دنيا): أجل.

وتدلف إلى المنزل وتختفي من أمام ناظريه، أنتقت (حسناء) بصلتان وناولتها لجارتها قائلة: تفضلي يا (أم دنيا).

ردت (أم دنيا) محرجة: تسلمي، أسفة على هذا، فوالد دنيا مسافر كما تعلمين وأبني أحمق رفض النزول في المطر والثاني لا يستطيع شراء أي شيء دون أن يخدعه الباعة.

ردت (حسناء): لاعليك، البيت بيتك.

قالت الجارة متحدثة إلى (معاذ): سمعت أنك تنوي دخول كلية الطب، أبنتي أيضًا تنوي ذلك، بالتوفيق يا بطل، بإذن الله أعدك أن أعد كيكة كبيرة لك إذا تمكنت من الحصول على مجموع الكلية.

شكرها بتهذيب ودلف إلى منزله.

تناول الغداء مع أسرته وقد أشرق وجهه بعد كلمات جارته فلا شك أنها تلمح له بأن عليه أن يحصل على المجموع ويدخل الطب كي تقبل به زوجًا لأبنتها، لكنه عندما أستلقى على سريره في حجرته التي يتشاركها الآن مع (حازم) عاد يفكر في الدخان، لماذا سبب له كل ذلك الأضطرب وأين مصدره كذلك؟، كيف يظهر من العدم ثم يختفي؟ولماذا بدا بالفعل كأنه يطارد (دنيا) وكأن له حياة خاصة، ثم نسي كل شيء وأستسلم للنوم، ولكنه في اليوم الثاني ذهب إلى درس الهندسة الميكانيكية فلاحظ أن زملائه تحيط بهم هالات زرقاء فراح يحدق فيهم مستغربًا بل وأخبرهم بذلك فسخروا منه ولكن الهالات أختفت بسرعة وأصابه الصداع ولم يفهم السبب.

***

(هناء) لم تستكمل تعليمها وكانت تلك رغبتها، أكتفت بالصف الأول الثانوي ثم تحمست للزواج وتركت الدراسة وتزوجت بالفعل وأنجبت ثلاث بنين آخرهم من نفس سن (حسام) وأنشغلت بلعب دور الزوجة والأم، لم تحاول استكمال دراستها أو القراءة فهي تمقتها أو التثقف بأي شكل وبالتالي توقف عقلها عن النمو فكانت كأي امرأة في ظروفها مع وقت الفراغ لديها تقضي وقتها في ألعاب الكيد والنميمة فعقلها كعقل الدجاج حرفيًا، كانت حمقاء وقد نقلت حماقتها وحقدها لأبنائها خاصة ولدها الأكبر (منصور) الذي أنهى الثانوية التجارية ويعمل مع والده في متجره لبيع الأدوات المنزلية وكان (معاذ) يمقتها حقًا ويمقت ابنها الأكبر بالذات وكانا دومًا في حالة شجار دائم فيتدخل (هشام) وزوج (هناء) كي يوقفا الشجار.

لاحظ (منصور) ابنة الجيران عدة مرات أثناء زيارته لخاله (هشام)، الفتاة الرقيقة الجميلة، ثم لاحظ نظرات (معاذ) لها واحمرار أذنه كلما نظر إليها.. أدرك أن (معاذ) يحبها.. هكذا أحبها هو أيضًا بدوره فأخبر والدته أنه يريد الزواج منها قبل أن ترتبط

باللقيط كما يحب أن يصف (معاذ)، فهو لديه وظيفة ومرتب جيد ومنزل وكان مقتنعًا أنها ستقبل به رغم فارق السن وفارق المستوى التعليمي.

واليوم أضطر الجميع إلى الذهاب لبيت (منصور) الكبير فقد دعاهم لتناول الغداء لديه وقال (هشام) في رفق وهو يربت على رأس (معاذ): بني، حاول أن تسيطر على أعصابك ولا تدع ابن أختي يستفزك.

وبينما يقود (هشام) السيارة متوجهًا إلى بيت والده مع أسرته كان يقود بجواره سائق سيارة أجرة وكان الطريق مزدحم وبينما ألتزم (هشام) بقوانين القيادة فإن قائد سيارة الأجرة مال فجأة محاولًا الدخول بالسيارة إلى الصف الذي يقود فيه (هشام) فاتسعت عينا (هشام) وضغط الفرامل وصاح بعصبية: ماذا تفعل؟

هنا صرخ سائق سيارة الأجرة في وقاحة منقطعة النظير:خذ جانبًا يا ابن ال........

وراح يسب سبابًا بذيئًا.

أحمر وجه (هشام) في غضب وتطلع (معاذ) إلى وجه السائق الشرس الذي يحمل ندبة على خده الأيمن تبدو كأثر مطواة أو جرح ما ورأى حول جسده هالة يتبدل لونها ما بين الأحمر والرمادي، أنطلق السائق مبتعدًا وقالت (حسناء) وهي تربت على يد زوجها: معك زوجتك وأبنائك، دعك من هذا السافل.

زفر (هشام) في غضب ثم قرر أن يسيطر على أعصابه وألا يلحق بهذا الوقح عديم التربية وأكمل طريقه.

***

من جديد كاد سائق سيارة الأجرة أن يصطدم بتلك السيارة الفاخرة ورغم أنه كان هو من أخطأ فقد راح يسب كعادته، ببرود شديد ظل سائق السيارة الفاخرة الذي يرتدي نظارة داكنة العدسات صامتًا يرمقه دون أن يجيب بكلمة أو تتغير حتى تعبيراته أو لون بشرته وكأنه أصم وأعمى، وبعد أن أفرغ السائق شحنة غضبه غادر بسيارته فابتسم سائق السيارة الفاخرة ابتسامة مخيفة حقًا تجمع بين الاستمتاع والشراسة، هذا السائق مسلٍ حقًا.

السائق اسم شهرته في منطقته السكنية (الجزار)، وهو يفتخر بهذا الاسم كما يفتخر بشاربه الكث وكرشه وجسده الضخم، يفتخر بقدرته على تعاطي سجائر الماريجوانا والحشيش واحتفاظه بتركيز عقله رغم ذلك، في المساء أنهى سائق سيارة الأجرة عمله فتوجه إلى منطقة سكنه في حي فقير تجمعت فيه الأبنية السكنية القبيحة الضيقة متلاصقة حتى لتشعر أن بوسع الجار أن يقفز من شرفته إلى منزل جاره بسهولة، ولكنه لم يعد إلى المنزل بل ذهب إلى صديقه وصعد إليه حاملًا زجاجة بيرة واستقبله صديقه بالأحضان وكان لديه صديقان آخران وتم رص الأحجار ووضعت النرجيلة فبدأ السائق يدخن وأنبعث في المنزل الضيق روائح خبيثة، وأشعل صديقه إحدى القنوات الفضائية التي تعرض فيلمًا غريبًا عجيبًا يقوم فيه قاتل مجنون بتمزيق الناس بالشاطور، وبعد ساعات نهض السائق شبه مترنح وسعل بشدة وبصوت يدل على ضرر بالغ واقع على رئته البائسة فودع أصدقائه وغادر، لقد أوشك الفجرعلى البزوغ، سيعود إلى المنزل لينام تمهيدًا ليستيقظ الظهر فيجلس في المنزل تارة وفي القهوة تارة وما أن تنتهي أمواله حتى يبدأ في قيادة سيارة الأجرة من جديد، من الجميل أن يكون وحيدًا بعد أن غادرت زوجته بالطفل إلى بيت والدها غاضبة، فلتذهب إلى الجحيم، كل يوم لا تطلب سوى المال من أجل الطعام، لمَ لا تعمل إذًا وتنفق على طفلها وتساعده في نفقة البيت قليلًا بدلًا من استنزافه وتعكير مزاجه، الحمقاء كانت تعمل في مصنع صغير لتعبئة الأرز فلما تزوجها تركت العمل وأنجبت رضيعًا مزعجًا لا يكف عن البكاء.

توقف عن السير، صحيح أنه ليس في وعيه تمامًا ولكنه يشعر بأن هناك من يتبعه وهو قريبٌ جدًا الآن، استدار فوجد هذا الرجل الغريب يحمل في يده شيء ما غريب لا يدري ما هو، حاول أن يعتدل في وقفته وأن يقول شيئًا ما ولكن هذا الرجل رفع ذلك الشيء ووجه به ضربة إلى رأسه، شعر السائق بأن الأرض تميد به ثم أظلم كل شيء وفقد وعيه.

قال الرجل الغامض وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة شيطانية: في المرة القادمة عليك أن تحذر من إغضاب الشخص الخطأ، بالطبع لن تكون هناك مرة قادمة.

***

خيم الوجوم على عائلة (هشام) وهم عائدون بالسيارة إلى المنزل مساءً فقد وقع الشجار كما توقع الجميع، في البداية وعندما وصلوا قبل (هشام) يدي والديه وأستقبل (منصور) حفيده المفضل (حازم) بحفاوة شديدة وحضن دافيء وبالطبع لأن (حبيبة) كانت الحفيدة الوحيدة الأنثى فقد كانت تحظى دومًا بتدليل الجميع، هكذا كان الجفاء والتلميحات السخيفة من نصيب (معاذ) والصمت والوجوم أحيانًا من نصيب (حسام) الذي كان يشبه والده (هشام) في الشكل والطباع وطيبة القلب فكان يحب أخوته كثيرًا ويقف دومًا في صف (معاذ)، وبعد عبارات الترحاب المعتادة جلسوا لتناول الغداء والثرثرة وبعد تناول الشاي غادر (معاذ) إلى الشرفة الواسعة وتطلع بشرود إلى الشارع محاولًا في الواقع تجنب البقاء مع أقارب والده حتى تنتهي الزيارة. هنا دلف (منصور) ابن عمته إلى الشرفة فرمقه (معاذ) بنظرة جانبية وتجاهله ولكن (منصور) قال: أخبرني يا (معاذ)، ابنة جارتكم الفتاة الجميلة.. أسمها (دنيا).. لقد قررت الزواج منها وسأجعل خالي يتوسط لي.

وابتسم في تشف وهو يغادر، خفق قلب (معاذ) واتسعت عيناه في غضب، ذلك الوغد يريد أن يسرع بخطبة (دنيا) كي يسرقها منه، هل يظن أنها ستقبل به؟ بالطبع لا، ولكن ماذا لو وافق أهلها وضغطوا عليها كي تقبل.

أسرع (معاذ) يغادر الشرفة وهتف بوالده: بابا، هلا أتيت قليلًا، أريد محادثتك في أمر هام للغاية.

نظر إليه الجميع في حيرة، وقالت (هناء) بعد أن همس ولدها في أذنها: (هشام)، أريدك في موضوع هام.

قلب (هشام) نظره بينهما، ثم قال: حسنًا، أختي انتظري قليلًا، سأحدث (معاذ) أولًا.

وتوجه مع ابنه إلى الشرفة وقال باسمًا: لعله خير.

قال (معاذ) في لهفة: بابا، أنا أحب (دنيا) وأريد أن أخطبها.

صمت (هشام) متفاجئًا وأكتفى بالتحديق في (معاذ) فعاد يقول في لهفة: أرجوك أن تقبل، أنا أحبها ولا أستطيع أن أعيش بدونها، سأدخل إلى كلية الطب وأتخرج وأصير طبيبًا.. أعدك.. سوف أكون زوجًا يليق بها حقًا.

قال (هشام):لا بأس، ولكن يا بني لا يمكنني أن أخطبها لك وأنت مازلت طالبًا وهي كذلك.. أنتما طفلان.

حاول (معاذ) ألا يرفع صوته حتى لا يسمعه من بداخل البيت وهو يقول: ابن عمتي (هناء) (منصور) يريد أن يخطبها وأقسم لك أنه يعلم أني أحبها وهي أيضًا تحبني.

-ما.. ماذا؟

وسكت (هشام) محاولًا استيعاب المعلومة ثم قال:هل أنت متأكد؟

-أخبرني منذ قليل.

-حسنًا، إن كانت (دنيا) تحبك حقًا فسترفضه وستنتظرك.

-ولكن..

-ماذا أقول لوالدها!؟ ابني في الثانوية العامة يريد أن يخطب ابنتك، مازال أمامك 7 أعوام من الدراسة ثم العمل وجمع المال والاستعداد لبناء أسرة، ليس الأمر سهلاً.

ونظر إلى تعبير الحزن والامتعاض على وجه (معاذ) ثم قال: حسنًا، إذا لزم الأمر سأتدخل وأتحدث مع والد (دنيا).

تهللت أسارير (معاذ) وعاد مع والده غلى الصالة الواسعة فقالت (هناء): أخي، كنت أقول أنني أريدك في موضوع هام.

رد (هشام): ما هو؟

قالت (هناء): ولدي يريد أن يخطب ونحتاجك للحديث مع والدي العروس.

تساءل (هشام) في شيء من السخرية: ولمَ؟ أليس (عبد العزيز) زوجك موجود؟

قالت (هناء): لأننا نريد أن نخطب (دنيا) ابنة جارك وصديقك.

هز (هشام) رأسه وأجاب على الفور:من المؤسف أن أخبرك أن الفتاة مرتبطة.

-ماذا؟!

قال (هشام): لقد خطبتها بالفعل لابني (معاذ).

بدت الدهشة على وجه (حسناء) وهي تتطلع إلى زوجها وهتف (منصور) ابن (هناء): وهل قبل والديها؟

كان (هشام) لا يحب الكذب لذا أجاب: لم يقرروا بعد.

-إذًا الأمر لم يحسم بعد.

-بل حسم يابن أختي، كيف تخطب على خطبة أخيك؟

رد في وقاحة: لم يقبلوا ولن يقبلو غالبًا، سأتقدم لها وسنرى من منا يفضله والديها ولا تصف هذا الصبي بالأخ.

كان (معاذ) يرمق الهالة الحمراء المحيطة بجسد (منصور) والرمادية المحيطة بجسد (هناء) ثم لما قال (منصور) جملته الأخيرة فقد (معاذ) أعصابه وقفز يضرب (منصور) ودخل الاثنان في شجار قضى على الأمسية وأثار غضب (منصور) الكبير وعادت الأسرة إلى بيتها واجمة، وقررت (حسناء) أنها لن تتحدث مع (معاذ) ثانية طالما يتصرف كقطاع الطرق والعصابات على حد تعبيرها.

***

فتح سائق سيارة الأجرة عينيه ببطء وشعر بإن رأسه ينبض وهناك دماء قد تجمدت على جبهته والجزء الأيسر من وجهه من أثر الضربة الأولى التي أفقدته الوعي، بعد لحظات أكتشف أن يديه مقيدة خلف ظهره بإحكام بقيد حديدي وأن فمه مكمم كذلك بإحكام وأنه يرتدي الفانلة الداخلية فقط من أعلى وتم نزع جوربه وحذائه وظل سرواله في مكانه لحسن الحظ، قدمه كذلك كانت غير مقيدة فنهض وتطلع حوله في ذعر وقد خطر له أن من اختطفه هم أقارب زوجته حتمًا، كان الآن يقف في حجرة بها منضدة تشريح من التي يراها في الأفلام وعليها سلاح ما غريب الشكل يبدو ككرة حديدية متصلة بسلسلة ويضيء الحجرة مصباح زجاجي ضعيف يتدلى من السقف، عدا هذا فهي حجرة خالية من أي شيءٍ آخر سواء أثاث أو أدوت أو نوافذ ثم أتاه الصوت الهاديء: أستيقظت أخيرًا.

استدار مذعورًا حول نفسه فوجد شخصًا يقترب منه في بطء وكان يقف في ركن الحجرة المظلم صامتًا بلا صوت، بدأ يسترجع ذاكرته، هذا هو نفس الشخص الذي أفقده الوعي.. يتحرك بتؤدة وكأنما يريد منحه فرصة للركض والهرب بينما السلاح الغريب يتدلى من يده، سلاح يشبه نفس السلاح على المنضدة.

تراجع السائق في رعب وراح يصرخ بأصواتٍ مكتومة، لقد شله الرعب حرفيًا فأصبح عاجزًا عن التفكير وعمل اندفاع الأدرينالين على جعل جسده ينتفض وزادت ضربات قلبه مع إرتجافة قدميه فسقط على ظهره وراح يهمهم في ذعر بكلمات غير مفهومة ثم حاول النهوض من جديد فعجز حتى وصل ذلك الرجل المجهول فوقف أمامه وقال باسمًا وقد ظهرت ملامحه بشكل أوضح الآن: هل ستستلم للقتل بسهولة؟

مد السائق قدمه فوجه ضربة إلى قدمي الرجل ليسقطه، ثم نهض بسرعة مذعورًا وتلفت حيث وقعت عيناه على بضع درجات سلم في نهايته باب الحجرة المفتوح.. إذًا هو في حجرة في قبو، ثم اندفع إليها فصعد إلى الباب وعبره مغادرًا تلك الحجرة المشئومة، عليه أن يجد وسيلة للتخلص من القيود، هناك ممر ضيق شبه مظلم، أسرع يركض فيه ثم انتفض جسده وأطلق صرخات ألم مكتومة وسقط أرضًا، أرضية الممر بالكامل ممتلئة بقطع الزجاج المكسور والذي مزق بطن قدميه والآن بعد أن سقط إنغرس في ركبته وكتفه، أتاه الصوت من خلفه للرجل يصعد الدرج بنفس التؤدة: ألم تهرب بعد؟

انتفض مذعورًا، تحامل على نفسه لينهض، الآن تيقن أن الأمر لا علاقة له بزوجته ولا أقاربها.. ثأر قديم ربما.. لايذكر.. لعله شخصٌ مهم قام بسببه أو الشجار معه فهو يعشق السباب والشجار لأنه يتيح له إفراغ شحنة الغضب بداخله، باطن قدمه

ممزق وينزف الدم، لا يمكنه السير في هذا الممر المفخخ، لمح باب حجرة جانبية قريب مفتوح تنبعث منه إضاءة خفيفة، سار بحذر وهو يعرج وقدمه ترجف وتترك أثر الدم على الأرض وعلى الزجاج المكسور، دلف من الباب، على الأقل يوجد مصباح هنا يضيء الحجرة والتي كانت خالية بدورها من أي أثاث، أغلق الباب بركلة ثم انهار أرضًا بجانبه وهو يلهث ولم يبتعد عنه فعليه أن يضع ثقله على الباب حتى لا يتمكن ذلك المجنون الذي يلاحقه من دخول الحجرة، مضت دقيقة كاملة لم يحدث فيها شيء

سوى أن السائق يتنفس بعصبية ورعب وصدره يعلو ويهبط ثم بدأ يستجمع أعصابه، راح السائق يتفحص الحجرة من حوله، كانت مليئة بالمرايا، حوائطها بالكامل مزينة بمرآة تلو الأخرى، وهنالك باب لحجرة أخرى ربما حمام صغير، تحامل على نفسه لينهض واستدار يتطلع بحذر إلى باب الحجرة الذي كان يستند عليه فوجده بلا مقبض من تلك الجهة أي أنه لا يستطيع فتح الباب إن رغب ومغادرة الحجرة ، عليه أن يجد وسيلة للتخلص من قيد يديه.. هنا سمع الخطوات.. وفتح القاتل إحدى المرايا في الجانب الغربي من الحجرة وخرج منها، إذًا فتلك المرآة باب أو منفذ آخر للحجرة، مازال يسير في تؤدة وصدرت منه ضحكة مكتومة جزلة أقرب إلى همهمة، تراجع السائق حتى التصق بباب الحجرة وراح يصرخ في هلع شديد صرخات لم تخرج بسبب تكميم فمه ثم دون تفكير.

أسرع نحو تلك الحجرة الجانبية الأخرى وهو يعرج، كما توقع..كانت حمامًا به حوض إستحمام ضخم وحوض صغير للإغتسال، وهناك آثار دماء جافة في حوض الإستحمام، لا يوجد مخرج آخر أو نافذة، لا يوجد وسيلة للدفاع عن النفس، القاتل يقف على باب الحمام، يلوح بالسلاح ثم يوجه به ضربة إلى رأس السائق ليسقطه داخل حوض الإستحمام ويقول بجذل: ألم تهرب بعد؟

***

عندما أستيقظ (معاذ) صباحًا كان يشعر بالصداع وظل أثر كدمة خفيفة على وجنته ظاهرًا، تأمل وجهه في مرآة خزانة

الثياب وابتسم فهو قد أستخدم كل ما تعلمه في درس الكاراتيه لينتقم لنفسه من (منصور) الصغير ويلقنه درسًا لا بأس به

المهم الآن أن يحاول مصالحة والدته الغاضبة والتي كانت دومًا تجن غضبًا عندما تراه يتصرف بعنف.

بهدوء تسلل إلى المطبخ والكل نيام وبدأ يعد الإفطار للجميع على سبيل الاعتذار لوالدته، ظهرت (حبيبة) وهي تفرك عينيها وتمتمت: صباح الخير.

رد التحية باسمًا وطلب منها أن تغسل وجهها ريثما ينتهي وخلال دقائق بدأ أفراد أسرته يستيقظون واحدًا تلو الآخر، ونهضت (حسناء) مسرعة كي تعد الإفطار لها ولزوجها قبل ذهابهما إلى العمل فوجدته معد ومنسق على المائدة، وقالت (حبيبة) متحمسة: أعد (معاذ) طعام الإفطار للجميع.

وقال (معاذ) معتذرًا: أسف أمي، أعلم أنك غاضبة بسبب ما حدث مني بالأمس.

ثم تجمد وهو يرى الهالة حمراء اللون حول جسد والدته،عقدت (حسناء) يديها أمام صدرها وقالت: ما جدوى الإعتذار وأنت تعاود تكرار نفس السلوك الخاطيء.

ظل صامتًا يحدق فيها مشدوهًا متحيرًا فتغيرت الهالة إلى اللون البرتقالي، ثم نكث (معاذ) رأسه معتذرًا ولم يجادل معها فقال (هشام) ملطفًا الأجواء: لقد أعتذر وأعد إفطارًا شهيًا، ستقوم بغسل الصحون يا (معاذ) أليس كذلك؟

رد (معاذ): أجل.

ابتسمت (حسناء) برغمها وقالت محذرة: لا أحب أن يكون سلوكك عنيفًا، نحن بشر متحضرون ولسنا رعاع.

تغير لون الهالة فورًا ليصير أزرق ثم أختفت، هز (معاذ) رأسه بقوة وشعر بالصداع والخوف، إنه مريض أو يعاني من

مشكلة ما في المخ أو الابصار ولا يجب أن يتجاهل الأمر أكثر من ذلك، ثم قرر أن يبحث عن أسباب تلك الهالات الغريبة التي يراها، غدًا سيذهب للفحص سرًا تبع تأمين الطلبة فهو لا يريد إقلاق والديه.

وبعد تناول الإفطار قام (معاذ) بغسل الصحون كما وعد ثم جلس يستذكر في حجرته بجدية، بينما أنشغل (حازم) و (حسام) بلعب البلايستيشن وجلست (حبيبة) تشاهد التلفاز، والديهما ذهبا إلى العمل، وبعد صلاة العصر ظهرت (هناء) مع زوجها وولدها بكل وقاحة أمام شقة الجيران وتعمدت إصدار أصواتٍ مرتفعة كي يسمعها (معاذ)، انتفض جسد الأخير ونهض في لهفة وفتح باب المنزل فوجدها بالفعل تدلف إلى شقة

الجارة المتحيرة وتنظر إليه وعيناها تبرقان في تشفي وظفر بينما باب الشقة يغلق خلفها، مازال حولها هالة رمادية اللون.

فكر (معاذ) في الاتصال بوالده ولكنه وبعد تفكير قرر ألا يفعل، زفر (معاذ) في يأس وخفق قلبه في توتر وخوف، ترى هل يقبل والديها به؟ لماذا يصر هذا الوغد عليها دون سواها من الفتيات؟! وكان يعرف الإجابة، لقد أعجب (منصور) بها لمجرد أنه لاحظ أن (معاذ) يحبها لا أكثر.. إنه يحب ايذائه كوالدته (هناء).

ثم غادرت (هناء) مع ولدها وأقسم (معاذ) أنه من خلف الباب المغلق لمنزله يرى الهالة الصفراء المحيطة بها والأخرى الحمراء اللون المحيطة ب (منصور).

توجه إلى الحمام فغسل وجهه وظل صامتًا يتأمل وجهه في المرآة، سوف يقتل (منصور)، لن يسمح له بالزواج من (دنيا) إلا على جثته.

شاعرًا بالإحباط دلف إلى حجرته وألقى بجسده على السرير وتدثر بالغطاء الثقيل فغطى وجهه وجسده وغرق في سيناريوهات تخيلية ل (دنيا) وهي ترتدي ثوب الزفاف الأبيض وتتزوج من (منصور) ثم غرق دون مقدمات في النوم.

عندما أذن المغرب أيقظه (هشام) وكان قد عرف ما حدث من ولديه فقال له: إنهض لصلاة المغرب.

وربت على رأسه في شفقة ثم قال باسمًا: تكلم معي والد (دنيا) منذ قليل وكان محرجاً لكنني أخبرته ألا يقلق..لقد قامت الفتاة برفض (منصور) وقالت لن أتزوج من شخص أقل مني في العلم والثقافة وأكبر مني بأعوام..كما أنني لن أتنازل عن حلمي بدخول الطب والدراسة فيها..مازال أمامي 10 أعوام على الأقل قبل أن أفكر في الزواج..رفضته بينما مازال في بيتها.

ثم نهض (هشام) وقال وهو يغادر: أسرع لصلاة المغرب..فالمغرب غريبة.

ابتسم (معاذ) وبقلب يكاد يطير من السعادة نهض..الآن سيصلي المغرب ويستذكر من جديد..عليه أن يدخل كلية الطب وينهي دراسته ويتزوج (دنيا)..تلك هي خطته.

***

كان (منصور) قد طلب من والديه أن يعاود طلب خطبة (دنيا) فرفض والده ونهره بشدة وسخر من رغبته في فتاة رفضته وأتهمه بإنعدام الكرامة مما جعل (منصور) يصيح وهو يغادر المنزل: سأجعلها تقبل بي.

ثم لم يعد لا إلى البيت ولا إلى العمل، حاولت (هناء) التحدث مع زوجها كي يقدم بلاغًا للشرطة ولكن زوجها قال: دعيه، سوف يعود في النهاية بعد أن يتعلم التهذيب.

أما عن (منصور) فقد تسلطت عليه فكرة واحدة، عليه أن ينتقم لنفسه من تلك الفتاة المغرورة..كيف تجرأت ورفضته..هكذا أبتاع بعض السائل المخدر وقطعة قماش كي يقوم بتخديرها كما يفعلون في الأفلام، سيختطفها إلى شقته التي قام بتأجيرها في مكان قريب، ثم بدأ يحوم حول بيتها من وقت لآخر يتحين الفرصة كي يتمكن من تنفيذ خطته، المهم ألا يلمحه خاله أو أي أحدٍ يعرفه، سوف يرغمها على الزواج منه، تغادر (دنيا) البيت وتتحرك بمعطفها الأنيق إلى المكتبة كي تبتاع أوراقًا وبعض الأقلام، ليس الوقت مناسب فالشارع مزدحم، لا بأس.. سيظل يتحين الفرصة حتى تأتيه، صار يأتي في الصباح يحوم حول البيت ويظل مترقبًا نزولها، لكنها أغلب الأوقات لا تغادر البيت حتى جاء هذا اليوم الممطر، تساقطت الأمطار بغزارة فابتلت الشوارع، ثم توقفت الأمطار ومع ذلك ظلت الشوارع خالية، ولم يكن ينوي الخروج هذا اليوم لكنه مع توقف الأمطار قرر أن يجرب حظه فغادر شقته وتوجه إلى حيث تلك الشجرة الضخمة التي يتوارى خلفها ثم خفق قلبه في سعادة ولم يصدق حظه الحسن وهو يرى (دنيا) تغادر البناية مسرعة ومعها أوراق في ملف بلاستيكي وتتجه مسرعة إلى المكتبة، ليس هذا فقط، بل لقد وجدت المكتبة مغلقة فأسرعت بالتوجه إلى مكتبة أخرى بعيدة نسبيًا والجميل أنها تقع في شارع جانبي هاديء خالٍ تمامًا.. تلك فرصته.. سيختطفها وينقلها في سيارته القريبة، تبعها بهدوء وخيل إليه أن هناك من يتبعه فاستدار خلفه ولم يرى أحد فعاد يتبعها، في هذا الشارع الخالي لن يرى أحد ما سيحدث لها، بالطبع لم يخطر في باله أنه بالمثل لن يرى أحد ما سيحدث له الآن حالًا وهو يتلقى الضربة على رأسه ويسقط فاقدًا الوعي ويتم تقييد يديه وقدمه وفمه وإلقائه داخل صندوق السيارة.

***

أخبر (معاذ) الطبيب أنه يشكو من الصداع ولم يزد عن ذلك، نقله طبيب المدرسة لمستشفى الطلبة للفحص وتم عمل أشعة مقطعية على المخ بعد مرور أيام عدة في تنقله بين طبيب عيون إلى طبيب باطنة وأخيرًا طبيب أعصاب وكانت النتيجة أنه بخير تمامًا، فعل هذا سرًا ودون إخبار والديه حتى لا يقلقهما.. أستمر في حياته بعدها بشكلٍ عادي ولكنه راح يبحث في المكتبات ووسط الكتب العلمية عن تفسير لتلك الموهبة الغريبة لديه، بدأت تلك الموهبة تثير ضيقه حقًا فكلما ذهب إلى مكان مزدحم يرى عشرات الهالات بألوان مختلفة لايفهم معناها حتى يصاب بالصداع ويضطر إلى أغلاق عينيه لدقائق واستمر في بحثه في الكتب والمكتبات عن تلك الظاهرة حتى عرف معناها أخيرًا، (هالة كيرليان).. ولكن لماذا يراها؟

وقبل انتهاء أجازة منتصف العام بعدة أيام كان من روتين الأسرة المعتاد أن يسافروا جميعًا مع جميع أفراد العائلة أربعة

أيام إلى المنيا حيث مسقط رأس (منصور) الكبير ثم يعودون..وقال (معاذ): هل يجب أن اصحبكم؟

فقد كان يمقت تلك الرحلات حقًا مع جديه أو عمته وأبنائها.

يصر (منصور) الجد الكبيرعلى السير من الطريق الزراعي وهكذا تتحرك سيارة (هشام) وفيها أفراد أسرته وأمامها سيارة زوج (هناء) البيجو وفيها هي وزوجها ووالديها وأبنائها بينما يتولى زوجها قيادة السيارة..تتحرك السيارتان من المنيب قاطعة تلك الرحلة الطويلة المرهقة المملة للغاية في نظر (معاذ)..لاشيء مميز في البلدة سوى الهدوء الشديد الذي يجعلك تنام كلوح من الخشب حتى أذان الظهر..ربما يحب أخوته وابن (هناء) الأصغر البلدة لأنهم يقضون الوقت في اللعب بالقرب من الترعة ومطاردة اليعاسيب في المزرعة ولكن بالنسبة ل(معاذ) فهي بلدة مملة والبعوض فيها شرس والزمن يمضي فلا تشعر به مطلقاً.

تضع (هناء) مع (حسناء) ملاءة على الأرض بالقرب من الترعة ويتم رص الطعام فيجلس الجميع لتناوله وينادونه ليترك الكتاب الذي يستذكره وينضم اليهم..ينتهي سريعًا ثم يعود إلى المذاكرة بالقرب من الترعة ويغدو ويروح محاولًا حفظ قوانين الفيزياء بينما يلعب الصغار بجواره، شاردًا يفكر (معاذ) هل هو بطل خارق!؟ لطالما كانت تلك

الأحلام تداعبه عندما يكون محبطًا أو حزينًا، كان يقرأ في صغره المجلات المصورة (سوبرمان) و(الرجل الوطواط) و(الرجل العنكبوت) ويغرق فيها بكيانه كله، حاليًا لم يعد يقرأ تلك المجلات ولكنه يتذكر أبطالها الآن ويرى نفسه واحدًا منهم.. لديه موهبة غير عادية، إنه يرى الهالة الحيوية حول الناس، لقد أكتشف طبيعة موهبته أخيرًا بعد بحث مطول وسط الكتب، ولكن لقدرته تلك حدود فهو لا يراها إلا مصادفة وإن أراد تفحص هالة شخص ما فعليه التركيز وإغلاق عينيه أولًا وإبعاد كل الأفكار من رأسه، ثم يفتح عينيه فيرى الهالة، ربما لو قام بتدريب نفسه بانتظام لتطورت مهارته تلك، كان غارقًا في تفكيره عندما اقترب منه ابن (هناء) الأوسط في حذر متظاهرًا بأنه يمرح ودفعه في غل ليسقطه في الترعة.

شهقت (حسناء) في ذعر وهرع الأولاد جميعًا نحوه ودون تفكير قفز (حسام) إلى الترعة وكان لا يجيد السباحة بعد فجذبه (معاذ) وخرج به من الماء، قال زوج (هناء) في برود متظاهرًا بأنه يلوم ولده: عيب يا ولد.

أخفى (معاذ) غضبه العارم وإن أحمرت أذناه، فهو يعلم أنهم يكادون يجنون غيظًا بعد أن رفضت (دنيا) ولدهم واختفاء هذا الولد وأكتفى بابتسامة مستهزئة أثارت غيظ (هناء) أكثر، فقالت وهي تعاود الجلوس وتبدأ في تقشير ثمار التفاح: لمَ تستذكر بتلك الجدية يا (معاذ)؟ أنت لاتنوي دخول كلية الطب، أليس كذلك؟

رد (معاذ) وهو يساعد والدته في تجفيف (حسام) بعد أن جفف نفسه: بل هذا ما أنتويه فعلًا.

ردت (هناء) وهي تناوله ثمرة تفاح: هل يسمحون لأمثالك بدخولها؟ أعني مجهولي النسب؟

لم يشعر (معاذ) بإهانة كعادته وإنما ابتسم في سخرية من سخافة الكلام، وهتف (هشام) لزوجته: أعدي الحقائب فنحن مغادرون، يا أولاد غيروا ثيابكم المبتلة حتى لا تصابوا بنزلة برد.

وتطلع إلى الحضور بصرامة وقال: لا أحد يهين أبنائي في حضوري.

وجم الجميع ولم يجرؤ أحد على فتح فمه بكلمة اعتراض، ثم قال (منصور) الكبير: ستغادرون جميعًا غدًا.

قال (هشام): بل اليوم.

رد (منصور) والده في عصبية: غادروا جميعًا إذًا، وأنت يا (هناء) لا تأتي بأبنائك ثانية إلي حتى تقومين بتربيتهم، سأبقى أنا ووالدتكما أسبوعًا.

ولهذا عادت السيارتان إلى القاهرة ولم تتكلم الأسرتان معًا، وتقدمت سيارة (هناء) بأسرتها للأمام وإن ظلت في مرمى

البصر وجلست (حبيبة) على قدمي (معاذ) طلباً لبعض الدفء ترمق الطريق من نافذة السيارة وتختلس النظر إلى وجهه المكفهر الغارق في الخواطر المؤلمة، عطس (حسام) فاستدارت والدته ووضعت يدها على جبهته في قلق وهزت رأسها قائلة: ارتفاع طفيف في درجة الحرارة.

ناول (معاذ) أخيه (حسام) منديلًا وهو يشعر بالامتنان الشديد، لا يصدق أن أخاه قفز تلقائيًا إلى الماء من أجله، أغلق (معاذ) عينيه، سيطور موهبته ويصير بطلًا ينقذ المحتاج ويقف بجوار الضعيف ويقضي على الأشرار، ربما عليه أن يصنع رداءً خاصًا يخفي ملامحه ويختار اسمًا يليق به، (سيف العدالة) أو (نصير المظلومين).. لا.. كلها أسماء سخيفة...

سيأخذ وقته في التفكير باسم مناسب، عليه الأهتمام بصحته وتطوير نفسه، أنه يجيد السباحة والكاراتيه ولكن هذا لايكفي..عليه أن يتعلم الملاكمة والتايكوندو والكونغ فو..وغيرها..حل الظلام سريعًا وبدا أن والده مرهق من القيادة ولكن لا أحد سواه يملك رخصة قيادة ورغم أن (معاذ) يجيد قيادة السيارة فقد رفض والده أن يسمح له.

أخرجت (حسناء) كتابًا في علم النفس كانت قد أحضرته معها كي تتسلى بقراءته وفتحت ضوء السيارة وشرعت تقرأ في

تركيز..عاد (معاذ) يغلق عينيه وحاول تركيز فكره على الهالة الحيوية..لايدري ماذا سيرى في هذا الطريق المظلم ولكنه يريد تدريب نفسه..ظل دقيقة يركز ويتجاهل كل ما

حوله من مؤثرات قدر المستطاع ثم فتح عينه فرأى..هناك دخان أخضر بلون داكن ينبعث من الطريق أمامهم قادم من الأتجاه العكسي..من حسن الحظ أن لااحد يراه سواه وألا أصيب (هشام) بالذعر وأنقلبت السيارة..اللون الأخضر يعني المرض..خمن أنه سائق مخمور أو نائم أو تعاطى شيئًا ما..هذا السائق سيتسبب في حادث ما..أنه يقود بلا تركيز..غالبًا سيصطدم بسيارة (هناء) لأنها تسبقهم..فتح فمه كي يطلب من والده تحذيرهم بسرعة بأصدار أشارة من السيارة أو حتى أستخدام هاتفه المحمول ((لم تكن الهواتف المحمولة شائعة وقتها مع الجميع)) ثم سكت..فليذهبوا حيث ألقت..هم ينالون ما يستحقون..عاد يغلق فمه ويصمت لكنه سرعان ما لام نفسه..أي بطل هذا يترك الناس تموت لأنه لايحبهم..بل أي أنسان يفعل هذا..هذا تصرف خاطيء، هم ثانية بقول ما يريد ولكنه تأخر للأسف وكانت لحظات التردد تلك هي ما أضاعت عليه فرصة التدخل..بغتة وسط الظلام الدامس للطريق ظهر كشافا الضوء لسيارة نصف نقل تسير في إتجاه عكسي أمامهم في تهور..هذان الكشافان كفيلان بإصابة أي سائق بالعمى، لتصطدم بسيارة (هناء) وقبل أن يتمكن (هشام) من الإفلات كانت سيارته قد أصطدمت بدورها.. ثم أظلم كل شيء.

***

\

(4)

نجح (نادر) أخيرًا في إقناع والده وجده وبعد إلحاح فسمحوا له بالذهاب لزيارة صديقه (معاذ) وأسرته في المستشفى بمحافظة أسيوط وهي الأقرب وقت الحادث وقال جده في ضيق: ألا يمكنك الآنتظار حتى يتم نقلهم إلى القاهرة، ليكن.. أذهب ومعك السائق.

وبالفعل كان قد وصل بعد ساعات من السفر على الطريق الصحراوي، وهرع إلى حجرة (معاذ) حيث رقد مستغرقاً في النوم وقد أحيطت رأسه بالضمادات..جذب المقعد وجلس بهدوء حتى أستيقظ (معاذ) فألتفت ليرى (نادر) جالسًا يبدوا على ملامحه القلق..مر يومين على الحادث المروع كما أسمته الصحف، مات السائق وأتضح من التشريح انه كان متعاطيًا للمخدرات بالفعل وتوفي زوج (هناء) في هذا الحادث وأصيبت هي بكسور ونزيف داخلي ومازالت في العناية المشددة وكذلك أبنها الأصغر، ابنها الأوسط غادر العناية المشددة منذ قليل، وولدها (منصور) ظل مختفيًا.

قال (نادر): حمداً لله على سلامتك، لا تتصور حجم الرعب الذي شعرت به من أن يصيبك مكروه.

تنهد (معاذ) ولم يجبه، لم يمت أحد من أفراد أسرته لحسن الحظ ولو مات أحد منهم لقتل نفسه فورًا ولكنه يشعر بالغضب والإحتقار الشديد اتجاه نفسه، ويشعر بالذنب كذلك، ياله من بطل عظيم.

(هشام) تعرض لإرتجاج في الدماغ وكسر في ساقيه، (حسناء) أصيبت بكسر في ذراعها اليسرى، (حازم) أصيب بكسر في أحد الضلوع وكسر في الساق اليمنى، (حبيبة) بخير لم تصب سوى بالذعر وبعض الرضوض لأن (معاذ) أحتضنها وحرص على أن يتلقى هو بجسده كل الضربات والصدمات، أما (حسام) فقد تعرض لكسر في عظيمات الأذن الوسطى والطبيب قلق من أنه لن يستطيع استعادة القدرة على السمع بشكلٍ كامل ثانية، وهذه هي نتيجة تردد (معاذ) لدقيقة واحدة، ليته لم يتردد، ليته لم يسمح لغضبه أن يطغى على انسانيته بهذا الشكل.

ظل (نادر) يمازح صديقه ويحاول تخفيف حزنه واكتئابه دون جدوى، وبعد قليل قال (معاذ): (نادر)، هناك سر خطير أريد أن أبوح له لك.

-ماهو؟

-أنا لدي موهبة ليست لدى أحد من البشر، أنا أرى الهالة الحيوية للناس.

تطلع إليه (نادر) متسائلًا إن كان الحادث قد أثر على عقله أو نفسيته بشكل ما.

قال (معاذ) في جدية: أنا لا أمزح، لقد قرأت كثيرًا حول الموضوع، في عام 1939 أدعى باحث روسي يدعى (سيمون كيرليان) إكتشاف هالة تحيط أي جسم (من بشر ونبات وحيوان) بغلاف غير مرئي يشع على هيئة موجات كهرومغناطيسية ذات ألوان تسمى الهالة أو الأورا، وأدعى أيضًا أنه يمكن إثباتها علميًا وتفسير ألوانها وأشكالها على الحالة النفسية والجسدية للجسم...

قاطعه (نادر): أنا لا أفهم ما تقول، ماهي الهالة تلك؟

-فقط أسمعني، قرأت في كتاب بالمكتبة أن بعض العلماء يؤكدون بما أن كل مخلوق حي يصدر حرارة وغاز وطاقة، فإنه من المعتقد وجود هالة من الحيوية تصدر عنه أيضًا، وهذا يعني وجود توهج من اللون حول الجسم والذي يكشف عن عافيته ومزاجه وأفكاره، لقد حفظت ما في الكتاب من معلومات.

-وأنت ترى تلك الهالة؟

-أجل، يزعم الوسطاء الروحانيين أنهم يرونها ولكن أتضح أنهم نصابون جميعًا، حتى الآن لا أحد يراها، ولكنني أراها.

-كيف تراها؟

-لا أدري، أنا فقط أراها، إن كنت لا تصدقني فقم باختباري.

نهض (نادر) وبدا عليه الحماس وقال: دعنا نختبر قدرتك إذًا.

قال (معاذ): ساعدني على النهوض إلى شرفة الحجرة.

ونهض متكئًا على صديقه إلى الشرفة، وتطلع إلى ساحة المشفى ثم أشار إلى ممرض يقف هناك وقال: أنظر، الهالة حوله حمراء اللون، هذا يعني أنه سيتشاجر الآن أو يضرب شخصًا ما فغضبه قد بلغ ذروته.

بالفعل تحرك الممرض نحو زميل له وبدأ يتشاجر معه في شراسة على أموال ما وتدخل البعض للتفرقة بينهم.

صفر (نادر) في انبهار ثم قال: يا إلهي، دعنا نجرب ثانية، هل نتجول في المستشفى؟

-ليكن.

وغادر معه الحجرة وراحا يسيران معًا في الممر، مرت ممرضة بجوارهما وهي تحمل ملفًا وتسرع الخطى، تطلع (نادر) إلى (معاذ) متسائلًا فقال: هالتها زرقاء، أغلب البشر هكذا.

ثم وقف ينظر اليه وقال في حذر: هالتك خضراء قليلًا، أنت مريض؟

رد (نادر): أجل، لدي ألم فظيع بسبب القولون العصبي.

ابتسم (معاذ) في ظفر وقال: أرأيت.

تلاشت الابتسامة من وجه (نادر) وقال في حيرة: متى ظهرت موهبتك تلك؟

-منذ عشرة أيام تقريبًا.

-هكذا فجأة، حسبتها ظهرت لديك بعد الحادث منذ أيام.

-لا،هي موجودة من قبل الحادث.

-حدثني عن الألوان؟

-دعنا نذهب لرؤية أختي ووالدي، لا أعرف سوى 4 ألوان، الأزرق والأحمر والبرتقالي والأخضر.

قال (نادر) لنفسه:هل أثرت الحادثة على عقله؟

قال (معاذ): الهالة تغيرت لديك إلى اللون الأزرق، بدأت تشعر بتحسن.

غمغم (نادر): كيف تفعل هذا؟

-لا أدري.

-هل ترى تلك الأشياء طوال الوقت؟

-بالعكس، قد تمر علي أيام لا أرى فيها شيئًا، ولكن بصراحة عندما أراها في مكان مزدحم تكون متعبة وأشعر بالصداع، ولكنني سأعمل على تطوير موهبتي تلك والتحكم فيها.

قال (نادر) في قلق: (معاذ)، هل أخبرت أحدًا من أسرتك بذلك؟

-ليس بعد.

-لاتخبرهم إذًا، لا تخبر أحدًا.

-لماذا؟

-لأنهم قد يضعونك في مصحة أو يحبسونك في معمل لعمل التجارب عليك، ألم تشاهد أي مسلسل أو فيلم يتحدث عن من يملكون صفات خارقة من قبل.

-لدي ذكرى مبهمة من أنني أخبرت أبي بموهبتي ولكنه طلب مني ألا أستخدمها.

-أرأيت.

-أجل، وأرى أنه من الأفضل أن احتفظ لنفسي بسر تلك القدرة حتى أستخدمها بحرية فيما بعد في الدفاع عن الضعفاء والمحتاجين وأحارب بها الأشرار، ولكنني قد أخبر والدي.

-سأكون مساعدك إذًا.

***

مر الوقت سريعًا وعاد الجميع إلى القاهرة وبدأ الجميع في التحسن، المشكلة كانت في (حسام)، لقد قرر الأطباء أنه لابد من عملية جراحية دقيقة لترميم العظيمات المكسورة في الأذن بمجرد إنتهاء الدراسة، مع الوقت أصبح (معاذ) منطويًا بعض الشيء وأدرك أن موهبته تلك لها مساوئها، كان يرى المعلم يمتدح مدير المدرسة بينما هالة المعلم رمادية، إنه يتملقه لا أكثر ويناففه بينما هو في الواقع يكرهه، رأى في المركز التعليمي الذي يتلقى فيه درس الرياضيات بعض الفتيات يتحدثن مع بعضهن بمودة بينما تتغير

الهالة إلى الأحمر والرمادي؛ أي أن مشاعرهن الحقيقية اتجاه بعضهن هي الغيرة والحقد، ثم بدأ يرى هذا في العديد من الأشخاص، صاحب السوبر ماركت يحاول خداعه وبيع الأشياء له بسعر أغلى بينما على شفتيه ابتسامة ودود، يرى الهالة الرمادية حوله، شعر بالأسى على حال الناس وهو يراهم لا يخافون الله، يخافون الشجار، الضرائب، الشرطة ، بينما لا يخافون الخالق المتفرد بالخلق والملك والرزق رغم تظاهرهم بالتقوى، كم الغل والحقد الذي يخفيه الناس ويدل على مرض القلب أصبح مستشريًا بشكلٍ جعله فعلًا يفضل أعتزال الناس، ما أعطاه دفعة ايجابية أن الخير مازال موجودًا، هناك أسرته وصديقه (نادر) و(دنيا) وهؤلاء لم يرى لون هالتهم رمادي ولو للحظة واحدة فلا بد أن هناك العديد من الناس كذلك، إنتهت الدراسة والامتحانات وجاء الصيف، ظل (هشام) حزينًا لفترة طويلة خاصة بعد أن كان آخر ما فعله مع أخته وزوجها المتوفي هو الشجار، نجح الأبناء جميعًا، ونجح (معاذ) بمجموع كبير أهله لدخول الطب، وكذلك نجحت (دنيا) بمجموع كبير وأما (نادر) فقد نجح بمجموع متوسط وقال ل(معاذ) وهو يزوره في بيته: لابأس، يمكنني دخول كلية التجارة على الأقل، هذه رغبة جدي ووالدي كي أدير معهم أعمال الأسرة.

-وماذا إن كنت ترغب في دراسة أخرى؟

رد (نادر) وعلى شفتيه ابتسامة مريرة: لا أهمية لرغباتي لديهما.

وضعت (حسناء) كوبين من العصير على الطاولة وهنئت (نادر) بنجاحه ثم غادرت حجرة (معاذ).

بعد قليل قال (نادر): ما أخبار موهبتك؟

-مازلت موجودة، ولكنني إذا أفرطت في أستخدامها أصاب بالصداع لهذا توقفت قليلًا.. أوتعلم.. أفكر في وظيفة أو مكان عمل يبعدني قليلًا عن تلك الهالات.

-وماذا عن الطب؟

-ربما أدخل كلية الطب، سأستخدم موهبتي تلك في علاج المرضى ويمكنني في المساء أن أقوم بتحقيق العدالة ومحاربة الجريمة دون أن يتعرف أحد على هويتي.

رفع (نادر) يده وقال في حماس: أريد أن أساعدك.

-لا مانع عندي، ولكن عليك أن تكون قويًا، عليك أن تتعلم فنون الدفاع عن النفس وتمارس الرياضة حتى تتمكن من مساعدتي.

كان الاثنان مراهقان يحلمان وقد جرفهما الحماس، وظلا لساعة يتحدثان عن خططهما لتحقيق العدالة والتحول إلى بطلين.

سمع الاثنان صوت الجارة وابنتها، فنهضا وخفق قلب (معاذ)، (دنيا) هنا في زيارة سريعة مع والدتها، غادر الحجرة يتبعه (نادر) في خجل، كانت (دنيا) تقف بجوار والدتها تتلقى التهنئة بنجاحها من (حسناء) والتي قالت: أه ..هاهو (معاذ).. أم دنيا تريد تهنئتك بنجاحك.

قالت (أم دنيا) باسمة: ألف مبروك النجاح يا بطل، الطب إذًا.

-أجل يا خالة، شكرًا لك.

-ستقوم بفحصي بالمجان طبعًا.

-بكل تأكيد.

واختلس النظر إلى (دنيا) وغمغم في خجل: مبروك النجاح يا (دنيا).

ردت في حياء: الله يبارك فيك.

دلفت الجارة مع أبنتها وجلسا في الصالة يثرثران مع (حسناء) قليلًا وأنتهت الزيارة بعد عشر دقائق وفي أحباط ودع (معاذ) (دنيا) ثم عاد إلى حجرته مع صديقه، مضت لحظة من الصمت شعر فيها (معاذ) أنه سينفجر إن لم يخبر صديقه بمشاعره وهم بالكلام ولكن (نادر) قال بغتة: (معاذ)..سأخبرك بسر هام للغاية..ستحتفظ به كسر ولن تخبر به أحد..أتفقنا.

-أتفقنا.

قال (نادر) بصوت حالم خفيض: أنا أحب (دنيا) وهي تحبني وقد أتفقنا على الزواج بعد أن أتخرج.

أمتقع وجه (معاذ) دفعة واحد وأختفت الابتسامة من وجهه واتسعت عيناه في ذهول وعدم تصديق ثم قال: أنت تكذب.

رد (نادر): أقسم بالله اني لا أكذب.

-بل تكذب..أنا أعرف (دنيا)..أنها مهذبة ومن المستحيل أن تصادقك أو تصادق سواك.

هتف (نادر) في غضب: ومن قال أنها صديقتي أو رفيقتي..أنا لا أقابلها أو أراها أبدًا ألا مصادفة عندك..أو في درس الكيمياء.

-هاأنت ذا أعترفت..كيف تقول أنها تحبك إذًا؟

- لقد أعطيتها رسالة منذ ثلاثة أشهر أخبرها بمشاعري وأني أريد أن أتزوجها بعد التخرج إن رضيت بأن تنتظر..وقد أرسلت الي رسالة بالموافقة..ليت الرسالة معي كي أثبت لك صدق كلامي.

كان الحزن يعتصر قلب (معاذ) الآن كما لم يحدث من قبل.. أعز وأقرب أصدقائه يحب نفس الفتاة..ليس هذا فقط..بل الفتاة تحب صديقه..هل كان يتوهم أنها تحبه.

وجم (معاذ) ونهض معلناً انه متعب ويرغب في الراحة ملمحًا إلى عدم رغبته في وجود (نادر) أكثر من ذلك.

وفي المساء بينما أستلقى على سريره يحدق في السقف فكر أنه لن يجعل (نادر) مساعده كذلك..سيكون بطلاً لوحده..أنه كاذب وواسع الخيال حقًا..لطالما كان يحسده على أسرته..على عطف (هشام) وحنان (حسناء)، لعله تنبه إلى مشاعره اتجاه (دنيا) فحقد عليه وألف تلك القصة السخيفة، ما يعلمه أن عليه أن يسأل (دنيا) بشكل مباشر.

***

(حسام) راقد على السرير بينما يدفعه الممرضون إلى حجرة العمليات تحيط به هالة تتبدل بين اللون الأخضر والأصفر ثم تختفي..الدموع تتجمع في عيون (هشام) برغمه بينما سالت على وجنتي (حسناء)..كل تلك العواطف مع شعوره بالذنب دفعت (معاذ) إلى البكاء أيضًا لكنه سرعان ما تمالك نفسه، لقد تعلم الدرس، البطولة لا تجزأ، في المستقبل لن يسمح لمشاعره الشخصية بالتدخل في عمله كبطل، جلس مع والديه في

حجرة الانتظار، ثم أنتهت العملية وكما حذر الطبيب لم يستعد (حسام) سمعه بالكامل وأصبح لاهو أصم ولا هو يسمع بشكلٍ طبيعي بالكامل، وشعر (معاذ) بالحزن يعتصر قلبه من جديد، كان (حسام) هو شقيقه المفضل.

بعد أيام التقى (معاذ) ب (دنيا) مصادفة أمام المصعد في الطابق الأرضي.. تلك فرصته.. لا وقت للتردد أو الخجل.. قال بسرعة: (دنيا)..أنا.. أنا معجب بك وأريد أن أطلبك للزواج، إن قبلتِ بي أخرجي إلى شرفتك في السابعة مساءً لثوان فقط.

تضرج وجهها بحمرة خجل قانية ودلفت إلى المصعد وصعدت وحدها بينما ظل هو واقف محاولًا أن يستجمع أعصابه، لا يصدق أنه قد صارحها أخيرًا.

في السابعة جلس (معاذ) على أرضية الشرفة، مرت نصف ساعة ولم تظهر، يبدو أن (نادر) كان يقول الصدق، أمتلأ قلبه بالغضب والبغض اتجاه صديقه الآن، لولاك لقبِلت يا (نادر)، الآن كيف يستكمل حياته بدونها، بعد قليل غادرت (دنيا) معلنة أنها ستتنزه قليلًا مع صديقاتها وتبتاع ثيابًا للصيف وتعود سريعًا، تأملها (معاذ) من الشرفة وهي تسير في الشارع كملاك رقيق خجول مرتدية فستان من قماش الجينز وطرحة رأس بيضاء، حولها هالة زرقاء عادية وتساءل إن كانت ستلتقي ب (نادر) أم أنها ذاهبة للقاء صديقاتها بالفعل، تخرج هاتفها المحمول النوكيا وتجري اتصالًا ما، ليته يمتلك واحدًا كان الآن ليتصل ب (نادر) ليعرف إن كان هاتفه مشغول أو لا ويعرف إن كانت تتصل ب(نادر) الآن أم إحدى صديقاتها، رفعت بصرها مصادفة فلمحته، خفضت وجهها سريعًا وتغير لون هالتها للأصفر، إنها حزينة من أجله أو متوترة بسببه.

وضع طعام العشاء واجتمعت الأسرة على المائدة ولم يشعر (معاذ) بشهية لتناول الطعام، في المساء دلف إلى حجرته لينام بينما سهرت بقية الأسرة أمام فيلم يعرض على التلفاز، ثم سمع صوت جرس الباب وصوت والد دنيا المضطرب، نهض منزعجاً وسأل: ماذا هناك؟

رد (حازم): (دنيا) لم تعد حتى الآن وهاتفها مغلق وصديقاتها قالوا أنها لم تأتي للقائهم.

خفق قلب (معاذ) في خوف، كيف هذا وأين أختفت؟

كان والد دنيا محرج للغاية فهو يحتاج مساعدة في البحث عنها كما يبدو و(هشام) يسير معتمدًا على عكاز وحركته محدودة فعلاجه لم يستكمل بعد وأخوة (دنيا) أطفال، فهتف (معاذ): سآتي معك يا عماه للبحث عنها.

وأسرع يرتدي ثيابه ولم ينسى أن يتصل ب (نادر) من هاتف (هشام) المحمول وسأله دون تحية: (نادر)، هل
(دنيا) معك؟

تثاءب (نادر) ثم قال في حيرة: كلا بالطبع.

ثم بدا غاضبًا من لهجته وهو يردف: أخبرتك أننا لا نلتقي، فقط...

قاطعه (معاذ): أنها مختفية وأهلها قلقين، إن اتصلت بك أخبرني فورًا.

وأنهى المكالمة، راح مع والدها يبحثان في الشوارع المحيطة..البقال قد رأها مغادرة وقد ألقت عليه السلام ولكنها بعد ذلك أختفت..بعد ساعتين من البحث عاد (معاذ) مع والدها إلى منزله، والدتها اتصلت بجميع أقاربهم وصديقات أبنتها، لم يرها أحد، في اليوم التالي تم إبلاغ الشرطة وقال الضابط أنها ربما هربت بسبب خلافات
أسرية..ولكن الجميع كان يعلم أن هذا غير صحيح، كما أن والدي (دنيا) ليسا من هذا الطراز الذي قد يدفع أبنائه إلى الهروب، تم عمل محضر وأعد لها ملف فيه صورتها وهي تبتسم، مضت أيام دون نتيجة ولا أثر لها، بعد أشهر تم حفظ الملف، أنزل والديها صورتها في الجرائد، ظل (معاذ) يبحث ولم يدري أن (نادر) أيضًا كان يبحث عنها، بدأ العام الدراسي الجديد ولم تظهر، في النهاية أدرك الجميع أنها لن تعود ثانية وأنها قد ماتت أو ُقتلت على الأغلب.

بالطبع أصيب (معاذ) بالاكتئاب، لديه موهبة وقدرة غير عادية ولكنه لا يستطيع مساعدة من يحب أو أنقاذها.. إنه عاجز.. تلك الموهبة لم تفده وهو في أمس الحاجة إليها، فلتذهب موهبته إلى الجحيم إذًا فهي بلا جدوى، ظل يدعو أن تكون بخير وأن يعثر عليها.

***

## (5)

4 فبراير 2018م

قال الرائد (عمر): دكتور (معاذ)، أريدك أن تتفحص الجثة مع الدكتور (مصطفى) وتعد تقريرًا شاملًا عنها، سيتعاون معك المعمل الجنائي.

وتطلع نحو السماء الملبدة بالغيوم في قلق داعيًا الله ألا تمطر الآن فتضيع معظم الأدلة وتحرك إلى داخل البيت المهجور مع (معاذ)، ثمة صداقة طفيفة نشأت بين الرائد (عمر) و (معاذ) منذ كانا طفلين فهو ابن جارهم بالطابق السابع ووالده كان ضابط شرطة وتقاعد برتبة لواء منذ أشهر وهو أكبر سنًا بأربع سنوات من (معاذ)، وكان (عمر) يرى أن (معاذ) عبقري وبارع للغاية في عمله ودقيق كما أنه شغوف به ويعتبره وسيلة لتحقيق العدالة ولابد أنه سيصير يومًا ما كبير الأطباء الشرعيين.

اليوم بلغ (معاذ) الثامنة والعشرين من عمره، تخرج من كلية الطب ثم قرر أن يتخصص في الطب الشرعي، كانت له أسبابه ليتخصص في هذا المجال المنفر لأغلب الأطباء.. أولًا موهبته ظلت موجودة وهي لن تفيده في علاج المرضى للأسف فأغلب المرضى هالتهم خضراء والتحاليل كفيلة بتحديد نوع المرض دون حاجة إلى موهبته، ثانيًا هو لا يخشى مشهد الموتى ولا الجثث، لقد شارك في ثورة 25 يناير عندما قام بها الشباب وعمل في المستشفى الميداني ورأى بعينيه من ماتوا من الشباب أو أصيبوا، أصابه الفزع والصدمة أول مرة ثم أعتاد الأمر، ثالثًا كان يشعر بأنه بهذا الشكل سيحقق العدالة لمن يحتاجها، هؤلاء من ُقتلوا وفقدوا حياتهم ظلمًا ولم يعد بوسعهم أن يتحدثوا أو يتهموا قاتلهم أو يحصلوا على القصاص، يستحقون من يبحث عن الدليل ويعثر عليه ويقدم المذنبين والقتلة إلى العدالة وينتقم لهم، إلا أن السبب الرئيسي هو أنه بمجرد موت المرء تختفي هالته إلى الأبد، وهو يفضل قضاء يومه وسط الجثث بدلًا من قضائه وسط الأحياء بهالاتهم التي تعكس ما يبطنون فتطفو حقيقتهم المريرة أمام عينيه.

أعترض والداه وقال (هشام): الطبيب الشرعي في مصر مرتبه أقل من مرتب الطبيب العادي، كما أن القانون يمنعه من فتح عيادة خاصة، صحيح أن فرص السفر إلى الخارج أفضل ولكن...

-لايهم، أنا لا أرغب في ان أمضي يومي كله في العمل بين المستشفى والعيادات.

-ولماذا هذا التخصص بالذات؟

-لأن عدد المتخصصين فيه في مصر قليل جدًا، هذا التخصص من أهم التخصصات في العالم، أن تجلب العدالة للمظلومين، أن تساعد الشرطة في القبض على الجناة بفضل تقاريرك وبحثك وعملك ومع ذلك يعاني من نقص الأعداد في بلدنا.

بعد أن تخرج (معاذ) قرأ الأعلان الذي تم عمله لكل خريجي الطب على مستوى مصر، تقدم بورقه وتم عمل اختبارات نفسية ومقابلات شخصية معه، أثبت أنه قوي ولديه ما يكفي من الثبات الانفعالي، يستطيع تفحص الجثث المشوهة والمحترقة والمقتولة، مضى على عمله حتى الآن ثلاثة أعوام أثبت فيهم كفائته حتى أنه تمت ترقيته بشكل استثنائي وبعد أن كان بوظيفة معاون طبيب شرعي ميدانى من الدرجة الثالثة ترقى إلى الدرجة الثانية، لم يخبر أحدًا قط عن موهبته وكان يستخدمها عند الضرورة فقط.

يحب عمله ويعتبره مهنة فك الألغاز وتجميع الأدلة كلعبة البازل، في النهاية صارت له سمعة جيدة بين زملائه ولدى رؤسائه، ومن حسن حظه أن موهبته ساعدته في تجنب من يغار منه أو يسعى لهدمه أو تحقير شأنه.

منذ ساعات مر رئيسه الدكتور (مصطفى) فهتف وهو يقف على باب الحجرة: (معاذ)، هيا بنا.. سنذهب إلى موقع الحادث، عثرت الشرطة على جثة في المعادي.. أسرع قبل أن تهطل الأمطار وتضيع الأدلة.

عندما وصل وقف ينظر إلى ذلك المنزل الغريب المتهدم تقريبًا والخالي منذ سنوات عدة بعد وفاة صاحبه، هناك حديقة مهملة بالطبع من ثم تلفت الثمار وذبلت النباتات ونمت الحشائش، هذا وكر ممتاز للقطط أوالكلاب الضالة، هناك حائط متهدم من البيت والذي كان مكون من طابقين وخالي من الأثاث، أغلب النوافذ محطمة الزجاج ومفتوحة والغبار والأتربة يغطي الأرضيات، الجثة دفنت بدقة وعلى عمق جيد في أحد أركان الحديقة وقد قامت الشرطة باستخراجها والغريب أن محفظته كانت ملقاة بجواره، بدأت عملية التقاط الصور لموقع الدفن وما حوله، هناك آثار أقدام جزئية،

تأملها (معاذ).. القاتل ذكي.. لقد قام بمسح آثار أقدامه ولكنه فعل ذلك باستعجال فتبقى جزء من الآثار لم ينتبه له.

سمع الرائد (عمر) يقول لزميله: اتصال من مجهول من هاتف محمول في أحد الأكشاك في منطقة إمبابة، أخبرنا المتحدث بوجود جثة لشخص مقتول دفنت في حديقة منزل مهجور في المعادي وأعطانا العنوان بالتفصيل وأنهى المكالمة.

أنحنى (معاذ) يتأمل أثر القدم بدقة وتركيز، هذا قياس 43 أو 44، يعرف ذلك بدون أن يحتاج لرؤية أثر القدم كاملًا.

منحنيًا كما هو راح يتفحص محيط المكان بحثًا عن أثر آخر تركه القاتل فلم يجد، توجه إلى داخل المنزل مع (عمر) ليتفحصه..لايوجد أثر أقدام مطبوع على أرضية المنزل..إذًا القاتل لم يدخل إلى البيت فالأرضية المغبرة كانت ستظهر بها الآثار حتمًا..حينما أستيقن (معاذ) من أنه لا يوجد أدلة أخرى غادر المكان.

في مصلحة الطب الشرعي أو مشرحة زينهم..وقف (مصطفى) ومعه (معاذ) ومعه فني تشريح..تعرفت زوجة الضحية على جثته وظلت تبكي بحرقة ومر الأمر ككل يوم تقريبًا وحان وقت العمل.

القتيل رجل ثلاثيني..تم ضربه بأداة حادة على رأسه، أشار (مصطفى) إلى رأس القتيل وقال: هناك أثر لضربتين.. لا.. ثلاث ضربات.

رد (معاذ): تلك الضربة تبدو أقدم قليلًا.. همم..الضربة الأولى وقعت منذ حوالي 72 ساعة، ما رأيك؟

-ربما، تقرير المعمل الجنائي هو ما سيحسم الأمر بدقة أكبر.

عاد (معاذ) يقول - فتوقعاته حتى الآن كانت دومًا صائبة- : الضربتان الأخرتان وقعتا منذ 35 ساعة إلى 48 ساعة تقريبًا، القاتل وجه له ضربة أولية لإفقاده الوعي، الضربة الأخيرة حطمت الجمجمة وأودت بحياته.

واشار إلى باطن قدم القتيل، مد الجفت وقام بإخراج قطعة من الزجاج المكسور من باطن القدم، قال: القتيل كان يسير حافي القدمين، كل تلك الجروح في باطن القدم، هناك

زجاج مكسور على الأرض بكمية كثيفة، القتيل كان يسير في إضاءة ضعيفة وإلا لأنتبه وما تمزقت قدمه هكذا، أو أنه أضطر للسير على تلك الأرض.

تساءل (مصطفى): أثر السلاح الذي أستخدم في القتل.. أنظر، إنه أثر غريب جدًا، أي سلاح هذا؟

مط (معاذ) شفتيه وتأمل الأثر عن قرب ثم قال: لا أدري.

ومد يده يتفحص يد القتيل وذراعه وأنامله وأسفل أظافره..قال (مصطفى) وهو يعدل عويناته:لم يعثر المعمل الجنائي على أثر لأي نسيج أو دماء أو جروح أسفل الأظافر للأسف.

أشار (معاذ) إلى معصم اليد وقال: لقد كان مقيد اليدين..هنا أثر ضرب عند لوح الكتف..مهلًا..رباه..لقد تلقى ضربتين هنا

وهنا في ظهره.

وأشار إلى كدمتان مستديرتان عند لوح الكتف وفي منتصف الظهر.

قال (مصطفى): هلا بدأنا التشريح؟

أنتهى التشريح، غادر فني التشريح وخلع (مصطفى) عويناته وفرك عينيه في أرهاق، ثم قال: هذا يكفي، سوف أعود إلى المنزل وأنت أيضًا، لا تقف مكتئبًا هكذا.

قال (معاذ):لن أعود الآن..سأبقى قليلًا.

-لو بيت الليلة هنا فلن يحدث هذا فارقاً..القاتل ذكي ولم يترك أثر لدم أو شعر أو نسيج أو بصمات..الشرطة ستحقق وتبحث عمن لديه دوافع للأنتقام من القتيل بهذا الشكل.

تذكر (معاذ) محفظة القتيل..بها عشرون جنيه لاغير وصورة لطفل صغير عمره لايزيد عن أربعة أعوام غالبًا هو ابنه..هناك وصل بمبلغ مالي تم دفعه لمدرسة خاصة.

عاد (معاذ) يقف بجوار جثة القتيل..لأول مرة منذ عمل في المصلحة يشعر بالقلق من أن الأدلة ليست كافية للعثور على القاتل.

تنهد (مصطفى) ثم غادر وتركه لشأنه..من رأيه أن مساعده هذا قد حقق معادلة مستحيلة..أنه بارع في عمله ومتعاطف..الطبيب الشرعي يجب أن يكون بارداً ويؤدي عمله بحيادية دون أن يشفق على الجثة ويعتبر الثأر لها أمرًا شخصي..لو أصبح عاطفياً فستنخفض كفاءته وربما يستقيل أو يغير تخصصه كما يفعل الكثير من الأطباء..ولكن (معاذ) كان أستثناء..أغلق (معاذ) عينيه لتخفيف الصداع ثم فتحهما وتحرك بنشاط.

أفادته موهبته ذات مرة في فحص جثة طفلة كانت مريضة قلب لأنه رأى الهالة الرمادية حول أحد أقاربها المجتمعين..هكذا شك أن وفاة الطفلة ليست طبيعية وأتضح أن الطفلة تم تسميمها بخلط دواء داخل قطعة شيكولاتة..بالطبع كان تحليل دمها سيثبت ذلك ولكن المشكلة أنه لم يكن أحد ينوي عمل تحليل دم لأن الظاهر عدم وجود شبهة جنائية في الأمر فهي طفلة مريضة قلب ماتت.

الآن يعيد الفحص من جديد..يرى بقايا هالة لا تنتمي للضحية لونها أسود داكن وهو لم يلقى من قبل هالة بهذا اللون فإن كان الرمادي هو الشر فماذا عن الأسود؟..كان قد أدرك منذ زمن أن الموتى تختفي هالتهم إلى الأبد، فقط إن قُتِلو يظل جزء من هالة القاتل عالق على جسد الضحية، الهالة السوداء حول الذراع الأيسر للضحية، رائحة الجثة والأدوية والأدوات من حوله يحفظها جميعًا.. ثم.. عثر على الدليل، أسفل أبط القتيل، مد (معاذ) يده ورفع الذراع الأيسر ووقعت عيناه على الختم.. كان هذا ختم مطبوع بجملة ما.. مندهشًا وغير مصدق ضيق (معاذ) عيناه وحاول قراءة العبارة المكتوبة "تم قتلك بنجاح"، مطبوعة بين الشعيرات النابتة.

ظل يحدق في الختم غير مصدق ثم توجه إلى حقيبته الموضوعة على المقعد كي يجلب هاتفه ويتصل بالدكتور (مصطفى) ولكنه فوجيء به يدلف إلى الحجرة ويقول: زوجة القتيل هنا وترغب في تسلم الجثة.

-لن تصدق ما وجدت في الجثة، تفحص تحت الأبط الأيسر يا دكتور من فضلك.

أرتفع حاجبا (مصطفى) وقال: ماهذا بالضبط؟

وكاد أنفه يلتصق بجلد الجثة وهو يحاول قراءة العبارة ثم هتف: ما هذا؟

رد (معاذ): ختم، بآلة طباعة الأختام أو الاستمبات كما تسمى، بحبر فاخر مضاد للماء وللعرق..عبارة لا يكتبها سوى مختل

أو سايكوباث.."تم قتلك بنجاح"، ولكن لنتأكد أولًا، فلنسأل الزوجة.

***

"ليس ذنبي أنهما لا يحباني، يريدان إعادتي، فليفعلا إذًا، لن أموت في دار الأيتام"

الفتاة التي تفوهت بتلك العبارة الغاضبة هي مراهقة في الرابعة عشر من عمرها، تضع مساحيق تجميل وتترك شعرها الناعم الطويل ينسدل على ظهرها وهناك قرط صغير في أنفها.

هتفت والدة الفتاة: من قال أننا لا نحبك، أنت من تتوهمين ذلك.

أشارت إليها (حسناء) أن تهدأ ثم أشارت إلى الممرضة كي تصطحب الفتاة الصغيرة إلى جلستها مع الطبيبة الجديدة بعد أن رفضت جميع الأطباء حتى الآن.

كانت (حسناء) تعمل هنا في تلك المصحة الخاصة الراقية كمحللة ومرشدة نفسية فهي حاصلة على الدكتوراة في هذا المجال..تعمل ثلاث أيام في الأسبوع هنا ويومين في الجامعة وتبقى لها أقل من عام قبل أن تصير من أصحاب المعاشات وتتم الستين عامًا.

قالت الأم الجالسة في المكتب أمام (حسناء): أيهما أقوى يا دكتورة..العوامل البيئية أم العوامل الوراثية؟

-الواقع أن هذا السؤال لم يحسم حتى الآن وعلماء وأطباء النفس مقسمون فيه إلى فريقين.

-وأي الفريقين رأيه راجح؟

-عوامل الوراثة كالجينات..قد يولد الآنسان وقد ورث جينات إجرامية أو أمراض عقلية ورغم أنه ينشأ مع والدين صالحين وفي بيئة أسرية جيدة فأنه يكبر ليصير مجرمًا أو منحرف السلوك.

هتفت الأم: رباه، هذا ما كنت أخشاه.

عادت (حسناء) تقول باسمة:هناك كذلك عوامل البيئة، قد يولد الانسان سويًا ونقيًا، ثم ينشأ في بيئة إجرامية أو بيئة أسرية عنيفة أو جافة أو خالية من المشاعر وينتهي به الأمر بأن يصير مجرمًا أو منحرف السلوك.

قالت الأم: ولكننا نوفر لها بيئة صالحة، نحن نمنحها الحب والحنان ونشتري لها كل ماتريد، هل يعني هذا أنها قد ورثت جينات إجرامية؟ هل يعني هذا أن عوامل الوراثة أقوى؟

ردت (حسناء): كلا بالطبع، هناك مئات الحالات في الغرب لأطفال أنحدروا من أسر تحمل جينات الإجرام والأمراض العقلية وتم تبنيهم ونشأوا في بيئة جيدة فأصبحوا أشخاصًا صالحين.

-ورأيك أنت؟

تذكرت (حسناء) (معاذ) فشاعت ابتسامة على وجهها وقالت: رأيي أن البيئة أكثر أهمية من أي عوامل أخرى، ابني الأكبر لم أنجبه، بل كفلته من دار رعاية، واليوم هو شاب رائع، وطبيب بارع، وابن بار.

بعد صلاة العصر نهضت (حسناء) كي تغادر العمل فقد أكتفت اليوم،عليها أن تمر فقط على مدير المصحة.

طرقت الباب ودلفت إلى مكتبه وكانت تجلس أمامه طبيبة شابة نحيلة ولها وجه نحيل وعينان عسليتان وبشرة فاتحة

وترتدي حجابًا بلون وردي.

قال الدكتور: مرحبًا دكتورة (حسناء)، تفضلي بالجلوس قليلًا.

فجلست وعاد يقول: تلك الدكتورة (نهى ممدوح) طبيبة نفسية شابة بارعة جدًا، تقدمت للعمل لدينا في المصحة ثلاث مرات حتى قبلت بها أخيرًا.

ردت (نهى): بل أربع مرات يا دكتور.

-صحيح، تعلمين أنني أفضل أن يعمل لدي من لديه خبرة طويلة وهي مازالت شابة ولم تمضي في مجال الطب النفسي وقتٍ طويلاً ولكنها أقنعتني تمامًا عندما تمكنت من التواصل مع المريضة رقم (210).. المريضة التي حاولت قتل الطبيب الذي كان يعالجها.. دكتورة (نهى) قامت كذلك بجلسة علاجية منذ قليل مع مريضتك المراهقة ونجحت في التواصل معها.

تطلعت (حسناء) إلى الطبيبة الشابة وجذب انتباهها نظرة عينيها الذكية مع لمسة دهاء وسخرية تطل منهما.

عاد الطبيب يقول:هذه دكتورة (حسناء)، إنها عالمة نفسية وتعمل لدينا في التحليل والإرشاد النفسي، لم لا تتناقشان معًا في حالة الفتاة؟

صافحتها (نهى) دون أن تتغير نظرة عينيها.

استأذنت (حسناء) في الانصراف وكذلك (نهى) وغادرتا معًا..مضت فترة من الصمت ثم قالت (حسناء): أعددت ملف بشأن حالة الفتاة ووضعت فيه بعض التوصيات كذلك.. بالنسبة لوالديها...

قاطعتها (نهى):وغدين.

-عفوًا.

-حقيرين إذًا.

توقفت (حسناء) عن السير فتوقفت (نهى) بدورها وتطلعت إلى نظرة الاستنكار في عيني (حسناء) التي قالت: أظنهما يبذلان جهدهما لرعايتها، ليس الأمر سهلًا خاصة في حالات التبني.

ردت (نهى) بلهجة مقتحمة: لقد سمعت أن لديك ابن بالتبني وقد أحسنت تربيته، هذا لايعني أن جميع من يكفل طفلًا سيحسن التربية وينجح،هذين الوالدين الذان تغضبين لهما الآن إن حدث وأنجبا فسيلقيان بها إلى دار الأيتام بلا تردد، هل تظنين أنها لا تعرف حقيقتهما.

-حقيقتهما؟

-أجل، أقترح أن تضيفي إلى التوصيات العلاج الجماعي فهما كذلك يحتاجانه.

قالت (حسناء) وقد بدأت تغضب: وكيف عرفت كل هذا؟ أنتِ لم تلتقي بالوالدين.

-هي من أخبرني.

-وصدقتها؟

-لم تتعرق ولم تقم بحركات أستدراج كالعبث بشعرها أو الضغط على أصابعها..أعطتني تفاصيل دقيقة وظل نبضها بمعدله

الطبيعي.

غمغمت (حسناء):أنت..تعرفين كل هذا؟ وتقرأين لغة الجسد؟

ردت (نهى) ببساطة: أردت دومًا أن أعمل محللة نفسية لدى الشرطة، تعلمين كما في الغرب، يستعينون بمحلل نفسي يعاونهم في عمل ملف لمجرم أو سفاح مجهول أو قاتل متسلسل لايترك خلفه أدلة كي يتمكنوا من القبض عليه، لقد درست الطب وتخصصت في الطب النفسي ولكن لدي كمية مهولة من كتب علم النفس والتحليل النفسي قرأتها جميعًا ولدي كتب أجنبية مترجمة وغير مترجمة في هذا المجال، هل تعلمين أنني قرأت كتاب (صناعة قاتل متسلسل) إنه يتناول حياة كيث هنتر جيسبرسون، إنه قاتل متسلسل ويتحدث عن وجهة نظره وأفكاره المظلمة المريضة، لدي أيضًا كتاب (التأديب والعقوبة)، هناك كتاب (همسات السايكوباث)..

شعرت (حسناء) بأن تلك الطبيبة المتحمسة غريبة الأطوار حقًا، هذا الأهتمام البالغ بالقتلة والسفاحين وسلوكهم.

قالت (حسناء) مقاطعة أياها: هذا جيد، سوف يساعدك في عملك حتمًا، لا أظن أن الشرطة في مصر تستعين بأطباء نفسيين لتتبع القتلة، على كلٍ ليس لدينا في مصر قتلة متسلسلين كما في الغرب.

ابتسمت (نهى) ابتسامة أخافتها وقالت: حقًا!! لا تعني الندرة الانعدام، ماذاعن الأختان ريا وسكينة؟

ردت (حسناء): كانا يقتلان من أجل السرقة، لن تجدي في مصر من يقتل من أجل المتعة أو الخلل النفسي كما في الغرب.

قالت (نهى) بابتسامة أكثر اتساعًا: سرقة؟ قتُل النساء خنقًا لا يدل على خلل نفسي؟ وماذا عن سفاح كرموز الذي قتل النساء؟ وماذا عن سفاح بني مزار؟ دعك من كل هذا، ماذا عن التوربيني الذي قتل ما بين 2004 حتى 2007 م حوالي 32 طفلًا من أطفال الشوارع.

ثم مدت يدها تتناول الملف الذي تحمله (حسناء) وقالت باسمة وهي تهم بالانصراف : من المؤسف أن يتواجد قاتل متسلسل في مصر يستمتع بحياته وهو يعلم ويثق بأن الناس تؤمن بعدم وجود سفاحين أو قتلة متسلسلين في مصر.

-....................

***

وصلت الحافلة فركب (معاذ) وجلس بجوار النافذة..الوقت متأخر ولهذا الحافلة شبه خالية وهادئة على عكس الصباح أو الظهيرة عندما تكون أقرب إلى علبة سردين حشر الناس فيها أنفسهم كيفما أتفق، مازال بكاء تلك الأرملة المرير في أذنه والكلام المضطرب الذي تردده وسط دموعها، كانت تخبرهم بتفاصيل يومه وعبثًا حاول الدكتور (مصطفى) إخبارها أنهما طبيبي تشريح ولا دخل لهما بتحقيقات الشرطة، كان لابد من أن ترى الختم لعلها تعرف عنه شيئًا..عندما رأته قالت في ذهول : ما هذا؟

ثم أنفجرت في مزيدٍ من البكاء، أعتاد (معاذ) بكاء أقارب الضحايا ولكنه يظل حتى اليوم يؤثر فيه..فقط من فقد حبيبًا غاليًا يدرك معنى الفقد ومرارته..بعد إنصراف المرأة دون تسلم الجثة فهي بحاجة لمزيد من الفحص جاء أحد العمال وقال له: دكتور (معاذ)، هناك جثة وصلت لفتاة مجهولة.

دون تردد هرع (معاذ) إلى الغرفة الثانية حيث الجثة، منذ عمل هنا وقد أوصى جميع العاملين والأطباء بأخباره إذا ما عُثر على جثة لفتاة شابة مجهولة وفي كل مرة تنتابه نفس الرعدة وترتعش يده بنفس الشكل وهو يمدها ليزيح الغطاء عن الوجه، ليست (دنيا) من جديد، يهز رأسه ويعتذر للطبيبة الواقفة ثم يغادر بخطوات محبطة.

تنهد (معاذ) ومد يده بالمال يدفع ثمن التذكرة ويتلقاها من المحصل ثم دسها في جيبه وعاد يشرد مفكرً، أول قضية يقف أمامها عاجزًا، القاتل ذكي يعرف ما يفعل وهذا أكثر ما يخيفه، لم يترك أي أثر يدل عليه.. وحش وليس أنسان.. إن من يفعل هذا بإنسانٍ آخر لا يصنف من ضمن البشر، القتيل أو الضحية رجل في الثلاثينات، متزوج ولديه ابن ويعمل في هايبر ماركت شهير في مصر الجديدة..وبما أنه يسكن في حلوان فقد كان متلهفًا يوم اختفائه على اللحاق بقطار الانفاق أو المترو قبل إغلاقه، إنه وسيلة مواصلات سريعة وموفرة في الوقت والجهد، إنتهى من العمل أخيرًا والساعة تقترب من الثانية عشر مساءً، معه زميل يركب معه، يهرع الاثنان ركضًا إلى المحطة، سيصلان خلال ثلث ساعة فقط إذا ركضوا إلى إحدى محطات الخط الثالث من مترو الأنفاق..لاشك أن الضحية شعر بالسعادة إذ تمكن من اللحاق بآخر قطار أنفاق..لاشك أنه جلس مع زميله في العربة يلتقط أنفاسه ويحمد الله..أرسل إلى زوجته رسالة نصية أنه لحق بالمترو وأنه قادم..هكذا أخبرتهما..غادر هو ورفيقه في محطة العتبة و توجها إلى الخط الثاني، بعد محطتين سيتفرقان، الضحية ركب الخط الأول إلى حلوان، من المنطقي أن القاتل لم يتتبعه داخل المترو لأن زميله أكد أوأقسم أنه لم يلحظ أي شيء غير عادي كما أن محطات المترو بها كاميرات تلتقط حركة الركاب..لقدأنتظره في الخارج..تبعه حتى شارع خالي من المارة ثم ضربه بسلاحه المجهول فأفقده الوعي..أستمتع بتعذيبه ثم قتله وطبع على جسده تلك العبارة التي تصلح لألعاب الكمبيوتر.

ولكن صبرًا، لن يهدأ بال (معاذ) حتى يوقع به..جاءه أتصال من (عمر) فتلقاه.

قال (عمر): أخبرني الدكتور (مصطفى) أنك أكتشفت أن على الجسد وشم أو ختم..هلا شرحت لي؟

-أجل..القاتل أستخدم ختم ليختم جسد الضحية..تمامًا كما تُختم البهائم بعد الذبح أو كما نختُم الأوراق..عبارة "تم قتلك بنجاح".

زفر (عمر) في ضيق وقال: مجنونٌ آخر، يبدو أن حل تلك القضية سيطول، ألم تعثر على أي شيء مطلقًا يدل عليه؟

-فقط أن قياس قدميه 44 تقريبًا..وأن الحذاء الذي كان يرتديه كلاسيكي من شكل الطبعة على الأرض، طوله تقريبًا يتراوح ما بين 175 سم إلى 180 سم تبعًا لقياس القدم.

-وماذا أيضًا أيها المحقق كونان؟

أحيانًا كان (عمر) يمازحه بتلك الطريقة الخشنة فرد (معاذ): هناك أيضًا.. الاجابة في الحلقة القادمة.. تابعونا.

وأغلق بعد أن ضحك ضحكة خفيفة.

***

في اشمئزاز مد (هشام) يده فأغلق التلفاز، أكتفى من مشهد سيارات الدفع الرباعي التي يركبها أشخاص مفتولي العضلات يحملون السلاح ويطلقون النار على بعضهم مع ترديد نفس العبارات السخيفة "يجب منع هذا الملف من الوصول إلى النيابة".."إن وقعت تلك الورقة في يد الشرطة فسنذهب جميعًا إلى السجن".

حقًا لا يفهم لم أصبحت المسلسلات هذه الأيام لاتتحدث سوى عن القتل والبلطجة والجريمة والإدمان حتى أنتشرت تلك الظواهر في المجتمع فعلًا..أين بث القيم والأخلاق والدين؟ لا يدري، وما المعجزة التي يجب على الوالدين فعلها لتربية أبنائهم تربية صالحة وسط هذا المستنقع، ما يخطر في باله هو أن هؤلاء قتلة، يقتلون كل جميل وقيم ومهذب يغرسه الأباء في نفوس صغارهم، هذا على افتراض أن الوالدين يقومون بالتربية فعلًا.

توفي والديه منذ أعوام وميراثه من والده (منصور) بعد وفاة الأخير وبيع الأرض قد أبتاع به 3 شقق سكنية للبنين في مدينة العبور كي يطمئن عليهم وترك جزءً لأبنته وبذلك أصبح يعتمد على معاشه فقط، أخته (هناء) تعيش في بيت والدها وقد تزوج أبنائها ومازالت تؤذي من حولها بلسانها السليط.

تجاوز الستين منذ سنوات وتقاعد في المنزل، (حازم) تخرج من كلية الحقوق ويعمل في مكتب محامي كمتدرب، (حسام) بسبب إصابة أذنيه كان يعاني من صعوبات في التعلم ولكنه حتى الآن بخير وينجح كل عام في دراسته..يضع دومًا خارج المنزل

سماعات الأذن على أذنه حتى يوحي لمن حوله بأنه يستمع إلى شيءٍ ما، وهو في عامه الأخير من كلية علوم الحاسب الآلي، بارع في إصلاح الكمبيوتر وإصلاح أجهزة الألعاب وتهكيرها، وهكذا تجد صبية بل وأصحاب محال تبيع تلك الأجهزة يأتون اليه كي يقوم بتعديلها أو إصلاحها ويتقاضى مبلغًا من المال مقابل هذا.

(حبيبة) شابة جميلة في الثامنة عشر في عامها الثاني من كلية الألسن، تقضي وقتها ما بين الأستذكار والفيسبوك موقع التواصل الإجتماعي الغريب الذي يقتحم خصوصيات المرء ويقدم للناس حياة بديلة، بالنسبة ل(هشام) كانت تلك المواقع أفخاخ مليئة بالأكاذيب وتسبب ضياع الوقت دون جدوى ولا يفهم لمَ يحبها الشباب.

وضعت (حسناء) طعام العشاء على المائدة ونهض (حسام) و(حبيبة) لمعاونتها، تطلعت إلى ساعة الحائط وقالت: لم تأخر هذان الولدان؟

ولكن سرعان ما وصل (حازم) عائدًا من عمله وتبعه بعد دقائق (معاذ) الذي ألقى نظرة سريعة على الشقة المواجهة والتي خلت من جيرانهم منذ سنوات ثم دلف إلى منزله..تجمعت الأسرة حول مائدة العشاء وتحدث (حازم) حول قضية سمح له رئيسه بأن يتولاها وحده لأول مرة..مضت دقائق من الثرثرة ثم قالت (حسناء): التقيت اليوم بطبيبة شابة جديدة في المصحة..أكاد أقسم انها ليست على ما يرام..مجنونة بجرائم القتل والقتلة..تظن نفسها في الولايات أو في أوروبا وترغب في أن تستعين بها الشرطة للقبض على السفاحين.

بدا الأهتمام على وجه (معاذ) وقال: كيف؟

أخبرته (حسناء) بما دار بينها وبين (نهى) فقال: النقطة هي أن المجتمع المصري مختلف عن الغرب..ليس لدينا قتلة متسلسلين وسفاحين يظهرون كل عدة أشهر..لذا لن تفكر الشرطة في الأستعانة بها أو غيرها من الأطباء النفسيين ألا في حالات نادرة لن تتكرر ألا كل عشرات الأعوام.

-هذا ما أخبرتها به فردت علي ببرود أن القاتل المتسلسل سيشعر بأنه محظوظ لأن من حوله لايصدقون وجوده..رغم أن هذا النوع من القتلة يحب الأستعراض.

-أستعراض جرائمهم؟

-أجل..يريدون أن يعرفهم الناس ويتحدون الشرطة عادة ويتركون لمستهم على الضحايا دومًا..يعتبرونه توقيعهم الخاص.

أعاد (معاذ) لقمة الخبز في الصحن وتجمد وهو يتذكر الختم ثم قال:حقًا؟

هتفت (حبيبة) محتجة: كفى حديثاً عن القتل والسفاحين، أشعر بالخوف.

غمغم (معاذ): عذرًا حبيبتي ولكن الموضوع هام، أمي، وماذا أيضًا؟

-لا أدري حقًا، أنا أستاذة في علم النفس وأتكلم من منطق علمي ولكن معلوماتي في هذا المجال محدودة، أما هي فمهووسة تقريبًا بالقتلة والجرائم، هل شاهدت المسلسلات الغربية التي تتحدث عن الجريمة على غرار (سي إس أي) أو (بونز)، إنها تشبه العلماء أو الطبيبات المحللين للمجرم في تلك المسلسلات.

بعد العشاء أشارت الساعة إلى السابعة ونهض (معاذ) كي يبدل ثيابه بأخرى، سأله والده: هل ستخرج ثانية؟

-أجل، سأذهب سريعًا إلى مكان ما وأعود.

كان ينوي العودة الى مسرح الجريمة لتفحصه من جديد ثم أتاه اتصال من رقم مجهول، فأجاب ثم تهللت أساريره وهتف:

(نادر)، متى عدت الى مصر؟ يالك من نذل، شهر ولم تتصل بي أو تخبرني، مشغول، ليكن.. فلنلتقي بعد نصف ساعة.

بعد اختفاء (دنيا) وقع الفتور بين الصديقين، لم يعد (معاذ) يتحدث مع (نادر) أو يتواصل معه لأشهر رغم محاولات الأخير وعدم فهمه لسبب غضب (معاذ) اتجاهه، بعد عام التقيا في جامعة القاهرة مصادفة والغريب أن العلاقة عادت كما كانت بسرعة وخلال أيام عادا صديقين ثم بعد فترة صفت القلوب وعادا صديقين حميمين، (نادر) كان يدرس في كلية التجارة وبعد أن أنتهى عمل عامًا في شركة جده ووالده ثم قرر جده أن يرسله إلى ألمانيا لأستكمال دراسته واكتساب الخبرة في إدارة الشركات، وودع (نادر) صديقه (معاذ) بقلبٍ مثقل وسافر وظل يتواصل معه على الفيسبوك من وقتٍ

لآخر.. في البداية كان يتواصل يوميًا ثم كل عدة أيام ثم أسبوعيًا ومع أنشغال كليهما بالعمل صار التواصل شهريًا.

جالسًا على تلك المائدة في ذلك الكافيه الشهير تأمل (معاذ) صديقه غير مصدق، تغير وأكتسب بعض الوزن.

قال (نادر): تغيرت يا (معاذ)، أنظر إلى ذقنك تلك، هل مازلت تمارس الملاكمة؟

-حاليًا أمارسها في المنزل

-وكيف حالك وسط الموتى والمقتولين؟

-أحقق لهم العدالة وأشعر بالرضا بعدها.

همس (نادر): وكيف حال موهبتك؟

-موجودة.

قال (نادر): ألا تحتاج مساعدًا؟ ألن نقوم بعمل فريق لتحقيق العدالة؟

-دعك من أحلام الطفولة هذه، ألن تكبر وتصير واقعيًا؟ حدثني عما فعلت في الخارج.

مضت ساعة من الثرثرة الحميمة الدافئة وعادت صداقتهما في ثوانٍ بنفس أوج قوتها المعتادة، وبينما يتسامران توقف (معاذ) وأشار برأسه إلى أحد الزبائن وهمس في قلق: حوله هالة حمراء، سيتشاجر.

تطلع (نادر) بفضول إلى حيث أشار وبالفعل نهض الزبون وبدأ يصيح في غضب بوجه النادل، يبدو أن البيتزا التي طلبها محترقة من الأطراف قليلًا، هكذا راح يرغي ويزبد بينما يحاول النادل تهدئته.

عقد (معاذ) حاجبيه وقال من بين أسنانه وهو ينهض: اللون صار رماديًا.

وبسرعة تحرك نحو الزبون الذي رفع الطبق وهم بأن يضرب به النادل لولا أن يد (معاذ) القوية أوقفته..نهض (نادر) بدوره بتلقائية لمساعدة صديقه وبينما يمسك الزبون الغاضب بتلابيبه طلب منه (معاذ) أن يهدأ قليلًا فالنادل لاذنب له في أحتراق طرف

العجين..مرت عشر دقائق حتى هدأ هذا الزبون المجنون وغادر المطعم وهو يسب ويلعن وقد عادت الهالة للونها الأحمر.

في حرارة شكر النادل (معاذ) و (نادر) وبعد أن أنهيا مشروبهما الساخن ظلا يثرثران من جديد لدقائق ونهض (معاذ)

فقال (نادر) في لهفة: دعني أصحبك بسيارتي غلى موقع الجريمة.

قال (معاذ): ليس الأمر مزحة، لايمكنني إصطحاب صديقي إلى هناك، فهذا مسرح الجريمة وليس سينما.

-سأبقى بالخارج.

وأمام البيت المهجور في المعادي أشعل (معاذ) كشافه وبدأ يتفحص البيت من الخارج ويدور حول السور المتهدم دون

جدوى..لم يعثر على شيء، دلف إلى حديقة البيت المهملة، وكر ممتاز للقطط والكلاب وربما الزواحف فلمَ لا يوجد أي حيوانٍ ضال هنا؟

دار في الحديقة بتمهل وهو يتفحص كل ركن ثم دلف إلى المنزل وراح يتفحصه من جديد، جاءته رساله على الماسينجر من (نادر) يقول: الفضول يقتلني، ألا يمكنني القدوم و مساعدتك؟

وضع (معاذ) كشاف الضوء على السلم وكتب: لا.. لا.. ما تقوله قد يؤدي إلى رفتي من العمل.

أعاد هاتفه إلى جيبه وعاد يتفحص البيت، هناك بقايا دخان أسود بسيط يعرف (معاذ) جيدًا أنه متبقي من أثر القاتل وهو ما يعني أنه دخل إلى البيت هنا وأرتكب جريمة هنا، ربما منذ سنوات، أسترعى انتباهه أمرًا غريب، الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني مغلق من أسفله بالأخشاب وكأن هناك حجرة صغيرة بلا أبواب متصلة بأسفل السلالم، لا يوجد باب أو نافذة أو أي مدخل من أي نوع، طرق بيده الخشب فسمع الصوت المجوف الموحي بوجود مساحة فارغة داخل الأخشاب، ثم هناك بقايا دخان أسود.. إنها هالة القاتل، لم ينتبه إليها في المرة السابقة وسط الأزدحام والتحقيق.

أرسل رسالة بتلك الملحوظة إلى (عمر) دون أن يذكر موضوع الهالة طبعًا، وهو يعلم أنه سيلومه لذهابه إلى مسرح الجريمة وحده وبدون إذن، صعد إلى الطابق الثاني وبعد ساعة إنتهى من إعادة فحص البيت، فغادر وجلس بجوار (نادر) الذي قال: هل توصلت لشيء؟

-لاشيء سوى أن هناك مكان مشتبه به كمخبأ أسفل الدرج، ولكنه بلا باب أو وسيلة للولوج.

***

مضى شهر من التحقيقات، لم يتم التوصل فيها إلى شيء، قامت الشرطة باستجواب الجيران وزملاء العمل وأقارب الفقيد دون جدوى، تم إستجواب أصحاب المحال التي تقوم بتصنيع الأختام دون جدوى، تم تغسيله ودفنه وأنتهت حياته الدنيا، ظلت قضيته تشغل عقل (معاذ) فهي أول قضية لايستطيع حل ألغازها، ويقف أمام براعة القاتل حائرًا.

تجاهل (عمر) حديثه عن المخبأ المزعوم أسفل الدرج وقال: أنت لست شرطيًا فكف عن لعب هذا الدور وقم بعملك فقط.

ظل لغز السلاح المستخدم في الجريمة أيضًا يؤرقه..كل ما يعرفه وكتبه في تقريره المفصل مع الدكتور (مصطفى) أن أداة القتل أداة حديدية حادة أقرب إلى الاستدارة.. وكان (معاذ) يدرك أنه بعد وقت ستقيد القضية ضد مجهول وينتهي الأمر وقد ملأه هذا بالغيظ والأحباط.

ذات يوم من أيام مارس اتصل به (عمر)، وقال في قلق: قلت أنك عندما تفحصت الموقع ثانية وجدت ما يشبه مخبأ

-أي موقع؟

-جريمة المعادي يا (معاذ).

-أه.. تذكرت.. أجل.

-حسنًا، القضية لا يوجد بها جديد وقد وصلنا فيها إلى طريق مسدود، كنت سأغلقها ولكنني فكرت بتفحص البيت للمرة الأخيرة.

-وبعد.

كان (معاذ) يهم بمغادرة المكتب متوجهًا إلى المشرحة بالطابق الأرضي ثم توقف، كان (عمر) قلقًا لسبب ما، ثم قال: لقد حطمت القوات ذلك المخبأ الخشبي ووجدنا بالداخل جثة أخرى.

مضت لحظة صمت ثم قال (عمر): ستصل إلى المشرحة اليوم.

-هل تريد مني القيام بتشريحها؟

-كلا، ستقوم الدكتورة (..) بتشريحها، إنها جثة فتاة.

-فهمت.

-هناك قلق في الوزارة، تم إصدار الأمر بتفتيش البيت والحديقة كلها، ستحضر إلى هنا الكلاب البوليسية كذلك، فقط أردت أن أخبرك أنك كنت محقًا في شكك بذلك المخبأ.

-هل يمكنني الحضور؟

-سأقوم بعمل استثناء لك، يمكنك الحضور، ولكن.. آه..

-ماذا؟

-عثرنا على جثة (دنيا)، ابنة الجيران التي أختفت منذ سنوات، هل تذكرها؟

تغير لون وجهه وقسماته دفعة واحدة، هل يسأله حقًا إن كان يذكرها؟ متى نسيها حتى يذكرها، الحق أنه لم يعد يحبها كالسابق فقد تكفلت السنين بإنهاء تلك المشاعر ولكنها مازلت رفيقة الطفولة وفي مكانة الأخت الغالية.

مسرعًا بينما قلبه يخفق أنطلق (معاذ) إلى موقع البيت في المعادي وهو يؤكد لنفسه أن الأمر غير صحيح، لقد إلتبس الأمر على (عمر)، لا يمكن أن تكون (دنيا) قد قتلت بتلك الوحشية على يد المجنون الذي يختم ضحاياه.. مستحيل.. وما أن وصلت سيارة

الأجرة حتى قفز منها (معاذ) وأسرع الى داخل البيت، وضعت جثتها على المحفة، مد يده المرتجفة يزيح الغطاء عن وجهها، جسدها قد تحلل وأختفت معالمه بشكل كبير وثيابها ولكن كم فتاة كانت ترتدي قبل اختفائها فستان من الجينز وسلسلة ذهبية بها آية الكرسي، كم فتاة تحمل ذات الحقيبة الجلدية الصغيرة، كم فتاة تحمل في بطاقتها الموجودة داخل الحقيبة اسم (دنيا) وصورتها ، أما الختم فظلت بقاياه على قماش الفستان جهة الذراع.. "تم قتلك بنجاح".

بدا (عمر) قلقًا وربما حزين بعض الشيء، أما الأسوء فقد كان وصول والديها وصراخ والدها وبكاء والدتها كي يسمحا لهما بالمرور، من أخبرهما!! أحتشد المارة حول باب البيت في فضول على أثر الصراخ.

قال (عمر): كيف عرفا؟

غادر (معاذ) إلى الحديقة، كان يريد تهدئة والديها أو مواساتهما ولكن قلبه لم يطاوعه..الأحمق كان هنا منذ وقت وشك في ذلك المخبأ أسفل الدرج ولكنه لم يفعل شيءً سوى أن غادر..جلس أرضًا ودفن وجهه بين كفيه وهو يتذكر حالتها..فتح عينيه وهم بالنهوض ثم رأى، الدخان الأسود الخفيف ينبعث وسط الحشود، أنتفض ونهض يتطلع إلى جموع الناس المحتشدة في فضول عند باب البيت بينما الجندي يصيح فيهم آمرًا أياهم بالمغادرة، أحد هؤلاء الحضور أما مختل مستمتع بأحزان و آلام الآخرين وإما أنه القاتل، يحوم حول مسرح جريمته، سعيدًا ومستمتعًا بعمله.. ثم تذكر.. متى رأى الدخان الأسود أول مرة!! كان هذا في اليوم الماطر الذي ذهب فيه الى السوق لشراء البصل، كان الدخان يلاحق (دنيا)، لقد كان القاتل يلاحقها قبل إختفائها بأشهر والآن يقف مستمتعًا أو مراقبًا لهذا المشهد.

***

## (6)

رشف (رشوان) بك قهوته ببطء وعيناه ترصدان ما يقع حوله في المطعم الشهير الذي يملكه، كانت له عينان داكنتان وبشرة بيضاء وأما شعره فقد كان أشيب بلون الفضة وثيابه مهندمة وساعة يده باهظة، له نفوذ واسع وصلات بكبار الشخصيات وثروة مهولة وقد جلس إلى مائدته سكرتيره الشخصي الذي قال مكملًا تقريره: (نادر) بك يبلي جيدًا في العمل ولكنه مشغول هذه الأيام يا بك.

-بماذا؟ ما الذي يشغل حفيدي؟

-أمرت بمراقبته، إنه يذهب إلى مديرية الأمن كثيرًا ويقابل صديقه (معاذ)، سألنا معارفنا في المديرية، هناك فتاة وجدوها مقتولة منذ أشهر ويبدو أنها كانت صديقة طفولة لحفيدك يا (رشوان) بك.

وضع (رشوان) فنجان القهوة بعد أن أنهاه ثم قال آمرًا: أبدأ في البحث عن عروس مناسبة له، أريدها جميلة وشابة وابنة لعائلة ثرية ويفضل أن تعمل أسرتها في مناصب جيدة في البلد وأن تكون لشركتهم نفس أنشطة شركتنا.

-هناك فتاة مناسبة، حفيدة (مختار بهجت)، لقد كان أحد رجالك يومًا يا بك، لقد ألمح لك بالأمر الأسبوع الماضي في حفل زفاف ابنة نائب الوزير.

بدا الضيق على (رشوان) وغمغم: أبحث عن مرشحة أخرى أولًا.

-تحت أمرك.

-هناك دار لرعاية الأيتام تحتاج إلى دعم مادي، أشتري ثياب وأطعمة للأطفال وقدمها للدار اليوم.

-أجل يا بك، وفقك الله لما يحب ويرضى.

نهض (رشوان) وقال وهو يهم بالمغادرة: أين ولدي هذه الأيام؟

-في شرم الشيخ يا بك، لقد تزوج هناك بالمناسبة.

شاعت ابتسامة قاسية على شفتي (رشوان) وقال: بالطبع فقد تزوج فتاة لا يمكن أن أقبل بها، أليس كذلك؟

رد السكرتير في أرتباك: أجل، شابة في العشرين، إنها تعمل في فندق هناك، سمعتها ليست جيدة وهي من أسرة فقيرة، والدها في السجن و...

قاطعه (رشوان): أخبره أنني آمره بأن يعود بعد أن يسأم منها ويطلقها، أريدك أن تبحث له بدوره عن عروس مناسبة.

ثم استدار منصرفًا فغادر المطعم وسط وداع العمال والمشرفين له وقد بدت عليهم الرهبة وأسرع السائق يفتح له الباب الخلفي للسيارة ذات الزجاج الداكن فجلس وقال أمرًا للسائق: إلى الشركة.

***

قال (معاذ): كما ترين يا دكتورة (نهى) فقد نجح الرائد (عمر) أخيرًا في إقناع رؤسائه بقبول التعاون معك بشكل غير رسمي للأيقاع بالقاتل، أنا جزء من الأطباء المسئولين عن فحص جثث ضحايا القاتل.

كان الثلاثة يجلسون في مطعم يطل على النيل..الرائد (عمر) ببشرته القمحية وشعره الذي بدأ ينسحب إلى الوراء وعيناه المتشككتين، (معاذ) وقد نمت لحيته قليلًا وبدا مهمومًا، و(نهى)، وعلى المائدة ثلاث أكواب من العصير وأمام (نهى) وضع

ملف سميك يحتوي على العديد من الأوراق والصور..اليوم نهاية شهر مايو والصيف يعلن عن وصوله.

قال (عمر) في شك: الحقيقة أنني لا أعلم كيف تستطيع طبيبة نفسية أن تفيدنا في القبض على القاتل ولكن (معاذ) فاتحني بالفكرة منذ شهرين بعد أن تحدثت والدته عن.. آه.. شغفك بعلم الجريمة.

ابتسمت (نهى) في سخرية من هذا التعبير ثم قالت: فرق التحقيق حول العالم كله هكذا، أنه قاتل متسلسل، أنا والدكتور

(معاذ) نتفق على هذا، بينما أنت...

رد (عمر) في ضيق:إنه سفاح مجنون تمامًا، من يقتل شخصًا ثم يختمه مجنون.

قالت (نهى): دكتور (معاذ) التقارير قاصرة بعض الشيء، ليس لديكم فكرة عن سلاح الجريمة مثلًا.

رد (معاذ): كل ما نعرفه أن السلاح أقرب إلى الاستدارة لأنه ترك على ظهر الضحية رقم 1 أثرين مستديرين.

تساءل (عمر): كونه قاتل متسلسل كما تظنان، ألا يجب أن يكون لديه دافع ما للقتل ونمط معين للضحايا يا دكتورة؟

أجابت: تعني مثل الغرب، يقتل الشقراوات، أو الرجال في منتصف العمر، أو يقتل عمال البناء مثلًا، ربما يقتل تبعًا لفصيلة الدم أو تبعًا لشهر الميلاد للضحايا.

ثم تنهدت وأكملت ساخرة: هؤلاء القتلة الأغبياء، لم لا يقتلون تجار المخدرات أو الظلمة أو الطغاة!! هكذا يتحولون إلى أبطال بدلًا من كونهم مختلين في نظر الناس.

ضيق (عمر) عينيه وهو يتأملها في حذر، لا يدري هل تسخر منه أم تتحدث بجدية، ثم قال بلهجة صارمة شابها الضيق:

إذًا، كيف يمكنك مساعدتنا؟

- بعمل (نمط جنائي)، إنها إستراتيجية متبعة للقبض على القتلة المتسلسلين يتعاون خلالها المحققين مع الأطباء النفسيين أو علماء نفس الجريمة لتحديد نفسية وعقلية ومشاعر القاتل لتسهيل القبض عليه.

Offender profiling-

نطقها (عمر) بالانجليزية فهو قد أجرى بحثًا مطولًا قبل أن يوافق (معاذ) على فكرته، أومأت (نهى) برأسها أيجابًا ثم أكملت:أخبراني أنتما آخر ما توصلت جهة التحقيق إليه، دعوني أخمن.. لا شيء.. ماذا عن الشاهد المجهول الذي اتصل بالشرطة وأخبرهم بموقع الجريمة؟

قال (عمر): لا شيء، لا توجد كاميرات في المنطقة حيث أجرى الاتصال لتفريغها ومشاهدتها، لا أحد يتذكر وصاحب الكشك يتصل من هاتفه العديد من الأشخاص يوميًا، المتصل كان أقرب إلى صبيٍ مراهق.. فقط لا غير.

-وصاحب البيت المهجور محل دفن الجثث؟ ومن أرسل لوالدي الفتاة الضحية رقم 2 أسمها (دنيا)؟

-مالك البيت أرمل هاجر منذ ثلاثون عامًا مع أبنائه إلى الولايات ولم يعد ثانية لا هو ولا أبنائه، لقد استجوبنا من تبقى من أقاربه على قيد الحياة دون جدوى، سكان المنطقة القريبة من البيت لم يرى أحدٌ منهم أي شيء، أما من أرسل لوالدي (دنيا) فلم نتوصل لشيء، رسالة من هاتف غير مسجل برقم غير مسجل وتم قطع اشارته بعدها، الرسالة "ابنتكم في العنوان كذا"

أنهت (نهى) كوب العصير فوضعته، ثم قالت: عثرتم في هذا البيت على 4 جثث أليس كذلك؟ سنرقمهم بترتيب العثور عليهم؟ الضحية الأولى لدينا ذلك الرجل في منتصف الثلاثينات، متزوج ولديه ابن ويعمل موظف في هايبر ماركت..

اختفى أثناء عودته إلى منزله بحلوان، هذا القتيل أو الضحية رقم 1 قتل منذ أشهر.

قال (معاذ) وقد أختلج صوته: رقم 2 فتاة عمرها خمسة عشر عامًا، قتلت منذ 12 عامًا بعد أن اختفت في منطقة الدقي، طالبة في الثانوية غير متزوجة، كانت ابنة الجيران، وقتها كنا أنا و الرائد (عمر) نعرفها.

قال (عمر): الضحية رقم 3 رجل في الأربعين كان يعمل سائق سيارة أجرة، سيء السلوك وسيء السمعة معروف بالبلطجة والشجار وقد اختفى من منطقة سكنه بعزبة النخل وقد قتل منذ 11 عامًا تقريبًا.

قالت (نهى) وهي تقلب أوراق الملف:الضحية رقم 4، شاب عمره 22 عامًا، طالب في كلية الأعلام، اختفى أثناء عودته مساءً من عمله في مطعم في منطقة النزهة، قُتل منذ 5 أعوام.

مطت شفتيها وظلت برهة تفكر في شرود وهي ترمق مياه نهر النيل، ثم قالت بغتة: لا يوجد عوامل مشتركة بين الضحايا.. جميعهم من طبقات اجتماعية مختلفة.. مراحل عمرية مختلفة.. ذكور وأناث.. لون بشرة مختلف.. فصيلة دم مختلفة.. مظهر مختلف.. حالات أجتماعية مختلفة، جميعهم مختوم على ثيابه بتلك العبارة "تم قتلك بنجاح" عدا الضحية رقم 1 فقد ختم على أسفل أبطه.

قال (معاذ): كلما فكرت في تلك العبارة العجيبة يخطر في بالي أنه طفل أو مراهق يلعب.

وتأملها مفكرًا أنها تسيطر على مشاعرها بشكلٍ غير مسبوق، هالتها زرقاء طوال الوقت ولهذا جاذبية خاصة.

ردت (نهى): معك حق، إنه يلعب، لا تستغربا، إنه يستمتع كثيرًا بما يقوم به، بالنسبة له إزهاق أرواح الناس تسلية.

رد (عمر): مختل.

قالت (نهى) بابتسامة ساخرة: أغلب الناس مختلة.

قال (معاذ):ماذا؟

- تأمل سلوك الناس من حولك، كم منهم يفتخر بأنه يقوم بتسميم الكلاب أو يترك أطفاله يقطعون ذيول القطط، بل قرأت على الفيس لشخص كتب أنه كان يقوم في طفولته بدفن القطط الوليدة حية ويقيم لها جنازة، قال هذا دون أن ُيظهر أي ندم وتلقى الإعجاب والضحك وكأن ما قاله مضحك لا مبكي، فإن تركنا السلوك القاسي مع الحيوان رغم أنه أولى علامات الخلل النفسي فسنجد حولنا قتلة فعليًا.. أقرأ عن تاريخ البشرية.. كم من الطغاة قتل آلاف من شعبه؟

- لا أحب فكرة أن البشر أشرار وجميعهم قتلة، قد تميلان للفكرة لأن (عمر) ضابط يرى المجرمين طوال الوقت ولأنكِ طبيبة نفسية.

- هناك نوعٌ آخر من القتلة أكثر انتشارًا وهم أشر من القاتل العادي، هؤلاء لايحملون سلاحًا يقتلون به الناس ولكنهم قتلة، يقتلون الآخرين نفسيًا أو معنويًا، منهم موظفون

يعطلون مصالح الناس فقط كي يستمتعوا برؤية معاناتهم، منهم أباء وأمهات يضربون أطفالهم طوال الوقت حتى تتشوه نفسيتهم للأبد، منهم من يتحرش بالفتيات كي يشعر بقوته، نحن مجتمع مليء بالمرضى النفسيين الرافضين أعتبار أنفسهم كذلك وعليه فهم يرفضون أن يتغيرو أو يعالجوا.

أطلت من عيني (عمر) نظرة ضجر، ثم قال: ليكن، ماذا عن هذا القاتل؟

قال (معاذ): نحن ندرك أنه رجل، يستخدم يده اليمنى، في منتصف العمر، قد يكون في الأربعين أو أواخر الثلاثين بما أنه يقتل منذ 12 عامًا، قياس قدمه..

قاطعته (نهى): من قال هذا؟ من قال أن الفتاة هي أقدم ضحية، ربما هناك جثث أكثر قدمًا، ربما يقتل منذ عشرين أو ثلاثين

عامًا.

اتسعت عينا (عمر) وهتف بصوتٍ مرتفع برغمه: هل تعنين أن هناك مزيد من الجثث والضحايا؟

-هذا أحتمالٌ وارد.

-ولكننا تفحصنا البيت جيدًا، لا أثر لمزيد من الضحايا.

-لأن لديه عدة أماكن يخفي فيها الضحايا، أي قاتل يرتكب عند قيامه بأول جريمة وربما ثاني جريمة خطأ ما، مهما كان حذرًا، ولكن الضحايا الذين عثرت عليهم الشرطة تم التخلص منهم ببراعة وبدون أدلة أو أثر، هؤلاء ليسوا أول ضحايا ولن يكونوا آخر ضحايا ما لم نوقفه، وكي نجد أدلة يجب العثور على أول ضحاياه أو أماكن اختفائهم لتحديد مخابئه.

قال (عمر): هذا أحتمال ضعيف.

-دعني أخبرك إذًا.

وشبكت أصابعها أمامها وقالت: القتلة المتسلسلين أنواع...

قاطعها (معاذ) من جديد: أنواع؟

-لاتقاطعني، نحن أمام أسوأ نوع منهم، (القاتل المستمتع) الذي يقتل لمتعته الشخصية، ايذاء الضحية وتعذيبها يمنحه الشعور بالإثارة والمتعة لأنه كذلك يكون مريضًا بالسادية.. التلذذ بتعذيب الآخرين.

أكملت (نهى): هذا النوع ينتقي الضحية ويترقبها لوقت من الزمن ويتحين الفرصة المناسبة.. المصطلح بالانجليزية

" Thrill Oriented Serial Killer"

هذا النوع من القتلة المتسلسلين على عكس الأنواع الأخرى لا يميل إلى استعراض عمله ولا جذب الانتباه إليه فهو لا يريد للشرطة أن تضيق عليه وتفسد متعته.

قال (معاذ): لكنه يختم ضحاياه.

-لنفسه، كي يؤكد لنفسه أنه قد أنجز المهمة، لاحظ أنه دفن ضحاياه في مكانٍ معزول وعلى عمق حتى يستحيل كشف وجودهم.

تنهدت ومدت يدها فسكبت بعض الماء في كوب وشربت ثم قالت: ليس هناك فاصل زمني محدد بين الضحايا في حالة هذا النوع من القتلة، قد يقتل كل عام، أو كل عشرة أعوام، أو كل أسبوع، قد يقتل نساء أو رجال، شباب أو كبار.. لا فارق.. وهو يزداد خبرة وبراعة مع الوقت ولهذا من المستحيل أن تكون الفتاة هي أول ضحاياه، عادة يصعب كثيرًا معرفة أسباب أختياره لضحاياه، ولكن.. لقد التقى بهؤلاء الضحايا بشكلٍ أو بآخر قبل أن يقرر اختيارهم، وهذه نقطة بداية يا سيادة الرائد، لقد التقى بالضحايا بشكلٍ ما وربما تحدث معهم بكلمة.

وأخرجت هاتفها وقالت: فلنتبادل أرقام هواتفنا، سأقوم بعمل جماعة محادثة على الواتس كي نتناقش في القضية.

بعد أن انتهوا من تبادل أرقام هواتفهم مضت لحظة صمت، ثم قال (عمر) في نفاذ صبر:وماذا؟ أليس لديك مزيد من المعلومات؟ يمكنني تفحص كاميرا الهايبر ماركت محل عمل الضحية 1 ولكن لا يمكنني استجواب عشرات آلاف الزبائن.

تطلعت إليه بنظرة متهكمة في ضيق ثم قالت: أنت الضابط هنا ولديك الصلاحيات للبحث والاستجواب، أخبرتك أن هؤلاء ليسوا أول الضحايا.. إذًا، عليك البحث في ملفات المفقودين قبل 12 عامًا إلى 25 عامًا، ستستبعد الأطفال ومن هم دون سن ال15 عامًا، ستدقق في بحثك عن مفقودين ليست لديهم خلافات أسرية أو أسباب للهروب والاختفاء، طبعًا البحث سيكون في القاهرة الكبرى فقط.

هتف (عمر):هل تعلمين عدد المفقودين في تلك الفترة الزمنية الهائلة؟ قد يكونون بالمئات أو الآلاف.

-ليس إن استبعدنا الأطفال ومن لديهم خلافات أسرية.

قال (معاذ): لابد أن بوسعك مساعدتنا أكثر لتسهيل الأمر قليلًا يا دكتورة.

رفعت أصابعها مشيرة وقالت: سأخبرك بصفات القاتل المبدئية 1- القاتل ذكر في أواخر الثلاثينيات وحتى منتصف الخمسينات، يبدو شخصًا محترمًا مهذبًا وربما لديه أسرة وستجدان أن جميع معارفه يشهدون له بالهدوء واللطف.

2- لديه سيارة كي يتمكن من نقل ضحيته ولديه موقع خاص به يتسلى فيه بتعذيب الضحية، هذا الموقع سيكون في مكانٍ ناءٍ حتى لا يتنبه أحدٌ إليه.. أما دفن الضحايا فلديه عدة مواقع.

3- هذا النوع من القتلة ذكي جدًا وخبيث وشرير للغاية، لقد أدرك أن الشرطة كشفت موقع ضحاياه لذا قد يتوقف عن القتل ربما لأعوام ولكنه في النهاية سيعود.

4-غالبًا هو من أسرة ثرية أو أقرب إلى الثراء، السلاح المستخدم ليس شائعًا، الجملة التي يختمها غير معتادة، نوع الختم مستورد وباهظ.

قال (عمر): هذا صحيح، لا أحد في مصر لديه فكرة عن هذا الختم بتلك العبارة العجيبة، لقد استجوبنا العديد من مصممي الأختام ومُصنعيها، هذه عبارة لا تنسى بسهولة.

-من السهل هذه الأيام أن تراسل شركات أجنبية وترسل إليهم الجملة بأي لغة ترغب فيها وسيقومون بتصميم الطابعة لك وإرسالها بالشحن، ولكن في الماضي كان لا بد من الذهاب إلى مصمم أختام، أبحث عن مصمم الأختام في مصر.

زفر (عمر) ونهض قائلاً: من الواضح أن تلك القضية شديدة التعقيد، مضطر للمغادرة.. بإذنكما.

ووضع بعض المال على المائدة وغادر.

قال (معاذ) معتذرًا: أعتذر عن أسلوبه.

-لابأس، وماذا عنك؟ من الواضح أنك تريد قول شيء ما وكنت تنتظر مغادرته.

مضت لحظة صمت أخرى، ثم قال (معاذ): الضحية رقم 2 فتاة لها مكانة خاصة وقد شاهدتها يوم اختفائها.

-الأمر شخصي إذًا

-أجل.

-مكتوب في التقرير أنها ماتت نتيجة نزف من شريان العنق بعد أن تمزق بسبب قطعة زجاج حادة، يبدو أنها تعثرت وسقطت فمزق الزجاج الشريان، على الأقل لم تتعذب كثيرًا.

لم يعقب (معاذ) بكلمة فقالت: حاول معرفة السلاح المستخدم، سيفيدنا هذا.

ثم نهضت بدورها وحملت الملف فقال:كان موجودًا وقت العثور على جثتها وأظنه هو من أبلغ والديها.

جلست تلقائيًا ونظرت إليه بفضول فقال: بينما تُنقل جثتها وبينما والديها يبكيان، كان حاضرًا للمشهد.

-ولماذا لم يتنبه إليه أحد؟

-لأنني فقط من رآه.

مطت شفتيها وهي تتطلع إليه بفضول ثم قالت: هل كنت تقف بجواره مثلًا؟ هل كنت وحدك بالقرب منه؟

-رأيت هالته، هل سمعت من قبل عن (هالة كيرليان)؟ لدي موهبة رؤيتها، أرى الهالة الحيوية للناس.. من لونها يمكن تحديد شخصية وطباع وشعور ومزاج من أمامك.

فكرت (نهى) أنه كان يبدو إنسانًا سويًا منذ قليل، ها هو قد بدأ يجن أو يهلوس بالأوهام.

قالت في برود: عفوًا؟

-حول كل إنسان هالة من الطاقة تعكس مشاعره ومزاجه وحالته الصحية والنفسية لا يمكن رؤيتها بالطبع ولكنني أراها، لا أدري السبب..أنا فقط أراها.

ظلت صامتة فقال: أقسم بالله العظيم أن لدي تلك الموهبة، أخبرك بها لأنك طبيبة نفسية بارعة كما يظهر لي ولأنني أتمنى أن نستخدم تلك الموهبة في القبض عليه بشكلٍ ما.

كان يقول الصدق فإما أنه صادق أو أنه يكذب ولكنه يصدق كذبه أو مريض بالتوهم.. ليكن.. ستفترض أنه صادق.

قالت: وما أدراك أنه هو؟

-لون هالته أسود، هذا لون لم أره من قبل قط لدى أحد، رأيته لأول مرة قبل اختفاء (دنيا).. كان وكأنه يتبعها ويراقبها.

-القاتل أم ال.. الهالة؟

-الهالة، وهذا دليل على تتبع القاتل لها، كان موجودًا في موقع العثور على جثتها.

مضت لحظة صمت وهي تتفرس فيه، ثم قالت: إنه يحوم حول منطقته كما الوحوش، غاضب لأنه قد تم أكتشاف

موقعه، اتصل بوالديها لكي يرى ألمهما، إنه سعيد بوقع أفعاله على الآخرين.

تبدلت ملامحها قليلًا وهي تفكر، ثم تمتمت: علي أن أعود الى العمل فقد تأخرت، سنستكمل النقاش فيما بعد على الواتس..

ولكنني أود الحديث معك بشأن قدراتك تلك.. سأبحث حولها أولًا.. دعنا نلتقي يومًا في كافيه (..) بوسط المدينة.

وغادرت تاركة أياه.

***

تعيش (رانية) وحدها في شقة والديها بعد وفاتهما منذ سنوات..فتاة على قدر من الجمال..تجاوزت الثلاثين منذ أعوام وتعمل بالتمريض..مهذبة وخلوقة وعلى قدر من الثقافة وأنطوائية لاتخالط زميلاتها ولا الجيران كثيرًا وتكتفي بتحية مهذبة لمن تلتقي به منهم مصادفة..بالأمس سهرت في المستشفى حتى الصباح ثم عادت إلى منزلها فألقت بجسدها على السرير وغطت في النوم بثيابها ولم تستيقظ إلا بعد أن أقترب موعد صلاة العصر..نهضت وتثاءبت بقوة ثم دلفت إلى الحمام، بقية اليوم أجازة وغدًا كذلك لحسن الحظ، بدأت تعد لنفسها بعض المعكرونة والدجاج وطبق من السلاطة الخضراء..هناك أتصال من عمتها..تريد أن تفاتحها من جديد في الزواج من ابن عمتها..تتجاهل الأتصال وتضع الطعام على المائدة الصغيرة وتشغل فيلم من أفلام ديزني التي تحبها على شاشة التلفاز..كانت لديها شاشة حديثة كبيرة الحجم..سوف تقضي وقتٍ ممتعاً في تناول الطعام ومشاهدة هذا الفيلم..هنا يرتفع صوت جرس الباب..تزفر في ضيق وتنهض وقد ارتسمت مشاعرها على ملامحها بوضوح وتقول وهي تفتح زجاج شُرَّاعَةُ الباب:ماذا؟

هذا جارها بالطابق العلوي..(عماد)..رجل سخيف وممل..متزوج ولديه أبناء ولديه كرش صغير..زوجته تشكو من بخله ..ينظر نحوها دومًا بنظرة ناعسة لزجة تذكرها بالذباب..يحاول التودد اليها..بالطبع يحسبها ستقبل به زوج بعد أن تقدم سنها..تفهمه جيدًا..تفهم أطماعه في مرتبها وفي شقتها وربما في ذهبها وميراثها من والديها.

يقول: أنا ذاهب إلى السوق فكرت أن أسألك إن كنت بحاجة إلى شيء ما، الناس لبعضها.

تغلق الشُرَّاعَةُ دون كلمة، لو يمتلك هذا الرجل ذرة كرامة لما تحدث إليها ثانية ولكنه لحوح لزج ومزعج.. كذبابة.

تغلق هاتفها وترفع صوت التلفاز وتجلس إلى المائدة لتقضي وقتها الممتع.

بعد المغرب تلتقي بصديقتين لها وتتجولان وسط المحال التجارية ومول الملابس في منطقة روكسي وتثرثران معًا وبعد ساعتين من المتعة والصحبة الجميلة يتفرق الجميع..صديقة ستستقل المترو، الثانية تسكن قريبًا، أما (رانية) فستسير في هذا الشارع المظلم الهادىء إلى نهايته ثم ستخرج إلى الشارع الرئيسي لتستقل سيارة أجرة، تودع رفيقاتها وتسير في هذا الشارع الخالي، تعبث بهاتفها بينما تسير الهويني، تتفحص الفيسبوك، تبتسم، ثم شعرت بحاستها بأن هناك من يسير خلفها.. ربما وغد متحرش أو سافل سيلقي على مسامعها لفظ ما ويركض مبتسمًا في تشفي، الحقيقة أن الشوارع صارت مليئة بالمرضى النفسيين إلى حد غير مسبوق.. توقفت واستدرات بحدة فلم تجد أحد، إنها الآن في منتصف الشارع، قبضت بيدها على الكيس البلاستيكي الأنيق الذي يحمل شعار أحد محال الأحذية وبه حذاء جديد ابتاعته منذ قليل.. هذا سلاحٌ جيد خاصة وأنه حذاء بكعب، عادت تتحرك بخطوات أسرع قليلًا واستدارت برأسها لتنظر خلفها ثانية.. لا أحد.. ثم أصطدمت بشخصًا ما يقف أمامها وبرغمها شهقت مذعورة وسقطت أرضًا.

***

كثيرًا ما كانت مشاعر الامتنان تغمر (معاذ) عندما يعود إلى المنزل وينظر إلى وجوه أسرته، جميعهم له هالة زرقاء، كان قد عرف أن هذا اللون يميز البشر الطبيعيين عمومًا.

بينما حل المساء وعاد إلى منزله ابتاع بعض الفاكهة فهو يدرك غلاء الأسعار والضغط الواقع على والده بمعاشه الذي لا يكفي وحتى مع مرتب والدته فمازال هناك فردان في الأسرة يدرسان، والده نائم على الأريكة، يلقي التحية على الجميع ويضع ما يحمل على المائدة فتهرع (حبيبة) لتفتيش الأكياس وتنتقي أصبع موز تقشره و تلتهمه بينما تقول والدتهم:أنتظري حتى نتناول العشاء.

قبل (معاذ) رأس والده ففتح (هشام) عينيه وقال باسمًا: عدت يا بني، غير ثيابك حتى تتناول العشاء.

لاشك أن تربية الأبناء ليست هينة وقد قطع والديه رحلة شاقة حقًا ومرهقة في تربية أبنائهم الأربع كي يصبحوا بتلك الصورة التي ترضي الله عز وجل ومحاولة معاملة الجميع بعدل، ابنهما بالتبني وأبنائهما من صلبهما، دلف إلى حجرته فغير ثيابه ثم توجه إلى حجرة (حسام) الجالس أمام شاشة الكمبيوتر.. قال بصوت مرتفع قليلًا: مرحبًا (حسام).

استدار (حسام) إلى أخيه فاستدار معه شعره الغزير وقال: مرحبًا (معاذ).

قال (معاذ) باسمًا وهو يجلب مقعد ويجلس بجواره: أحتاج مساعدتك في أمر ما، الأختام أو الطوابع بالحبر.. هل هناك

العديد من الشركات الأجنبية التي تصمم لك ما تريد من عبارات!؟

كان سمع (حسام) قد تحسن مع الوقت جدًا ولكنه ظل أقل من المستوى الطبيعي.

مط (حسام) شفتيه وقال: دعني أبحث.

وفتح محرك البحث وشرع لعدة دقائق يبحث، ثم قال: هناك بعض الشركات الشهيرة، هناك الكثير من الشركات العادية التي تقوم بذلك، أرسل لها الجملة واختر نوع الحبر واللون وستصمم لك الطابعة وترسلها لبلدك بالشحن، أنظر إلى تلك الشركة مثلًا.. كل ما عليك هو إرسال صورة لتوقيعك واختيار لون الحبر، أسود أو أزرق أو أحمر.. من مزايا الحبر أنه غير سام ومختبر ضد الحساسية ويمكن وضعه على الجلد حيث يقاوم الماء والتعرق ويظل ثابتًا على الجسم لمدة تصل إلى 40 ساعة.

عقد (معاذ) حاجبيه وقال: مهلًا، هل تعني أن الختم على الجلد أو الجسم لا يدوم كالورق، هل كل الأختام هكذا؟

-أجل.

-ولماذا يتم تصنيع أختام للجسم؟

-في الخارج يستخدمونها في الملاهي المائية مع الزوار وأيضًا في النوادي الليلية.

-وكم ختمًا تمنحك الطابعة الواحدة من هذا النوع؟

-مكتوب أنها تمنحك عدد أختام يصل ل 4 آلاف مرة.

فكر (معاذ) في حيرة أن القاتل حتمًا يعرف كل تلك المعلومات، لماذا ختم الضحية رقم 1 تحت أبطه بدلًا من ثيابه إن كان

يعلم أن الختم سيزول خلال ساعات؟

تناول العشاء على عجل ثم نهض سريعًا ودلف إلى سريره، فتح الواتس وأسرع يكتب ما توصل إليه من معلومات تتعلق بالختم.

كتب (عمر): كان متعجلًا أو مرتبكًا، سأبحث إن كانت هناك دورية قد مرت في هذا اليوم بالقرب من البيت.

معاذ: لعله الشاهد الذي أبلغ عنه، لعل القاتل تنبه إلى وجوده فأرتبك.

عمر: ربما لأنها أول مرة يتم مشاهدته، ربما أسرع حتى يلحق بالشاهد.

معاذ: ولكن أليس الختم على الملابس أسرع من الختم على الجسد؟! ولكن ليس إن كان يجرد الضحية من ثيابه العلوية، ثم بعد أن يقتل الضحية يعيد إلباسه ويختم على الثوب، جميع الأختام كانت على الجزء العلوي من الثياب.

عمر: إذًا، فقد كان متعجلٍ فطبع على إبط الضحية، هذا صحيح.. ثم هرع للحاق بالشاهد ثم عاد يلبس الضحية ويدفنها، ربما يكون هذا صحيحًا.

نهى: كيف تتصوران أنه يقتل الضحية ثم ينقلها لمكان الدفن ثم يختمها، أليس من الأسهل أن يختمها مباشرة بعد قتلها ثم ينقلها جاهزة للدفن، وأي قاتل هذا يفشل في اللحاق بشاهد رأه بالجرم المشهود فيعود لإستكمال عمله وكأن شيئًا لم يكن وقد تم كشف مخبأه.

عمر:القاتل مجنون ومختل.

نهى:ولكنه ذكي وخبيث وألا ما أفلت كل تلك السنوات.

عمر:وما تفسيرك أيتها العبقرية؟

نهى:تقارير الطب الشرعي تؤكد وجود إصابتين في ظهر الضحية رقم 1، ألم تفهما!! الضحية تجاوز الإختبار الأول المتعلق بالزجاج المكسور، ولهذا لديه مزيدٌ من الإصابات حتمًا متعلق بالإختبار الثاني ولهذا كان الختم على الجسد، نوع من الترقية، كلما تجاوزت الضحية إختبار كلما صارت فرصتها في النجاة أكبر وتغير مكان الختم، أيضًا للمرة الثانية أخبركما هو لا يريد إستعراض أعماله، هو يختم الضحية لنفسه.. كدلالة على إنهاء العمل.. لا يهم إن كان الختم سيزول بعدها أو سيظل.

عمر: اي أختبار؟ هل يخضع ضحاياه لإختبارات؟

معاذ:يا إلهي، لم يخطر هذا في بالي فعلًا.

نهى: ما أخبار المفقودين قبل 12 عامًا إلى 25 عامًا؟

عمر: سيستغرق الأمر عدة أشهرعلى الأقل، ولكن حاليًا أستبعدنا الأطفال وهم أغلب المفقودين، أستبعدنا المرضى عقليًا ونفسيًا ومن كانت لديهم مشاكل أسرية، تبقى لدينا عشرات الحالات اختفت منذ 12 إلى 15 عامًا.

نهى: هذا لأنه ليست لديكم قاعدة معلومات بالمفقودين، منذ 12 عامًا لم تكن الأختام متطورة ويسهل شرائها من خلال الانترنت كا اليوم.. نحتاج للتأكد.. هل كان يختم الضحايا السابقين، عندها سنعلم أنه أستعان بمصمم أختام محلي بالتأكيد، علينا كذلك معرفة المواقع التي أختفى منها الضحايا كي نحدد موقعه الثاني الذي يدفن فيه الضحايا، حاول أن تستعجل، أبلغهم في الوزارة أن يمنحوك عدد من المساعدين، تصبحان على خير.

بعد دقيقتين اتصل (عمر) ب(معاذ)، ابتسم الأخير وهو يدرك ما يريد (عمر) قوله وقال بهدوء: أجل يا (عمر).

هتف (عمر) في غضب: تلك الطبيبة مستفزة ومجنونة، ولماذا تأمرنا بالضبط؟ هل تظن الأمر لعبة؟ فلتأخذ مكاني ليومٍ واحد إذًا ولترينا مهارتها.

-لعلها مستفزة بالفعل ولكنها ماهرة، دعنا نصبر عليها حتى تنتهي القضية ثم نقطع كل علاقة بها، لا تنفعل هكذا، إنها

عبقرية فيما يتعلق بتحليل القضية.. فقط حتى تنتهي القضية ثم أقطع كل صلة بها.

-ليكن.

أنهى (معاذ) المكالمة وأعاد قراءة المحادثة، (نهى) ذكية وتجعله يبتسم.

***

لرجل الأعمال (مختار بهجت) سمعة سيئة نوعًا ما، فهو قاسٍ لا يرحم، ويغرق عمال مصانعه بالعمل الشاق مع مرتب يكفيهم بالكاد، له شارب رفيع وصلعة لامعة ونظرة قاسية، أمواله طائلة ولكنه لا يشارك في أي أعمالٍ خيرية، وكف عن إخراج الزكاة منذ سنوات طويلة، لديه ابن وحيد يشابهه في القسوة ولديه ثلاثة أحفاد من ضمنهم حفيدته المدللة، والخطة الآن هي زيجة ستتم بين (نادر) حفيد رجل الأعمال (رشوان عاصم) وبين (لمياء) حفيدته، لهذا جلس الآن مع زوجته يتناول العشاء في المطعم الفاخر الذي يمتلكه (رشوان) ويجلس أمامه الأخير.

قال (مختار): هل سمعت الأخبار الجديدة؟ هل تذكر (عامرعامر)؟ ذلك الذي كان يعمل معي ومع ابني منذ سنوات طويلة و.. أختفى.

مد (رشوان) السكينة ليقطع قطعة اللحم المشوية الى قطع صغيرة وهو يغمغم: لا أذكره للأسف.

-هِمم.. لقد عاد أحد أبنائه من الخارج وينوي بيع قصر والده ثم العودة، لقد ظل القصر مهجورًا لسنوات، أفكر في شراء القصر وإهدائه إلى حفيدتي وزوجها، ثم تذكرت أنك ربما ترغب في شرائه يا (رشوان) بك.

رفع (رشوان) عينيه بنظرة حادة بعض الشيء إلى (مختار) وقال: دعني أشتريه أنا، هدية الأولاد لن تكون هذا القصر المشئوم.

-ليكن، هو لك يا (رشوان) بك.

ظلت الزوجة صامتة وكأن الأمر لا يخصها ووصل (عاصم) ابن (رشوان) ووالد (نادر) فحيا الجميع وقال: أعتذر عن التأخير.

وجلس الى المائدة، نظر (رشوان) إلى ساعته ثم قال: متى نأتي لزيارتكم لخطبة (لمياء) الجميلة؟

رد (مختار): ولكن أين (نادر)؟ ألن يحضر؟

-أنه مشغول في الشركة.

-سمعت أنه مشغول بقضية مقتل فتاة كان يعرفها منذ سنوات، كان باردًا في جلسته مع حفيدتي في النادي وعاملها بطريقة جافة لم تعجبها.

رد (رشوان) ببرود:القتيلة كانت صديقته في الطفولة، وقد ماتت.. إنه صديق وفي يحزن لمقتل أصدقائه ولا أحب أن تتجسس على حفيدي يا بك.

-وأنا لا أحب أن يتجاهل حفيدك حفيدتي.

وأخرج علبة التبغ الفاخرة وأشعل واحدة ونفث الدخان ثم قال: (رشوان) بك، أنت كنت رئيسي وأنا أحترمك وأرغب بشدة في إتمام تلك الزيجة، سأحزن كثيرًا إذا لم تتم.

-سنعقد لقاءً آخر، ستكون هناك خطبة، (نادر) شاب ممتاز ومهذب وسوف تحبه (لمياء) عندما تتعرفه عن قرب.

أنتهى العشاء في ثرثرة تتعلق بالعمل، ثم نهض (مختار) منصرفًا وبعد أن ودعه (رشوان) قال لابنه:أين كنت حتى

الآن؟ لقد تأخرت نصف ساعة وغادرت العمل ساعتين مبكرًا.

رد (عاصم) محاولًا تغيير الموضوع: أي فتاة مقتولة يتحدث عنها هذا الحيوان؟

-لاتغير الموضوع، أين كنت؟ بالأحرى مع من كنت؟

-وكأنك لا تعلم.

-هل تنوي الزواج بها؟

-أجل، غالبًا.

-مجرد ممرضة التقيت بها منذ أيام.

-ولكنني أميل إليها، إنها وحيدة، فارق العمر بيننا ليس سيئًا، وأنا بلا زوجة منذ سنواتٍ طويلة.

-منذ شهرٍ فقط، أعرف أنك تزوجت في شرم الشيخ.

-ليس زواجًا جديًا.

-أنا غير موافق، لن تتزوج من ممرضة أصطدمت بها في الشارع صدفة.. وإلا..

أطلت نظرة حادة نارية من عيني (عاصم) وهمس: وإلا ماذا؟ ستقتلها كما تقتل منافسيك؟ كما تقتل من خانك؟

اتسعت عينا (رشوان) في تهديد، وقال من بين أسنانه: كيف تتحدث مع والدك هكذا؟

-أهدأ يا والدي، (نادر) ليس هنا الآن.. سيظل الى الأبد متوهمًا أن أسرته محترمة ومحبة.. أليس هذا ما تريده بشدة؟

أمسك (رشوان) بكوب الماء وقذف به ليتحطم أرضًا، ظل (عاصم) هادئًا يلوك الطعام في فمه، فصاح (رشوان) وقد فقد أعصابه: هل تهددني الآن؟

لم يرد (عاصم)، وتوجه أحدى النُدل ومعه عامل في المطعم بدأ في كنس الزجاج وما تبقى من الكوب دون أي كلمة أو تعليق وبمجرد إنصرافهما قال (عاصم): دعني أتزوج بها، في المقابل سأضغط على ابني كي يتزوج من حفيدة (مختار).

-(نادر) لا يعصي أوامري، لست بحاجة لمساعدتك.

-ولكن يبدو أنه سيعصيك هذه المرة، نحن نتحدث عن زواج وعن شاب مازال قلبه معلق بفتاة ميتة كما ألمح (مختار)، ربما أقوم بتشجيعه على الرفض كأب محب يريد أن يرى ابنه سعيد في خياراته.

أحتقن وجه (رشوان) وظهر ذلك على بشرته البيضاء، مضت دقيقة من نظرات التحدي المتبادلة ثم زفر (رشوان) في ضيق وقال: ليكن، تزوجها إن كنت ترغبها بشدة، ولكن بعد زواج ابنك أولًا.

-وأنا سأنفذ وعدي بالضغط على (نادر)، ولكنني لا أضمن النتيجة.

زفر (رشوان) في غيظ ثم نهض في سخط وغادر، مط (عصام) شفتيه وأكمل تناول الطعام.

***

(7)

الجو صحو وجميل في هذا اليوم من أيام شهر يونيه..تجاوزت الساعة الرابعة عصرًا بدقائق..كان (معاذ) يجلس مع صديقه (نادر)، لقد أنتهيا للتو من أداء صلاة العصر في مسجد قريب ثم جلسا في ذلك الكافيه في وسط المدينة.

قال (معاذ): صدقني ليس الأمر مسموحًا به، لا يمكنني ضمك إلى فريق التحقيق دون صفة.

بدا (نادر) حزين وتعس، قال وهو يعبث بفنجان القهوة في يده:أعلم أنك كنت تحبها.

-...............

-عندما قطعت علاقتك بي بغتة بعد اختفائها، لم يكن هناك تفسير آخر.

-رحمة الله عليها، دعنا لا نتحدث في الماضي بعد الآن.

-ولكن، يجب أن أقبض على من فعل بها هذا.. سوف أجن.

-(نادر)، ليس الأمر بيدي، أنا طبيب تشريح من ضمن فريق الأطباء الذي سيتولى مهمة تشريح أي جثة تابعة للقضية، (عمر) من ضمن فريق الشرطة الذي يحقق في القضية، (نهى) طبيبة نفسية ودرست علم الجريمة، أما أنت فمجرد صديق لإحدى الضحايا.. وبالمناسبة.. لا يجب أن تخبر أي مخلوقٍ بالأمر، لا يجب أن تعلم الصحافة أو يعلم العامة أن هناك قاتل متسلسل.. مفهوم.

وبدا قلقًا، سيقابل الدكتورة (نهى) بعد قليل في هذا المطعم ويريد لصديقه أن يغادر دون أن يجرح شعوره.

قال (معاذ) محاولًا تغيير الموضوع: وكيف حالك وحال العمل؟

رد (نادر) وكأنه كان ينتظر السؤال: جدي يريد تزويجي ووالدي يريد مني أن أقبل.

-من هي العروس؟

مط شفتيه ثم قال بلهجة ساخرة مريرة: فتاة أعرف أسرتها معرفة سطحية لطيفة، تناولت الغداء في بيتهم يومًا منذ سنوات طويلة، جدها رجل أعمال وصديق جدي، رجل سمج ولا يطاق، أما والدها فمجنون، أطلق النار على كلبه يومها فأرداه قتيلًا لأنه سرق قطعة لحم من فوق المائدة وقال (الكلب الذي يسرق مرة سيسرق للأبد).

هتف (معاذ) غير مصدق:ما.. ماذا؟

-إن أطبقت السماء على الأرض لن أقترن بتلك العائلة.

-هل أنت جاد؟! هل قتل الكلب!؟ وأمامك وأمام الحضور؟

-كلا، قتله في الحديقة، سمعنا صوت الطلقة وصوت أنين الكلب، كان يحافظ على مشاعر الصغار كما ترى.

وارتجفت شفتاه لثانية ثم هدأ ووضع يده على بطنه، إنه القولون العصبي من جديد.

عاد يقول وقد رأى نظرة التعاطف في عيني (معاذ): لابأس، أنا بخير.. لقد ثار جدي يومها وكان غاضبًا لفعل أمرًا كهذا في وجودي، أحيانًا أشعر بأن جدي هو والدي الحقيقي.

-ومع هذا يريدك أن تتزوج ابنة الرجل المجنون.

-عندما يتعلق الأمر بالأعمال والمال فلا مجال للعواطف لدى جدي أو والدي.

فكر (معاذ) أنه من المؤلم أن يكون الأشخاص الذين يفترض بهم حماية المرء ورعايته ومنحه الشعور بالأمان هم مصدر أنكسار القلب.

وصلت (نهى) وبدا الحرج على (معاذ) وتطلع (نادر) نحوها وهي تجلس إلى المائدة في بساطة وتقول باسمة: دكتورة (نهى) طبيبة نفسية، وأنت...

قال (معاذ): هذا (نادر)، صديقي.

هزت رأسها محيية ثم قالت: عدت للتو من مديرية الأمن، الرائد (عمر) طلب مني حضور اجتماع والإدلاء برأيي في القضية، هل يمكنني التحدث عن القضية أمام صديقك؟

قال (نادر): أجل.

وقال (معاذ) في نفس الوقت: لا أظن.

ابتسمت وقالت: ليكن، سأخبرك ما توصلنا إليه في الاجتماع.

ورفعت يدها تطلب النادل، ثم قالت: مشروب الشيكولاتة البيضاء من فضلك وقطعة من حلوى الجبن بالشيكولاتة.

وعادت تقول: الجميع كان يدخن في هذا الاجتماع، شعرت بأنني سأصاب بسرطان الرئة لمجرد تواجدي، المهم، أخبرتهم بتحليلي النفسي وبتوصياتي، أخبرتهم كذلك بأن عليهم البحث عن المخبأ التالي.

ابتسم (معاذ) من طريقتها في الحديث ثم أخفى ابتسامته شاعرًا بالحرج، لا ينكر أن هناك بعض الإعجاب نحوها بدأ يتسلل بلطف إلى قلبه.

قال (نادر):المخبأ التالي للسفاح.

-القاتل المتسلسل، إنه ليس سفاحًا، إنه قاتل تسلسلي.

تساءل (معاذ): وكيف هذا؟ كيف يمكن معرفة مخبأه؟

قالت (نهى) وهي ترمق (نادر): هل أشرح أمامه؟

غمغم (نادر):حسنًا، أستأذن أ...

قاطعته (نهى): هل أنت على صلة بالقضية؟

قال (معاذ) محذرًا: لا يمكننا مناقشة القضية أمامه.

ردت (نهى):ولكن يبدو عليه الرغبة في الانضمام إلينا.

رد (نادر) هذه المرة باسمًا: صحيح، أحد الضحايا كانت صديقة الطفولة ولكن الأمور لا تسير ببساطة هكذا فلا يسعني الانضمام مع الأسف.

ردت (نهى) بلهجة قاطعة: دعني أخمن، إنها (دنيا) صديقة الطفولة، لا بأس، يمكنك مساعدة (معاذ) في البحث.

ثم عادت تكمل: قلت لهم في النهاية لديكم الامكانيات والعدة، يجب عمل حصر للمنازل المهجورة التي لا يسكنها أحد منذ

سنوات عدة ولا يقترب منها أحد، قوموا بتفتيشها جيدًا، أستعينوا بالكلاب البوليسية، بالأجهزة، مخبأه في بيت أو قصر مهجور كالبيت السابق الذي عثرتم فيه على الضحايا.

قاطعها (معاذ): مهلًا، نفتش جميع البيوت المهجورة!!

-أجل، نحن في القاهرة الكبرى حيث الإزدحام وأرتفاع الكثافة السكانية، عدد البيوت المهجورة محدود غالبًا.

أجاب (نادر) هذه المرة: الواقع أن عدد البيوت والفيلل والقصور المهجورة ليس محدودًا، نحن لم نذكر البنايات السكنية المهجورة كذلك.

جاء النادل بطلبها فوضعه وأنصرف.

قالت (نهى): دكتور (معاذ)، هل صديقك يعرف أسرارك؟

بدت الحيرة على كليهما لثوان ثم فطن (معاذ) إلى مغزى سؤالها فقال: أجل.

قالت (نهى) متحدثة إلى (نادر):أنت تعلم، الوحيد الذي يعلم، تبدوان كصديقين حميمين.

تبادل الشابان النظرات ولم يعلقا ثم غمغم (نادر): أحم.. أجل.. رؤية الهالات.

-وتصدقه؟

-بالتأكيد.

-دكتور (معاذ) أريدك أن تتجول على المنازل المهجورة..لقد جمعت بعض عناوينها من خرائط جوجل ومن الآنترنت..أظن أن موهبتك ستكون مفيدة..يمكن لصديقك (نادر) مساعدتك، إنه يحتاج إلى المساهمة في تلك القضية بشكلٍ ما، أنا طبيبة نفسية وقد أدركت هذا.

حدق (نادر) فيها بضيق متسائلًا عما تعنيه بالضبط أما (معاذ) فغمغم: ولكن...

-الآن، لنذهب إلى مكتبي في المصحة.. أريد الحديث معك حول موهبتك بالتفصيل.

-لست مستريحًا للمكان، فلنتحدث هنا، (نادر) يعرف كل شيء.

-همم.. لا تريد لوالدتك أن تعلم؟

لم يعلق فهزت رأسه موافقة

***

قالت (نهى): قرأت عن الهالة الحيوية، كل من زعم أنه يراها كان من الوسطاء الروحانيين، جميعهم كاذبون نصابون من رأيي ولا دليل على صحة زعمهم، ولكنك لست وسيط روحاني ولا تحاول كسب المال من موهبتك، أنا أصدقك وأصدق موهبتك النادرة تلك، هل ترى تلك الهالات طوال الوقت؟ وكيف تبدو بالضبط؟

ابتسم (معاذ) ابتسامة خفيفة وقال: لو رأيت الهالات طوال الوقت لجننت، كلا، الحمد لله.. لا أراها ألا من وقت لآخر، إن

أردت رؤيتها على شخص بعينه، علي التركيز لوهلة فقط وأبعاد كل الأفكار عن عقلي.

ورشف من فنجان الشاي ثم أكمل: كيف تبدو الهالة..تبدو كغلاف خفيف يحيط بالشخص ويشع لوناً..أحيانًا تكون في

صورة دخان يصل إلي، على حسب اللون أعرف طبيعة الشخص وأفكاره ومشاعره وحالته المزاجية وربما الصحية.

بدا الفضول على وجهها وقالت: مزيد من التفاصيل من فضلك، ماهي ألوان الهالات؟ هل لها نفس المعنى الموجود على الانترنت؟

-كلا، ما أراه من ألوان يحمل معاني مختلفة.

تطلعت إليه في نفاذ صبر فقال: اللون الأبيض: لم أره إلا لدى الأجنة والأطفال الرضع، أظنه يعني البراءة والمشاعر النظيفة و الفطرة السليمة التي يولد بها الإنسان.

اللون الأحمر: دليل على الغضب الشديد والاستعداد للشجار والعنف، رأيته كثيرًا في المشاجرات، الانفعال الخارج عن السيطرة عمومًا.

اللون البرتقالي: الحماس الشديد المباغت والنشاط و السعادة.

اللون الأصفر: التوتر والقلق والخوف وربما الرعب من شيءٍ ما والحزن أيضًا.

اللون الأخضر: المرض والإجهاد، كنت أرى هذا اللون طوال الوقت في المستشفى.

اللون الأزرق: يميز أغلب الناس أغلب الوقت، إنه يشير إلى المشاعر العادية اليومية للناس على ما أظن.

اللون الرمادي:الشر، التخطيط للأيذاء، الحقد والغل الشديد، الحسد المقترن بالحقد، القتل.

هتفت: القتل؟ حقًا؟ كيف عرفت؟

-رأيته ذات مرة على شخصٍ قام بتسميم طفلة، ورأيته ذات مرة على زوجة أب قتلت ابن زوجها، هناك من قد يضرب ويتشاجر ويسب ولونه أحمر، في لحظة غضب أو عدم سيطرة على السلوك والأعصاب، ولكن من يحمل اللون الرمادي أو الأسود فهو شرير، يقتل ويؤذي عمدًا وبتخطيط..تظل هالته كذلك عالقة بالضحية لوقت.

مرت دقيقة صمت قالت (نهى): تبقى هالته عالقة بالضحية، هل تظن أن هالة القاتل ستكون موجودة في المكان حيث يدفن ضحاياه طوال تلك السنوات؟

-ربما، لقد كانت هالته موجودة في البيت الذي عثرنا فيه على جثث الضحايا من قبل.. ظلت ل 12 عامًا.

-لو كنت أملك تلك الموهبة لحولت نفسي لبطلة، لقمت بعمل زي خاص ونزلت الشوارع في المساء وأنا مسلحة وتخلصت أو ضربت كل الأشرار.

ضحك وقال: تذكريني بنفسي أنا و (نادر) عندما كنا صغارًا، كنا ننوي هذا ثم نضجنا وأدركنا أننا سيقبض علينا.

أومأ (نادر) برأسه موافقًا وقد شاعت على محياه ابتسامة جزلة، ثم قال: ولكنه لم يلق من قبل قط اللون الأسود إلا لدى القاتل المجهول.. حتى الآن.

-وهل تلك هي كل الألوان؟

-تلك هي كل الألوان التي رأيتها حتى يومنا هذا.

قال (نادر) وهو ينهض ويهز رأسه محييًا أياهما: سأذهب معك يا (معاذ) في جولتك في البيوت المهجورة، اتصل بي.

ولكن (نهى) نهضت وقالت: هل لديك سيارة يا أستاذ (نادر)، ممتاز.. أوصلنا في طريقك إذًا.

أرتفع حاجبا (معاذ) في دهشة من فعلها وتساءل عن سبب رغبتها تلك وهو ينظر معتذرًا في حرج إلى صديقه.

نهضت مستأذنة في دخول الحمام ثم توجهت الى حمام النساء وداخله ظلت صامتة لثوان ثم تجمعت الدموع في عينيها قليلًا فغسلت وجهها وقالت: (نادر)، كيف نسيتني هكذا بسهولة، أنا لم أنساك أبدًا.

وأخرجت هاتفها وراحت تبحث على الانترنت على شيءٍ ما فلما انتهت من تحميله على هاتفها ابتسمت ثم غادرت.

***

دلف الثلاثة إلى سيارة (نادر) الذي أدار المحرك ثم بدأ يقود وقد أحمرت أذناه قليلًا في حرج من نظرة (نهى) المسلطة عليه، مضت دقائق من الصمت المحرج، كان (معاذ) يجلس بجواره و(نهى) تجلس في المقعد الخلفي، أراد (نادر) أن يقطع الصمت فتنحنح وهم بقول شيء إلا أن (نهى) قاطعته من جديد: (دنيا) كانت صديقة لكم جميعًا كما أرى.

تمتم (معاذ): هذا صحيح.

تساءلت (نهى): هل كانت الضحية صديقة طفولة فقط؟

-............

-أي معلومة ستفيد بشدة في تحديد القاتل مهم بدت لك غير هامة.

لم يشعر (معاذ) بأن كلامها صحيح، شعر أنها فضولية بشدة فيما يتعلق ب(نادر) وبدت له كمراهقة معجبة بشابٍ وسيم.

قال (نادر): كنت أرغب في الزواج منها، رحمة الله عليها.

ووضع يده على معدته فتساءلت:هل أنت بخير؟ هل تعاني من قرحة في المعدة؟

-بل هو القولون العصبي.

وبدا متضايقاً من كل تلك الأسئلة التي تمطره بها وزاد ضيقه عندما عادت تقول: هل مازلت تفكر فيها كفتاة أحلامك؟

رد في شيء من العصبية: لقد توفيت كما تعلمين، فكيف أفكر فيها كفتاة أحلامي، فقط مازلت لها مكانة في قلبي ولن أهدأ حتى أعثر على قاتلها.

-أنت والدكتور (معاذ) تشتركان في تلك النقطة.

قام (نادر) بتشغيل الإذاعة ورفع الصوت، فهتفت (نهى): أغلقه، معي بعض الأغاني على الهاتف، سأقوم بتشغيلها لتسليتنا في الطريق.

غمغم (معاذ): لا أحبذ سماع ال...

قاطعته باسمة: إنها أغاني أطفال.

-ولكن...

أشعلت (نهى) الأغنية متجاهلة أياه وأغلق (نادر) الإذاعة في فتور، ثم أرتفع حاجباه وتبادل مع (معاذ) النظرات.

كانت (نهى) قد أشعلت أغنية الأطفال التي كانت تعرض منذ سنوات طوال على التلفاز المحلي المصري، أغنية (كوكو واو).. الطفلة الأسبانية تغني للفرخ الصغير.. كوكو واوا كوكو واوا كوكوكوكوا.

كتم (معاذ) خواطره بينما بدا على (نادر) أنه يشك في قواها العقلية، حتى وإن كانت تحب أغاني الأطفال القديمة فمن الغريب أن تشعلها في سيارة بها رجلين معرفتها بهما سطحية تتعلق بالعمل فقط ثم أوقف السيارة وقال بفتور: لقد وصلنا.

قالت (نهى) وهي تمنحه بطاقة عمل: إن أحتجت للحديث بشأن القضية فأنا موجودة.

غادر (معاذ) ووقفت (نهى) بجواره وأنطلق (نادر) بالسيارة..قالت (نهى):إلى اللقاء إذًا.

***

عندما أرسل (عاصم) رسالة الى (رانية) يطلب منها اللقاء شاعت ابتسامة على محياها.. تتذكر هذا اليوم وكيف شعرت بالتوتر وربما الخوف وهي تسرع الخطى لتصطدم به..وقتها صاح في وجهها غاضبًا: هل أنت عمياء؟

ولكنه سرعان ما قال وهو يرى توترها وإحراجها إذ سقطت أرضًا: هل أنت بخير؟

نهضت ونفضت ثيابها وهي تسرع وقالت شيئًا ما غير مفهوم، ولكنه سار بجوارها وقال:هل هناك من يزعجك؟ أسمحي لي بأيصالك حتى نهاية الشارع.

أسرعت خطاها دون أن تعلق ولكنه ظل معها وإن أبقى مسافة جيدة بينهما والحقيقة أنها شعرت بالخوف منه حتى وصلا إلى نهاية الشارع حيث الشارع العمومي المليء بالمحال والمزدحم حتى الآن بالناس ثم قال:أنت الآن في مأمن.

هنا فقط استجمعت أعصابها وتطلعت إليه وهو يشير بيده إلى سيارة أجرة ليوقفها، ثم يقول باسمًا:أعتذر لأنني صرخت عليك منذ قليل.. أسف.

تطلع سائق سيارة الأجرة إليهما في نفاذ صبر فقال (عاصم): إلى اللقاء إذًا.. مهلًا.

وأخرج بطاقة عمل ناولها اياها ثم استدار مبتعدًا.

في اليوم التالي بحثت على الانترنت وعلى مواقع التواصل الاجتماعي عنه فقد كان اسمه واسم شركته على بطاقة العمل، رجل ثري ومحترم، في منتصف الأربعينات، لديه ابن وحيد شاب، لم يتزوج ثانية بعد زوجته الأولى.. إنها حمقاء إذ حسبت أنه

متحرش أو وغد، لقد كان مهذبًا وقد ترك لديها انطباع مميز، لهذا استجمعت جرأتها واتصلت بالرقم على بطاقة العمل كي تشكره وتعتذر له.. بعد يومين التقت به بعد أن طلب منها ذلك، وبالأمس فاتحها في رغبته الزواج منها، وافقت رغم أنها كانت راغبة عن الزواج لأن قلبها بدأ يخفق كلما فكرت فيه أو تذكرته، ولأنها بدأت تنجذب إليه حقًا.. لكنها إذا إرتدت ثيابها وأسرعت الى مكان اللقاء وجدت رجلًا عجوزًا في السبعين يجلس مكان، قال الرجل: أنا والده، والد (عاصم) فلا تقلقي، أنا من أرسل الرسالة من هاتفه، أردت أن أرى الفتاة التي حركت قلب ابني.

غمغمت مرحبة، ثم جلست تنظر إليه في حذر ولكنه لم يقل شيئًا آخر، بل تفرس في ملامحها بشكلٍ أخجلها ثم هز رأسه وقال: فهمت، أنتِ تشبهينها في الملامح كثيرًا.

تطلعت إليه في حيرة وجاء النادل ليتلقى الطلب، ولكن (رشوان) نهض وقال وهو يغادر:ألف مبروك، أتمنى لك حياة زوجية سعيدة.

لم تدري لماذا شعرت وكأنه يهددها لا يهنئها، شعرت بالإهانة إذ غادر بغتة دون أن يكمل خمس دقائق في جلسته معها.

قالت للنادل: عصير برتقال طازج من فضلك.

طالما جاءت إلى هنا فلتستمتع بوقتها إذًا.. إن كان يظن أنها ستغير رأيها بالزواج من (عاصم) فهو واهم.

***

في المساء جلس (معاذ) بجوار (نادر) في سيارة الأخير، سيمران على البيوت المهجورة وسيستخدم (معاذ) موهبته.

قال (معاذ): البيت الأول بجوار مستشفى الأطفال.. لنبدأ به.

قال (نادر):ماذا لو رأيت دخان أسود في البيت؟هل سنقوم بالتفتيش أم نبلغ (عمر) أو الشرطة؟

-لا أدري حقًا، سنفكر وقتها.

ثم رمق صديقه وقال: تبدو مرهقًا.

-لم أستطع النوم، ظلت تلك الأغنية اللعينة تتردد في عقلي وكأن به مذياع.

-أي أغنية؟

-كوكو واوا.. لا تضحك.

وصلا إلى المنزل الذي بدا كأنه بيت أثري شبه مهدم، غادر (معاذ) فتبعه صديقه ودلفا معًا إلى الداخل، أغلق (معاذ) عينيه وحاول قدر المستطاع تصفية أفكاره، فقط يضع تركيزه على رؤية الهالة، فتح عينيه.. لا شيء، تجول قليلًا في الانحاء ومعه (نادر) الذي راح يتفحص كل ما حوله بعينيه في فضول، ثم أعلن (معاذ): لا شيء هنا.

قال (نادر) متحمسًا: لنذهب إلى العنوان التالي.

في الطريق أرسل (معاذ) رسالة ل (نهى) باستبعاد هذا البيت فقال (نادر): هل تراسل تلك الطبيبة؟

-أجل.

-إنها فضولية ومزعجة.

ابتسم (معاذ) وقال: نحوك أنت فقط، لم أرى منها فضول أتجاهي.

لم يعلق (نادر) وخيم الصمت قليلًا حتى وصلا إلى العنوان التالي وهو عمارة سكنية مكونة من سبعة طوابق خالية من السكان تمامًا، هناك بعض المارة في الشارع، توجها إلى داخل العمارة، بحث (معاذ) عن زر إشعال ضوء السلم حتى عثر عليه، ضغط عليه ولكن أغلب المصابيح كانت تالفة وعليه فالإضاءة ضعيفة جدًا، فأشعل كشاف هاتفه وفعل (نادر) مثله كرر (معاذ) نفس الخطوات ثم صعدا إلى الطابق الأول والثاني والثالث دون جدوى.

من حسن الحظ أنهما معًا لأن الظلام والصمت المخيم مع الكشاف الضعيف بدا كجزء من فيلم أو لعبة مرعبة.

قال (معاذ): هل نصعد جميع الأدوار؟

رد (نادر) وهو يشرع في الصعود بالفعل: أجل، لنفعل ذلك.

وتطلع إلى صديقه وقال في تصميم: يجب أن نقبض عليه.

اتسعت عينا (معاذ) وهو يرى ذلك الشخص الذي ظهر بغتة على السلم أمام (نادر)، كان ظهوره المباغت وسط الإضاءة مفزعًا، يرتدي أسمالًا وقد اختفت ملامحه وسط طبقات من الوسخ والغبار بينما غطى الطين والأتربة شعره فحوله إلى كتلة متسخة، كان يمسك بسكين كبير الحجم وقد اتسعت عيناه في جنون، عندما رأى (نادر) ملامح صديقه استدار مسرعًا حيث ينظر ولكن بالطبع فإن سرعته لم تكن كافية وتلقى الطعنة في بطنه، لم تكن نافذة لحسن الحظ، (معاذ) تجمد.. لثوانٍ فقط ثم وبسرعة قفز يلكم هذا المجنون ودون تردد أمسك بذراعه محاولًا جذب السكين منه وفي نفس الوقت إبعاد يده حتى لا يطعنه بدوره، كان ذلك الرجل شرسًا بحق ولكن (معاذ) وجه له لكمة ثانية ثم لكمة ثالثة عاتية أفقدته الوعي ووقف يلهث في ذعر وتوتر ثم استدار نحو (نادر) وتفحص الجرح مذعورًا وأسرع يطلب الغسعاف ثم شرع يضغط الجرح وهو يقول مطمئنًا: لابأس، الجرح سطحي، ستكون بخير.

كان في الواقع يحاول تهدئة نفسه وهو يرى الهالة الخضراء التي تشع الآن من جسد صديقه.

***

"تبًا لتلك الممرضة الحمقاء"

قالها (عماد) وكأنه يطلق سبة، ترفضه هو وتتظاهر بالعفة بينما راقبها فرأها تلتقي بهذا الرجل المتأنق في أحد المطاعم الفاخرة، كان حقًا يأمل في الزواج منها،فهي جميلة وما زالت محتفظة برشاقتها وشبابها، لديها شقة في نفس العمارة السكنية ولديها وظيفة ومرتب ولن تكلفه الكثير، صحيح أنه متزوج ولديه أبناء ولكن ماذا في ذلك؟ إنها تقترب من الأربعين ولن تظل شابة للأبد فلا بد أنها يائسة ورفضها أياه أنما هو تدلل، كل النساء يتدللن ويتمنعن وهن الراغبات، كان يؤمن بهذا بشدة، هذا المتأنق الذي تلتقيه يعبث بها، سيتسلى بها ويهجرها بعد ذلك حتمًا،عندها سيحين دوره.. ستكونين لي يا (رانية).

اليوم راقبها وهي تهرع مسرعة إلى ذلك المطعم وشاهدها تجلس أمام رجلًا عجوز، هو ليس مخبولًا ولا يراقبها بسبب هوس أو غيره، كل ما في الأمر أنها لقطة وفرصة لا يريدها أن تضيع، بعدها ظلت جالسة وشربت عصير برتقال، لاحظ أن هناك رجل يجلس إلى مائدة قريبة ويلتقط لها بعض الصور خلسة، ثم نهض هذا الرجل وغادر.

التقط له صورة بهاتفه واضحة ثم غادر، والتقط صورة سريعة لسيارة المصور، سيبدأ خطة جديدة.. ستدرك من خلالها أنه شهم ويحبها وربما تنفر من هذا المتأنق الذي يثير غيظه.

أبتاع خط هاتف جديد من (رمزي) فهو يبيعك الخطوط دون أن تضطر لتسجيل بياناتك أو غيره، لديه رقم (رانية) فزوجته تمتلك الرقم باعتبارهما جيران، أرسل لها على الواتس "الرجل الذي تصادقينه خطر عليك ويتلاعب بك، هناك من يراقبك ويرصد حركاتك، والدليل في الصورة القادمة، أنا فاعل خير"

وأرسل لها صورة الرجل وهو يقوم بتصويرها وصورة السيارة بأرقامها، جلس ينتظر ردها على أحر من الجمر باسمًا في ظفر، ثم تلاشت ابتسامته عندما قامت بحظر رقمه بعد قراءة الرسالة ورؤية الصورة.. تبًا لك.. سأبتاع خط جديد وسأظل أطاردك كظلك.

أما هي فقد أرسلت إلى (عاصم) تخبره وأغلق معها ثم تأمل صورة المصور ورقم السيارة وقال من بين أسنانه: (مازن) يريد أن يعبث معي بتسريب الخبر إلى إحدى المجلات الصفراء.. ليكن.

***

أخبر طبيب الاستقبال (معاذ) ألا يقلق فصديقه حالته مستقرة وسيظل تحت الملاحظة لـ24 ساعة.

طلب (نادر) منه ألا يبلغ أحدًا من أسرته بما حدث حتى لا يسبب لهم القلق أو يكون عرضة لنوبات غضب والده، سوف يرسل لهم رسالة على الماسنجر بأنه سيبيت مع (معاذ).. أما (عمر) فقد كان غاضبًا ولم يحاول إخفاء ذلك فأنفجر في وجه

(معاذ) صائحًا: أخبرتك ألا تلعب دور المحقق، لماذا تبحث في المنازل المهجورة؟ هل أنت ضابط؟ هل هي وظيفتك؟ أجل

أعرف و أفهم حزنك على (دنيا) رحمها الله ورغبتك أنت وهذا الأحمق - وأشار إلى حجرة المشفى حيث يمكث (نادر)- في القبض على القاتل، ولكنك طبيب شرعي.. قم بوظيفتك وكف عن التدخل وألا قبضت عليك بتهمة عرقلة العدالة.

أما المهاجم فقد قُبض عليه وأتضح أنه مشرد أتخذ من ذلك المبنى السكني المهجور مسكنًا له، مريض عقلي ومجنون هرب من مستشفى الخانكة.

في اليوم التالي جاءت (نهى) إلى المشفى وقد ظهر على ملامحها القلق الشديد وكان أول ما تفوهت به هو: كيف حال

(نادر)؟ هل يمكنني رؤيته؟

هكذا دون ألقاب فقال (معاذ): بخير وحالته مستقرة، ولكنه يستريح.

وشعر ببعض الغيرة من أهتمامها بصديقه.

أما (رشوان) فأثناء ذهابه بصحبة ابنه إلى العمل في السيارة تلقى أتصالًا من (مختار) وقال في ضيق: خير.

جاءه صوت (مختار): أردت الأطمئنان على حفيدك، أنه في المشفى منذ الأمس كما تعلم.. ماذا؟ ألم تكن تعلم يا بك؟

اتسعت عينا (رشوان) وهتف: ماهذا الكلام الفارغ!؟ أي مشفى؟

-دعني أخبرك بالتفاصيل.

وخلال ربع ساعة كانت السيارة تتوقف أمام المشفى ويترجل منها (رشوان) مسرعًا بينما تمهل (عاصم) وهو يزفر في ضيق، وأنقض (رشوان) على باب الحجرة وفتحها حيث يقبع عدة مرضى ثم هتف: (نادر)، هل أنت بخير يا بني؟ هل أنت بخير؟

أزاح (نادر) خصلة شعر على جبينه وقال في أرتباك: أجل، أنا بخير يا جدي، أسف لأنني سببت لك القلق.

تحسس (رشوان) وجه حفيده في قلق ثم قال محاولًا الاحتفاظ بهدوئه: ماذا كنت تفعل في ذلك المبنى المهجور مساءً؟

جاء (معاذ) إلى الحجرة حاملًا علبة عصير لصديقه فلما رأى (رشوان) حياه في حرج فهتف به:ماذا كنتما تفعلان في هذا المبنى؟

أجاب (نادر): نتجول.. ك.. كنت أبحث في المباني المهجورة، من أجل مشروعٍ جديد.

-أي مشروع؟

-مازال قيد الدراسة يا جدي.

-ولماذا تتجول وحدك؟ منذ اليوم لن تذهب إلى أي مكان بدون حرس.. هل فهمت.. لن أسمح لك بالأعتراض.. مفهوم.

ثم عدل (رشوان) ربطة عنقه وغمغم: سأذهب للتحدث مع الطبيب المختص، أريد نقلك إلى مستشفى (..) الخاصة بدلًا من..

وسكت وهو ينظر حوله مشمئزًا ثم غادر، وفي الخارج كانت (نهى) تحدق في شاشة هاتفها باهتمام وقد ولت ظهرها لهما،

سرعان ما غادر (رشوان) إلى حيث مكتب مدير المشفى بينما وقف (معاذ) بجوار (نهى) وقال: أنه بخير، جده سينقله إلى

مشفى خاص.

أومأت برأسها ثم قالت: أود إلقاء التحية عليه.

ودلفت الى الحجرة مع (معاذ) وقالت في لهجة يشوبها القلق: هل أنت بخير؟

تمتم (نادر):الحمد لله.

مضت دقائق من الصمت وبدا الحرج على (نادر) من نظرات (نهى) التي قالت: هل تشعر بتحسن؟

ثم أمتقع وجهه وهو ينظر حيث باب الحجرة، بخطوات ثابتة قوية كان (عاصم) يسير في الممر ثم دلف إلى الحجرة، مازال يرتدي نظارته الداكنة ومع امتقاع وجه (نادر) والقلق الذي ارتسم على محياه، استدار كلًا من (معاذ) و(نهى) إلى القادم

وبنظرة حادة تطلعت إليه (نهى) وهو يقترب من السرير، ثم يقول بهدوء:لماذا تذهب إلى مبنى مهجور بعد منتصف الليل؟

تلعثم (نادر) في البداية ثم غمغم: مشروع جديد قيد الدراسة وق...

قاطعه (عاصم) وهو يطقطق بلسانه: هل تكذب على والدك يا (نادر)؟ أنت تعلم كم أكره أن تكذب علي.. أليس كذلك؟

قال (معاذ) محاولًا تغيير الأجوء المتوترة: مر الأمر بسلام والحمد لله.

رماه (عاصم) بنظرة باردة، ثم عاد يميل على سرير ابنه وأقترب منه وقال: قل الحقيقة.. الآن.

ضيقت (نهى) عينيها وهي تراقب ما يحدث بينما انتفض (نادر) ثم نكس رأسه في توتر وبعد قليل قال: كنا نبحث في قضية مقتل صديقة طفولتنا.

هتف (معاذ) غير مصدق: (نادر).

كان (رشوان) قد جاء منذ لحظات ليصطحب حفيده مغادرًا وسمع ما قاله فاتسعت عيناه غضبًا وهتف منفجرًا: وماشأنك أنت يا ولد؟ هل أنت شرطي؟

ثم وجه له صفعة عنيفة جعلت وجهه يحتقن والدماء تسيل من شفتيه، هتف (معاذ) وهو يقفز ليحول بين (رشوان) وبين صديقه (نادر): عماه، ماذا تفعل؟

وصاح بعض المرضى وذويهم محاولين تهدئته، ظلت (نهى) صامتة تراقب سلوك الجد والأب بنظرة طبيبة نفسية متفحصة، وهتف (رشوان) متوعدًا: أنتظر حتى تخرج من هنا، سأعرف كيف أؤدبك، كدت تموت بسبب فتاة ماتت وشبعت موتًا.. هل جننت؟

هنا أطلق (عاصم) ضحكة خافتة مستمتعة لا تتماشى مع الموقف وتوجهت الانظار إليه تلقائيًا، فهمس وهو يغادر أمام نظرات والده النارية :سأنتظر في السيارة.

أحمر وجه (معاذ) دفعة واحدة وخفق قلبه في وجل واتسعت عيناه قليلًا وهو ينظر نحو (عاصم) بينما يغادر الحجرة حوله هالته سوداء اللون ولاحظت (نهى) حجم التغيير المباغت الذي ظهر عليه والذي لا يتعلق بسلوك (عاصم) أو ضحكته.

صاح (رشوان):هيا أنهض، سأنقلك من هذا المشفى.

وأمام نظرات (معاذ) العاجزة غادر (نادر) بصحبة والده وجده، كانت (نهى) تقف بجواره ترقب السيارة وهي تبتعد ثم

قالت بلهجة هادئة: رأيت ما حصل لك عندما ضحك السيد (عاصم).

-...............

- كانت تحيطه هالة سوداء.. أليس كذلك؟

قال (معاذ): صدفة، من المستحيل أن يكون عمو (عاصم) هو القاتل.

-ماذا تعرف عن أسرة صديقك؟

-هو لا يتحدث عن أسرته كثيرًا، قابلت جده مرة أو مرتين منذ سنوات، وقابلت والده مرة، ولكنني لم أتخيل أنهما.. هكذا.

-مجنونان

غمغم (معاذ) في حرج:أ.. يغضبون سريعًا.. أحم.. سأعود إلى المنزل لأستريح قليلًا.

-وأنا كذلك.

وبعد صلاة العصر اتصل (نادر) ب(معاذ) وكان نائمًا فهو لم ينم منذ الأمس وظل ساهرًا بجوار صديقه في المشفى، أجاب المكالمة بصوتٍ ناعس:ألو.. مرحبًا يا (نادر).. أنا...

قاطعه (نادر): هل تستطيع القدوم، دعنا نكمل البحث.

-ولكن، هل أنت بخير؟ هل التئم جرحك بعد؟ مهلًا، نكمل ماذا!!؟ هل جننت؟ هل تريد من والدك وجدك أن يقتلاني؟

-سأذهب بمفردي إذا لم تأتي، أنا بخير والجرح بخير وأريد استكمال عملنا.

-وماذا عن جدك ووالدك؟

-لن أتوقف، هذه المرة لن أستمع إليهما، سأمر عليك بعد ساعة، سنذهب إلى مدينة نصر، هناك قصر مهجور لرجل أعمال مختف يدعى (عامر عامر)، إنه ثالث عنوان في القائمة، ألقاك بعد ساعة.

نهض (معاذ) مسرعًا وأسرع يغسل وجهه ويرتدي ثيابه، هتفت (حسناء) وهي جالسة تقرأ ورقة بحثية: إلى أين ستذهب الآن؟

-مع (نادر) في مشوارٍ هام، لن أتأخر.

وبعد ساعتين كان (معاذ) بصحبة (نادر) أمام القصر، ترجل الاثنان من السيارة ووقفا أمام البوابة الحديدية المغلقة..غمغم (معاذ):هناك من يسكن القصر.. إنه لم يعد مهجور.. ماذا سنفعل الآن؟

أشار (نادر) إلى ورقة معلقة على السور وقال: أنه إعلان لبيع القصر، دعنا نتظاهر بأننا نرغب في شرائه.

مد (معاذ) يده ليطرق الباب فانفتح، تبادل مع صديقه نظرة حيرة ثم دلفا بحذر إلى داخل القصر، ثم توقف (معاذ) وهو ينظر إلى الحديقة المهملة، حدق فيها لثواني وحدق في الدخان الأسود غير المرئي لسواه، ثم قال: لقد كان هنا منذ وقتٍ قصير.. أظن أن هذا القصر هو مخبأه الثاني.

وصمت.. لا يستطيع أن يصارح صديقه بأن الهالة حول والده ظهرت باللون الأسود.

-وماذا سنفعل الآن؟

تبادلا النظرات لبرهة وهما يفكران في خطة.

***

أحتشد الجنود وضابطي شرطة ووقف (عمر) ومعه ضابط أعلى رتبة، هناك كلاب بوليسية تنبح في حماس في أحد أركان الحديقة وتتشمم الأرض في جنون، لقد أوشكت

الشمس على الغروب وقامت الشرطة باستخراج جثتين حتى الآن من حديقة القصر..الأولى لعجوز مات بطلقة في الرأس وليست معه أوراق سوى قائمة بأشياء سيشتريها للقصر..أنه حارس البوابة الذي أختفى في عام 1995 م كما أختفى رجل الأعمال (عامر) صاحب القصر وقتها.

أما الجثة الثانية فبعد أستخراجها عُثر معها على بطاقة شخصية ورقية قديمة شبه تالفة.

وصل رجال المعمل الجنائي وبدأو فحص الموضع وألتقاط عشرات الصور وأنضم (معاذ) اليهم بينما ظل (نادر) يقف خارج بوابة القصر وقال: جئت مع صديقي لأنني كنت أفكر في شراء القصر فهو معروض للبيع..ثم مر كلب ضال وراح ينبح..أشفقت عليه وقررت أن أبتاع له بعض الطعام ولكنه راح ينبش أرض الحديقة..شعرت بالشك وقررت أن الأفضل أن

نتصل بالشرطة.

رماه (عمر) بنظرة نارية ساخطة غير مصدقة ثم قال متهكماً: وأين هذ الكلب الآن؟

-لا أدري..غالبًا شعر بالخوف من هذا التجمع وغادر.

قال (عمر) لأمين الشرطة: أصطحبه إلى القسم وخذ أقواله في محضر رسمي.

وزفر في ضيق ثم تناول البطاقة التالفة التي كانت مع الضحية فوضعها في كيس حفظ الأدلة ثم توجه إلى حيث كان يقف (معاذ) يتفحص موضع الجريمة مع زملائه.

تناول (مصطفى) مسدس مدفون مع الضحية الأولى وحفظه في كيس وقال:هذه أول مرة يترك القاتل فيها أثراً أو دليلاً.

أجاب (معاذ) في حيرة: لا أثر للختم..هذا العجوز ليس من ضحاياه..دعنا نلقي نظرة على الجثة الثانية.

وتوجه حيث وضعت الجثة الثانية بعد أستخراجها، تأمل قميص الضحية، كان مختوم والعبارة قد بهتت ولكن (معاذ) استطاع قراءتها "تم قتلك بنجاح" ،الحبر ليس بنفس الجودة، الجثة قد تغيرت معالمها تمامًا بعد تلك السنوات.

قال (معاذ): كانت الدكتورة (نهى) محقة، ختمه السابق قديم الطراز ومحلي الصنع.

مط (عمر) شفتيه ثم قال: سننتظر تقرير الطب الشرعي، (معاذ) كف عن لعب دور البطل من فضلك.

وناوله كيس يحوي البطاقة.

القى (معاذ) نظرة على البطاقة ثم عقد حاجبيه وضيق عيناه وهو يحاول قراءة البيانات.

قال (عمر): سنحصل على البيانات خلال...

قاطعه (معاذ): أنا أعرف هذا الشخص.. إنه.. (منصور عبد العزيز)..ابن عمتي هناء.

-.............................

***

(8)

منذ عمل (معاذ) في الطب الشرعي وهو قد تغير بعض الشيء بحكم أنه يرى الموت أمام عينيه، الكل يموت، الصغير والكبير، الغني والفقير، في النهاية تصعد الروح إلى بارئها وتفرغ الحياة من الجسد ليتحول إلى جثة تُغسل ويصلى عليها وتدفن وتأكلها الديدان والحشرات، يستوي في هذا بنو البشر جميعًا..لذا كان يشعر بالاشمئزاز عندما يرى صراع البشر مع بعضهم البعض وتلونهم ونفاقهم في عالم لن يخلد فيه مخلوق، كان أكثر ما يثير مشاعره جرائم القتل العمد..أن يمنح شخص لنفسه حق إنهاء حياة أنسان..يحرم زوجة من حقها في وجود زوجها..يحرم أطفال من حقهم في وجود أب..يحرم أباء وأمهات من فلذة كبدهم، لهذا توعد الله القاتل الذي يستحل قتل الناس وسفك دمائهم، لهذا هي من أبشع الجرائم لأنها لا تتم فقط اتجاه القتيل، بل هي جريمة في حق كل فرد من أفراد أسرة القتيل.

أجل، كان يكره (منصور) في السابق ولكنه لم يكن شخص حقود مريض القلب كي يتمنى موته بهذا الشكل..طلب من (مصطفى) أن يعفيه من تشريح جثة ابن عمته..لقد تم قتله بنفس السلاح بنفس الكيفية بتحطيم الجمجمة وتم ختم الجثة بختم أقل جودة على القميص، هناك كذلك أثار ضرب عنيفة كسرت وحطمت عدة عظام وتركت أثار مستديرة..هذه المرة كان القاتل غاضباً لسبب ما وقد أفرغ غضبه بأن إنهال على (منصور) بالسلاح.

قال (مصطفى) وهو يناديه: يجب أن ترى هذا..أسرع.

بتردد لحق به (معاذ)..أشار (مصطفى) إلى رأس الضحية وقال: أنظر ذلك الأثر في الرأس.

تطلع (معاذ) إلى مايشبه أثر وغزة قوية ثم هز رأسه وسأل: ماهذا؟

-لاأدري، أرجح أن السلاح المستخدم به حواف مدببة من الحديد..ربما يستخدم القاتل قبضته للكم الضحية وهو يرتدي هذا السلاح المدبب..ربما يستخدم هراوة لها شكل خاص.

وصل خبر العثور على جثة (منصور) إلى الأسرة وهرعت (هناء) تولول وتبكي وتلطم ثم أتهمت (معاذ) بأنه القاتل وأصرت على اتهامه رسميًا وسط استنكار (هشام) و(حسناء) التي صاحت فيها: كان معنا في البيت يوم أختفاء أبنك.

أنطلقت في المشرحة تسب (معاذ) باعتباره سعيداً بموت ولدها إن لم يكن قد قتله..لم يعلق (معاذ) على كلامها..رغم كل شيء هي أم مكلومة في ولدها..لاشك أنها ظلت لسنوات تأمل في عودته وراحت تتخيل أنه سافر أو هاجر..تتخيل أي شيء ألا أن تتخيله مات أوقُتل.

كان اليوم عصيباً وعاد (معاذ) إلى منزله مساءً يجر قدمه، والده وأخوته عند (هناء)، والدته قد نامت وكذلك (حبيبة) بعد عودتهما من عند (هناء) أيضًا، دلف إلى حجرته الخالية فغير ثيابه وأرتدى منامته، أشعل المروحة وفتح النافذة ثم أستلقى على سريره يحدق في السقف لثوان ثم نهض.. لن ينام.. أعد لنفسه كوبًا من قهوة النسكافيه وجلس يرشف منها وهو يتفحص الآنترنت من خلال هاتفه..سلاح يترك أثر مستدير..سلاح مدبب..لانتيجة..هكذا قرر البحث باللغة الآنجليزية..ظهرت أمامه على الشاشة عشرات الآنواع من الأسلحة دون نتيجة واضحة..هل يعقل أنه سلاح خاص..صمم خصيصاً..راح يبحث لساعات ثم عقد حاجبيه وهو يتأمل صورة ذلك السلاح الغريب..ظل ينظر اليه مطولاً وهو يفكر ثم قرر أنه قد عثر بالفعل على أداة القتل.

فتح الواتس وأرسل إلى مجموعة الفريق "لقد ظللت أبحث عن السلاح وأظن أنني قد عثرت عليه"

لم يتلقى ردًا إلا بعد نصف ساعة من (عمر) الذي كتب:كيف فعلتها والمعمل الجنائي لم يتوصل لشيء.

معاذ: لأن السلاح لا وجود له في عصرنا الحالي..السلاح يدعى (نجمة الصباح)..أكتب الأسم في متصفح جوجل بالآنجليزية وسيظهر شكله لك..هناك كذلك سلاح يسمى المدراس..هذان كانا يستخدمان في العصور الوسطى، الأول في الحروب والثاني لدرس القمح ثم أصبح يستخدم كسلاح أيضًا..كان هذا في العصور الوسطى في أوروبا وربما الصين..البعض يقول أن السلاحين نوع واحد ولكن بتصميم مختلف.

نهى: لحظة، عثرت على شكله، مهلًا، سأرسل صورته.

نهى: معك حق، يبدو ملائمًا لآثار السلاح الغامض على الجثث.

عمر: ولكنه سلاح لا وجود له، هل عاد القاتل بآلة زمن إلى العصور الوسطى كي يحصل على السلاح أم أن شرائه متاح؟

معاذ: بحثت في هذا أيضًا، السلاح يمكن شرائه من مواقع مثل ايباي وأمازون ولكنها نسخ مزيفة وليست حقيقية، السلاح المستخدم في القتل من الحديد الصلب وإلا ما ترك أثراً أو قتل الضحايا.

نهى: هذا يؤكد أن القاتل لديه القدرة على السفر وشراء السلاح وربما تصميمه خصيصًا من الخارج وتهريبه إلى الداخل.

عمر: وربما ابتاعه من تلك المواقع.

نهى:لن يغامر، كم شخصًا تعرفه في مصر قد يشتري مثل ذلك السلاح.. لا أحد.. لن يغامر بكشف هويته، لقد ابتاعه أثناء سفره.

عمر: ربما، من الجيد أننا عرفنا السلاح، بالمناسبة.. القتيل الأول الذي عثرنا عليه في قصر رجل الأعمال، إنه حارس البوابة.. رجل عجوز أرمل.. قُتل بطلقة في الرأس، السلاح موجود وعليه البصمات كذلك ولكن يبدو كما لو أنه قد تم دسه في وقت قريب بجوار الجثة،المعمل الجنائي أكد أنه هو نفس السلاح المستخدم في قتل الضحية منذ 18 عامًا، أليس هذا غريب يا دكتورة (نهى) أن يترك القاتل سلاحه؟ هل هو ربما أول الضحايا؟

نهى: أنه ضحية ولكنه ليس أول الضحايا وليس من ضحاياه، هو لن يغير أسلوبه ولا سلاح القتل وما كان ليدفن السلاح بالبصمات مع القتيل.. ليس بتلك السذاجة، هل عرفتم صاحب البصمات بعد؟

عمر: السلاح مرخص ولم يستخدم منذ سنوات بالمناسبة، نشك في بعض الأشخاص، كان لرجل الأعمال المختفي (عامر) أعمال مشبوهة ولكن الشرطة لم تعثر على دليل وقتها لإدانته، وعندما أختفى رجحت تحريات الشرطة أنه تم التخلص منه بسبب خلافه مع أحد العصابات التي يعمل معها، لقد استجوبنا ابنه ولكنه كان خارج البلاد طوال تلك السنوات وليست لديه فكرة عن الجثث في حديقة القصر، كان سيبيع القصر ويعود..
عاودنا البحث عن مصممي الأختام.

نهى: إذا عثرتم على صاحب البصمات فأبلغنا.. تصبحان على خير.

وأغلقت هاتفها ثم نهضت فتوجهت غلى حجرة والدتها النائمة، تنام بجانبها على نفس السرير حتى اليوم، أندست بجوار والدتها مفكرة وتمتمت والدتها بصوتٍ ناعس: نامي يا حبيبتي فقد تأخر الوقت.

قبلتها (نهى) في جبينها واستلقت على السرير تفكر ثم همست من بين أسنانها: سلاح ببصمات، هل هو أحد رجاله؟ لماذا يرغب في التخلص منه إذًا؟

***

مع مطلع الشتاء الماضي وفي فيلا (مختار بهجت) جاءت خادمة طفلة أسمها (يسرا)عمرها 13 عامًا، ابتاعها (مختار) من والدها ولاخطأ في كلمة ابتاعها فقد باعها والدها مقابل 5 آلاف جنيه للعمل لديهم ولكي يتخلص منها، والدتها توفيت بالسرطان منذ ثلاثة أعوام، والدها تزوج من جديد وزوجته كأي زوجة أب لا تريد الفتاة ولا أحد من أقاربه يريد تحمل مسئولية الطفلة وهكذا تخلص منها بأن أرسلها للعمل لدى ذلك الثري بل وحصل على المال مقابل ذلك.

كانت الطفلة ترتعب من (مازن) ابن (مختار بهجت) الوحيد ووالد أحفاده الثلاثة، لأنها طفلة فقد كانت ترتكب أخطاء بالجملة فتقع منها الأكواب أو تترك بقعة في الصحن أثناء غسله..كانت لاتمانع أن تتلقى التقريع من (لمياء) مع أتهامها بأنها غبية وحمارة..بل لابأس بأن يلطمها أحدهم ولكن (مازن) كان يعاقبها بقسوة..ينهال على جسدها بحزام جلدي فاخر وسميك، تتلقى الضربات حتى يمتليء جسدها بالكدمات،وقد يتمزق الجلد في عدة مواضع فتنبثق منه الدماء،وهو يفعل هذا بهدوء ودون أنفعال

وكأنه يؤدي واجب أو وظيفة،وبصفة عامة كان يصفع الخدم أو يلطم الحرس ولكنها كانت الوحيدة التي تتلقى الضرب المبرح لأنها كانت بلا سند ولا شخص واحد يدعمها أو يدافع عنها.

اليوم ومع مقدم الصيف وبعد أن أعتادت (يسرا) نوعاً على حياتها الجديدة كانت تحمل أكواب الشاي إلى الصالة الواسعة،هناك ضيوف مهمين جاءوا لطلب يد الآنسة الصغيرة للزواج وكانت (لمياء) تجلس إلى البيانو لتعزف لحنًا جميلًا بينما يستمع (مازن) إليها وعلى شفتيه ابتسامة فخورة، الجميع يثرثر وبدأت الطفلة تقدم الأكواب وشكرها الشاب الوسيم ذو الخصلة على جبينه في لطف لم تعتاده قط وعرفت أن أسمه (نادر)..وعندما وصلت الى (مازن) شعرت بالرعب كعادتها هنا ودون قصد أنزلق الكوب قليلًا لتتناثر بعض النقاط منه على يد (مازن).

دون أي غضب وبهدوء شديد التقط (مازن) منديلًا ومسح يده بينما مازال يستمع إلى اللحن، أما الطفلة البائسة فقد بدت على وشك البكاء فهي تعلم العقوبة التي تنتظرها وأحنت رأسها منصرفة فوقع بصر (نادر) على أثر الكدمة المهولة على قذالها، بينما أنهت (لمياء) العزف وصفق الحضور ولكز (رشوان) حفيده كي يصفق بدوره ولكن (نادر) نهض وقال مستأذنًا: سأجري مكالمة هامة.

غادر إلى خارج القصر ومكث في الحديقة برهة يحاول التنفس، لا يريد تلك الزيجة وقد وعده جده أنه إن ظل غير مستريح حتى النهاية فلن يرغمه ولكن عليه أن يخطبها وأن يحاول التعرف عليها عن قرب خلال فترة الخطوبة أولًا قبل أن يتخذ قراراه..
المشكلة أنه يعلم أن الأحفاد الثلاثة قريبون في الطباع من والدهم، مرت الطفلة حاملة كيس بلاستيكي كبير للقمامة ثقيل عليها كما يبدو، ستلقي به خارجًا في صندوق القمامة الرئيسي، بتلقائية تفحصها (نادر) بعينيه، هناك كدمة عند معصمها وفي ساقها قرب قدمها، رقم آخر يضاف إلى أعداد ضحايا العنف من الأطفال في هذا البلد، ليته يستطيع مساعدتها بشكلٍ ما.. توجه نحوها وعاونها على حمل الكيس فنظرت اليه مذعورة ثم هرعت تستكمل مهمتها وعادت بعد قليل ومرت من جانبه فقال: مرحبًا، ما أسمك؟

تمتمت بشيءٍ ما في ذعر ثم أسرعت إلى الداخل، كان يعلم أن (مازن) شديد القسوة في معاملة خدمه ورجاله فلا شك أن لتلك الطفلة الضعيفة النصيب الأكبر من قسوته ثم

خطر على باله فكرة فعاد إلى الداخل فهو مرغم على قبول الخطبة على أي حال وطلب الحديث مع جده لدقيقة، وأمام نظرات الاستهجان أنتحى بجده جانبًا وقال: سأوافق على قراءة الفاتحة ولكن بشرط.

-ماذا الآن؟

-أريد أن تعمل تلك الخادمة الصغيرة لدينا، هذا شرطي ورجائي يا جدي.

حاول جده فهم مغزى هذا الطلب العجيب المفاجيء ثم فهم تعاطف حفيده مع الطفلة فغمغم: بالطبع تريد هذا.. ليس الأمر

صعب، لن يمانعوا رغم وقاحة الطلب.

-لا تمنحهم فرصة لإشتراط انتقالها بعد زواجي، أريد أن أخرجها من هذا البيت اليوم.

-حسنًا أيها القديس.

كعادته لا يستطيع رفض طلب أو رجاء لحفيده الغالي فتوجه عائدًا إلى الصالة وجلس بجوار (مختار) وهمس في أذنه.

تمت قراءة الفاتحة وغادرت الخادمة الطفلة مع (نادر) إلى منزله، لا حاجة لاستئذان والدها فهو لا يبالي بها أصلًا.

هناك وجدت أنه قد أصبح لها حجرة خاصة وثياب جديدة ووجبات طعام منتظمة ومعاملة لا تشمل الضرب أو الايذاء البدني لم تعد زهرة ذابلة يرمقها الناس في شفقة أو لا مبالاة، باستثناء (عاصم) الذي نظر إليها في حيرة ثم سخط ثم لا مبالاة كانت المعاملة جيدة خاصة من منقذها، ترسخ في عقلها فكرة مفادها أن (نادر) بك ملاك وليس بشر بعد مرور أيامٍ معدودة.

***

عم (سعيد) البالغ من العمر اليوم الستين أنهى زيارة ابنه بعد أن أمضى يومين معه حيث حظى بتدليل زوجة ابنه وأحفاده الأربعة ثم توجه مساءً عائدًا إلى منزله، لديه ابن آخر يعمل في إحدى الدول العربية، أما هو فعجوز فقير وليس مطمعًا للص أو غيره

لهذا لم يكن يمانع ركوب قطار الأنفاق (المترو) في وقتٍ متأخر، الساعة قد تجاوزت الثانية عشر بقليل والعربات شبه خالية، يتحرك القطار من محطة حلوان، أمامه وقت حتى يصل إلى العتبة حيث سيقوم عم (سعيد) بتغيير الخط فهو يسكن في منطقة باب الشعرية حيث كان يعمل في السابق في صناعة الأختام..بعد محطتين صارت العربة خالية لا أحد فيها سواه.. أخرج المسبحة وبدأ يمضي وقته في التسبيح، في كل محطة تتوقف العربة وتُفتح الأبواب لوقت فهذا آخر قطار لذا يتمهل السائق قبل الانتقال من محطة إلى أخرى، دلف طفل صغير السن ربما عمره 10 أعوام يحمل علب مناديل جيب ويأمل في بيعها رغم تأخر الوقت، ملامحه تشي بسوء التغذية والتعاسة، شاعرًا بالشفقة عليه ناده، توجه الصبي في لهفة وقال: ثلاث علب بخمسة جنيهات.

أخرج (سعيد) ورقة بخمس جنيهات تمثل نصف ما يملك من مال في جيبه وابتاع من الطفل الثلاث علب المتبقية معه،

وفي النهاية غادر (سعيد) محطة القطار وصعد إلى الشارع، سيسير لعشر دقائق ويصل إلى بيته، كان يعمل قديمًا في شبابه في تصميم وصناعة الأختام وبيعها وعمل اللوحات الإعلانية ثم تقاعد بعد تقدمه في العمر وزواج ولديه ووفاة زوجته واليوم أكتفى بمحل صغير الحجم جدًا يضع فيه ماكينة تصوير تحتل أغلب المساحة وبعض الحلوى يبيعها لطلبة المدارس، يسير ببطء يتناسب مع عمره، مازال المقهى مفتوحٌ وبه زبون أو اثنين، ألقى التحية على العمال كالمعتاد، أبتعد الآن وتحرك في الشارع الخالي من البشر ثم ظهر هذا الرجل أمامه..حاملًا سلاحًا غريب الشكل حقًا وقبل أن يفتح عم (سعيد) فمه بكلمة وجه إليه الرجل ضربة ألقته أرضًا ثم ثانية حطمت الجمجمة وأنهت حياته، وانتهى الأمر في ثوانٍ معدودة، كم يتمنى لو كان بوسعه اللعب قليلًا مع ضحيته ولكنه لا يحب العجائز فهم يفتقدون الطاقة والقوة، استدار القاتل مبتعدًا بخطوات سريعة ودلف إلى سيارته وأنطلق بها، لقد أنهى المهمة ويشعر برغبة عارمة في التسلية، ينتظره ضحية أختارها بعناية.

وصل إلى وجهته فأوقف السيارة في شارع جانبي مظلم وهبط، لقد درس المنطقة ويحفظ مكان الكاميرا التابعة لأحد المحال هنا، الساعة الآن الواحدة مساءً وهو موعد عودة ضحيته السمج.. هاهو (عماد) يسير عائدًا إلى منزله، يتشاجرمع زوجته في

هاتفه ويصيح: أنا تحت المنزل، سأصعد بعد قليل، لا، لم أشترِ الحليب، أين تنفقين مصروف البيت كي ينفذ منك دومًا باكرًا هكذا!؟ ليس معي مال.

وأنهى المكالمة فزفر في ضيق ثم تلقى الضربة القاسية على مؤخرة رأسه فترنح قليلًا وفقد الوعي، وببساطة جره القاتل ففتح غطاء السيارة الخلفي وألقاه داخلها وأغلق، ولم ينسى أن ينزع هاتفه فيلقيه أرضًا.

***

خيم الوجوم على وجوه الواقفين في مكتب الدكتور (مصطفى)، قال (معاذ) في مرارة: الجثة التي تم العثور عليها بعد الفجر وقمنا بتشريحها هي لضحية أخرى لهذا المخبول، مات بنفس السلاح.

غمغم (عمر): سأرسل من يحضر تقرير التشريح عندما تنتهي منه.

صمت (معاذ) شاعرًا بغضب شديد.. القاتل الذي لا تستطيع الشرطة ولا هو العثور على دليل يدينه أو يساعد في القبض عليه، لأول مرة منذ عمل بتلك المهنة يقف عاجزاً عن تقديم العدالة للضحية.. عن تحقيق القصاص.. الأدهى أن كل ما حدث في الأشهر السابقة لم يوقف القاتل، مازالت لديه الجرأة ليقتل وهذه المرة قتل مصمم أختام سابق عجوز، لا يحتاج الأمر إلى محلل نفسي أو محقق عبقري، لقد كان هذا المصمم هو أول من صمم له الختم، لا شك أنه شعر بالقلق بعد اكتشاف مخبأه الثاني فقتله وتخلص منه.

قال (عمر): لقد تم التحفظ على جميع السجلات والأوراق الخاصة بزبائن عم (سعيد) عندما كان يعمل في تصميم الأختام، وقتها كانت لديه مطبعة صغيرة ومازال يحتفظ في منزله بالسجلات لحسن الحظ، كذلك سنقوم باستجواب من كانوا يعملون لديه وقتها.

ولكن (معاذ) كان يدرك أنهم لن يتوصلوا لشيء، القاتل داهية حقيقي، لن يترك أثر أو سجل يدل عليه، ربما يكون الحظ حليفهم ويتضح أن (سعيد) كتب ملحوظة ما بشأن القاتل والختم الغريب الذي طلبه ولكن هذا لن يحدث على الأغلب.

قال (عمر) وهو يخرج لفافة تبغ: عثرنا على صاحب البصمات على المسدس بالمناسبة.

وأشعل لفافة التبغ ونفث الدخان،قال (معاذ) يستحثه: هل هو شخص هام؟

وأنقبض قلبه من فكرة أن تتحقق مخاوفه، أجاب (عمر): أجل، رجل أعمالٍ بارز وله نفوذ وصلات، لهذا لم يصدر الأمر بالقبض عليه حتى تأكدنا من أن البصمات له.

-ومن هو؟

أجاب (عمر): (مازن مختار بهجت).

هتف (معاذ) غير مصدق: من!!؟

- هل سمعت عنه؟ كانت هناك تحريات حول والده في الماضي وحول (عامر)، يقال أنهما كانا يعملان في تجارة الآثار والمخدرات، ولكن التحقيقات توقفت لعدم وجود أدلة وبضغوط من بعض المسئولين للأسف.

-متى سيقبض عليه ويرحل إلى النيابة؟

-بعد قليل سيلقي قسم الشرطة التابع لسكنه القبض عليه، ما الذي تنوي فعله؟

-لا شيء.

وقرر أن عليه رؤيته، لا بد من رؤية لون الهالة حوله.

وإلى قصر (مختار بهجت) توجهت قوة من الشرطة ومعها إذن النيابة للقبض على (مازن)، دلف الضابط ومعه القوة إلى

الداخل وسأل (مختار) في صلف: ماهذه الوقاحة؟ هل تعلم من أكون يا حضرة الضابط؟

أجاب الضابط ببرود: معي أمر من النيابة بالقبض على (مازن مختار).

هتف (مختار) مستنكرًا: بأية تهمة؟

-القتل.

اتسعت عينا (مختار) وهتف آمرًا أحد رجاله: اتصل بالمحامين فورًا.

ثم قال بلهجة حاول جعلها مهذبة: عفوًا حضرة الضابط، هل يمكنني معرفة بعض التفاصيل؟ من القتيل؟ ولماذا تتهمون ولدي؟

أصطحب الجنود (مازن) الذي هتف:ماهذا؟ كيف تجرءون؟ هل تعلمون من أنا؟

أجاب الضابط: إخرس، وتحرك أمامنا.

كان (معاذ) يقف بالقرب من القسم يحاول جاهدًا ألا يجذب إليه الانتباه لأن تصرفه مريب، هبط (مازن) من سيارته فهو لن يسمح لأحد بإجباره على ركوب سيارة الشرطة وتطلع إليه (معاذ) فلم يرى سوى هالة حمراء، إنه غاضب.. أغلق (معاذ) عينيه وحاول التركيز ثم عاد ينظر نحوه وهو يدلف إلى القسم.. رمادي.. هالته رمادية وهذا يعني أنه ليس القاتل كما كان يمني نفسه.

لحق (مختار) بولده إلى القسم وهناك فهم كل شيء أثناء تحقيقات الشرطة، حارس البوابة المقتول بجواره السلاح الذي قُتل به، هذا السلاح هو سلاح ولده الذي كان يملكه في السابق، فولده يحب إمتلاك الأسلحة، ولكن هذا السلاح لم يستخدمه (مازن) منذ سنوات، منذ قتل حارس البوابة، بل يحتفظ به في الخزانة منذ سنوات طويلة.

نهض مبتعدًا وطلب من المحامين بذل كل الجهد كي لا يبيت (مازن) ليلة واحدة في الزنزانة، وتوجه دون كلمة أخرى إلى سيارته وأمر السائق بالتوجه إلى قصر (رشوان) وقال من بين أسنانه: (عاصم) أيها الوغد، أنت من فعل هذا.

***

كان (معاذ) يشعر برغبة عارمة تكاد تخنقه للحديث مع أحد، اتصل بالدكتورة (نهى) وقال محرجًا: دكتورة (نهى) هل يمكنني المرور عليكِ في مكتبك، سآتي لرؤية والدتي وأود الحديث معك قليلًا بشأن القضية.

جاءه صوتها يجيب بلطف: بالطبع، تفضل.

توجه إلى المصحة الخاصة وذهب لرؤية والدته أولًا (حسناء) وكانت جالسة تكتب تقرير ما فلما رأته تهللت أساريرها وقالت: (معاذ)، هل جئت لتوصلني معك إلى البيت؟

أجاب باسمًا: أجل، ستكونين أنتِ يا أمي أول من يركب سيارتي.

ابتاع (معاذ) سيارة مستعملة بحالة جيدة كي يرحم نفسه من زحمة المواصلات وتأخر الحافلات وانتهى من تسجيل أوراقها وإستخراج رخصة القيادة وأراد أن يكون والديه أول من يركب السيارة، دعاهما للعشاء اليوم على نفقته.

قالت (حسناء): أمهلني نصف ساعة فقط، هل أعطلك؟

-مطلقًا، خذي ما تحتاجين من وقت، سأذهب للتحدث مع الدكتورة (نهى) بشأن القضية السرية.

شدد على كلمة (سرية) حتى لا تسأله عن تفاصيل القضية فحتى الآن تم منع نشر أي شيء عنها حتى لا تثير ذعر الناس.

في مكتب (نهى) ظل صامتًا لوهلة فقالت: دعني أخمن، أنت الآن تزداد شكوكك حول السيد (عاصم) أنه القاتل.

رد بحسم: غير صحيح، ليست لدي شكوك.. أنا الآن أعلم أنه القاتل.

رفعت حاجبيها وتألقت عيناها وهو يكمل: كل الشروط تنطبق عليه، السن والمستوى الأجتماعي والمظهر المهذب الذي يخفي تحته خلل نفسي مريع وقدرته على السفر إلى الخارج وتهريب السلاح وشراء الختم، والأهم الهالة السوداء.

-إذًا، علينا الوصول إلى عرين الوحش، فقط وقتها سنتمكن من ايقافه والقبض عليه و...

قاطعها: ولكن، كيف ستكون حالة (نادر) إن علم.

قالت في تصميم: في النهاية يجب أن يعلم، ما رأيك أن تخبره الآن؟

-الآن!؟ ماذا؟

-إنه قادم بعد قليل، غالبًا يرغب في الحديث معي كمستشارة نفسية للقضية.

-لا يمكنني أخباره.

-قد يمتلك معلومات قيمة تفيدنا، من المؤكد أنه يعلم شيئًا ما عن مخبأ الوحش السري.

-لن أفعل، أنا لا أعلم كيف أخبره أمرًا كهذا.

وصل (نادر) في تلك اللحظة فطرق الباب ودلف إلى المكتب ثم بدا محرجًا عندما وقع بصره على (معاذ) وشعر الأخير كذلك بالتوتر، كيف يصارحه!!؟ كيف؟

كانت عينا (نادر) منتفختان بعض الشيء مما دلهما على أنه لم ينم جيدًا.

قال وهو يجلس: وصلني منذ ساعة أنه قد تم القبض على عمو (مازن) وأن الأمر يتعلق بقضية القتل المتسلسل.

قال (معاذ): ليس هو القاتل المتسلسل ولكنه قد يكون معاوناً له وقد يكون قد قتل حارس البوابة لفيلا (عامر عامر).

تساءل (نادر): كيف عرفت أنه ليس هو؟..مهلًا هل رأيت هالته؟ ما لونها؟

رد (معاذ): رمادي، ليس هو.

-ولكن (مازن) ليس بشر، أنت لم ترى حالة تلك الطفلة التي كانت تعمل لديهم بالخدمة، أو قتله لكلبه، أوطريقته في السخرية من الضعفاء والفقراء.

قالت (نهى): نحن محاطون بأنصاف البشر معظم الوقت، إذا نظرت إليهم ترى ظاهريًا مظهر إنسان من لحم ودم وعظام أما داخليًا حيث لايسعك أن تطلع هم وحوش وبأختيارهم.

قال (نادر): بالمناسبة، أنا.. أحم.. أعني، أنا أعاني من الأرق منذ عدة أيام، هل يمكنك أن تكتبي لي علاج للأرق؟

أطلت نظرة خبث من عينيها وهي تقول: بالطبع.

-هناك كذلك تلك الحالة التي أخبرتك عنها في الهاتف، خادمة طفلة تعرضت لمعاملة قاسية، ضرب مبرح وجلد وكي

بالنار، أريد نصيحتك في كيفية التعامل معها.

-تواصل معي لشرح التفاصيل.

لم يسترح (معاذ) لنظرتها وغادر مع صديقه مكتبها وهو يتساءل عن غموض (نهى) وتصرفاتها العجيبة حول (نادر).

قال (نادر): أغنية الأطفال تسبب لي الأرق ولا أدري ما السبب.

-أغنية كوكو واوا.

-أجل، منذ سمعتها، تبًا لها من أغنية.

وقص عليه ما حدث معه بالأمس، فقد عاد مرهقًا من العمل بعد أجتماع مطول وتناول العشاء سريعًا وقال (عاصم) وهو جالس إلى المائدة: بالمناسبة، خطبتي ستكون بعد غدًا الخميس، حجزنا قاعة (..) يمكنكما دعوة من ترغبان في حضوره.

هتف (رشوان) مستنكرًا:خطبة بعد الغد.

رد (عاصم) ببرود: أجل يا والدي، ستأتي معي غدًا للقاء عمة العروس ولشراء الشبكة بعد المغرب، لقد أعطيتني موافقتك من قبل كما تعلم، وذهبت لرؤيتها كذلك بعد أن أرسلت لها رسالة من هاتفي، ألا تذكر؟

وتطلع إلى (نادر) وقال: أنها إنسانة جيدة وستعجبك.

لم يعلق (نادر) وبعد ساعة دلف إلى حجرته لينام كي يهرب من الجدال الدائر بين والده وجده ،غاب في سباتٍ عميق ربما لساعة أو ساعتين ثم بدأت كلمات الأغنية باللغة الإسبانية التي لا يفهمها تتردد في أذنه بصوت الطفلة المغنية، رأى نفسه طفل صغير يجلس أمام تلفاز قديم الطراز ضخم الحجم يشاهد الأغنية، هناك أصوات من خلفه، أصوات شجار غير واضحة وغير مفهومة، متداخلة مع الأغنية، ثم امتدت يد صلبة تحمله من أمام التلفاز.. ثم أستيقظ ليجد أن هناك دموعًا على وجنته قد انحدرت من مقلتيه، كان يبكي والآن يشعر بألمٍ فظيع ورغبة في التقيؤ، نهض إلى الحمام في نفس الطابق ودلف إليه وتقيأ ثم غسل وجهه بالماء البارد والتقط علبة أقراص الدواء فتناول قرصين أملًا في أن يهدأ الألم قليلًا، ظهر على باب الحمام الخادمة الصغيرة (يسرا) وقد بدت قلقة بحق، شعر بالقلق لأن الفتاة قد تعلقت به خلال الأيام الماضية بشكلٍ لم

يرتح إليه، وبدا تعلقها هذا في نظراتها وحركاتها بدأ من إعداد المشروبات له بعناية فائقة والاهتمام بنظافة حجرته وثيابه.

قال باسمًا: القولون العصبي، لا تشغلي بالك.

ردت وهي تدلف وتجلب معها أدوات التنظيف: سيغضب (عاصم) بك إذا لم ننظف فورًا.

وشرعت في التنظيف فتركها وعاد إلى حجرته بعد أن شكرها.

قال (معاذ) وهو مازال يقف معه قرب مكتب والدته: لعلك حزنت بسبب رغبة والدك المفاجئة بالخطبة والزواج وأستخدم عقلك الباطن مخزون ذكرياتك القريبة لتلفيق هذا الحلم الغريب، كما أن جميع أبناء جيلنا قد سمعوا وشاهدوا تلك الأغنية في طفولتهم.

قال (نادر) بشحوب: ولكنني لا أظن أنه حلم، أشعر بأنه ذكرى قديمة، ولهذا عندما عدت إلى حجرتي قررت البحث عن الأغنية.. ولجت إلى الانترنت وبحثت في اليوتيوب فعثرت على الأغنية بل وقد تطوع صاحب الفيديو بترجمتها.

-سمعت مرة أنها في الواقع أغنية حزينة.

-هذا صحيح، الفرخ الصغير أنفصل عن أمه ولهذا أمتنع عن الطعام والشراب واللعب وظل قابعًا في ركن الحظيرة.

هز (معاذ) رأسه ولم يدري ما يقول وغادرت (حسناء) مكتبها فرحبت ب (نادر) باسمة وراحت تغمره بالأسئلة عن أحواله وصحته ومتى سيتزوج وهو يجيبها باسمًا، لم يملك (معاذ) سوى أن يبتسم بدوره.

***

كإعصار أقتحم (مختار) الصالة في منزل (رشوان) وكان الأخير جالسًا يحتسي القهوة ويرمق (عاصم) شزرًا بينما جلس (عاصم) يحادث (رانية) على الماسنجر فتطلع الاثنان إلى (مختار) الذي قال بانفعال: ابنك سرق سلاح ابني ودسه مع جثة الحارس، إن لم تتصرف يا (رشوان) بك فسأقتل ولدك هذا.

هتف (رشوان) مستغربًا: ماذا تقول؟ أنا لا أفهم كلمة، إهدأ.

صاح (مختار): هل نسيت يا بك أوامرك منذ 13 عامًا بالتخلص من...

قاطعه (رشوان): أخفض صوتك حتى لا يسمعنا أحد، إلى مكتبي هيا.. وأنت أيضًا.

في تراخٍ ولا مبالاة نهض (عاصم) يلحق بهما إلى المكتب وأغلق (رشوان) الباب والنوافذ ثم أشعل التلفاز في المكتب وجلس وقال:ماذا يحدث بالضبط؟

أنفجر (مختار): أنت يا بك من أمر بالتخلص من (عامر) منذ 13 عامًا دون أن تشرح السبب، الله وحده يعلم ما الذي رأه (عامر) حتى يحاول الهرب خارج البلاد ويدفعك لأعطاء الأوامر بتصفيته، ولكن ولدي يومها ذهب لتنفيذ الأمر مع (عاصم)، ولدك هو الوحيد الذي يعرف أن (مازن) قتل حارس البوابة بسلاحه القديم لأنه هو من أمره بذلك وهو الوحيد الذي يعرف موضع دفن الجثة لأنه أيضًا من أمر بدفنه في تلك البقعة، ابنك هو من فعلها، سرق السلاح من الخزنة ووضعه بجوار الجثة حتى تعثر الشرطة عليه.

قال (رشوان): وما مصلحة ولدي في الإقدام على فعلة كهذه؟

-لا أدري ولكنني واثق أنه من فعلها.

-أن كنت لا تدري فلا تلقي بالتهم، لقد نسيت نفسك يا (مختار).

قال (عاصم) بغتة وهو يضع هاتفه جانبًا:أنه محق.. أجل.. أنا من فعلها.

اتسعت عينا (رشوان) وهو ينظر إلى ولده الذي أردف: لقد أمر (مازن) أحد رجاله بتصوير خطيبتي، لا أدري إن كان يشعر بالفضول أو يرغب في العبث معي وتقديم الخبر للصحف الصفراء، هل مازال غاضبًا بسبب صفقة اللحوم؟ يمكنك أن تسأله عن أسبابه يا (مختار).. لهذا عاقبته.. لا تقلق وتنظر إلي هكذا، لديك نفوذ وسلطة وجيش من المحامين وقوانين مليئة بالثغرات، أنا واثق أنك ستجد مخرج لولدك.

ثم نهض وقال باسمًا:إلى اللقاء إذًا فأنا مشغول اليوم.

قال (مختار) وهو يشير إليه بإصبعٍ يرجف غضبًا: أنا أعرف حقيقتك.

تطلع إليه (عاصم) بنظرة باردة ولم يعلق فأردف: الجثة الثانية التي عثرو عليها، أنت من فعلها.. أليس كذلك؟

رد (عاصم): هل لديك دليل؟ سلاح الجريمة؟ شهود؟ لا.. عد إلى جوار ابنك إذًا فهو يحتاجك الآن.

ثم غادر حجرة المكتب وخيم الصمت لنصف دقيقة، ثم تطلع (مختار) إلى (رشوان) الذي قال بشحوب: سأتصرف.

-سأمنحك 24 ساعة، بعدها سأهدم المعبد على الجميع، كل صفقات المخدرات والآثار سيتم كشفها.

-لمَ تنبش في الماضي!! هل تريد مني قتلك؟ ثم أنك ستفضح نفسك أيضًا.

-كما قلت، سأهدم المعبد على الجميع.

ثم استدار مغادرًا بدوره.

دفن (رشوان) وجهه بين كفيه وتمتم: هذا الولد أصبح خارج السيطرة.

***

حفل الخطبة كان فاخرًا في قاعة فاخرة مع وفرة من الطعام الشهي والحلوى الفاخرة، جلس (نادر) على أحد الطاولات مع جده يحاول التظاهر بالسعادة من أجل والده بينما يتخيل والدته المتوفاة، ليس لديه سوى صورة واحدة لها ولا أحد يتحدث عنها مطلقًا وكأن الحديث عنها محرم، ولهذا كان (نادر) دومًا يتخيلها وكفى، يتخيلها تهدهده وتغني له وتحكي له قصة قبل النوم وتحتضنه عندما يخاف أو يقلق أو حتى يرغب في الحصول على بعض التدليل، حضر الحفلة بعض رجال الأعمال والمسئولين على سبيل التقرب إلى جده ووصل (معاذ) ولم يكن ينوي البقاء مطولًا، فقط حتى يتأكد للمرة الأخيرة من لون الهالة، رحب به (نادر) بحرارة وأجلسه معه.

نظر نحو (عاصم) الذي يهمس في أذن خطيبته، هالة سوداء، ينظر من جديد، اللون لا يتغير، إن كان من يقتل أو يؤذي تحيطه هالة رمادية فلا بد أن تصبح سوداء مع تكرار القتل والأيذاء، الوحش يجلس باسمًا بينما قتل أنفس غالية بريئة، قتل (دنيا).. نهض

(معاذ) بحركة حادة، لا يدري ما يفعل، حاليًا يشعر برغبة في الانقضاض على ذلك الوحش، لن ينتظر حتى إلقاء القبض عليه فهذا لن يحدث غالبًا مع حرصه وحذره الشديدين وعدم وجود أدلة دامغة تدينه، تطلع إليه (نادر) في حيرة وقبل أن يتحرك (معاذ) خطوة، أرتفع رنين هاتفه، تطلع إلى رقم المتصل، أنه (عمر)، لن يسمعه وسط هذا الضجيج، هكذا غادر القاعة إلى الحديقة بالخارج حيث بعض الهدوء وأعاد الإتصال.. أتاه صوت (عمر): مرحبًا، أين أنت؟ لايهم، هناك أمر أكتشفته وأردت أن أخذ رأيك فيه يتعلق بالطبيبة المجنونة (نهى).

تساءل (معاذ): ماذا أكتشفت؟ أنها ليست طبيبة نفسية؟

- دعك من السخرية الآن، هي طبيبة نفسية فقد تحرينا عنها جيدًا قبل استشارتها في القضية.. نحن لا نلهو هنا.. هل تذكر عندما أكتشفت أنت وصديقك هذا الجثث في فيلا (عامر عامر)، لقد أخذنا أقوال صديقك في القسم في محضر رسمي كما تعلم، كنت أراجع القضية وكل ما يخصها عندما لاحظت ذلك.

عقد (معاذ) حاجبيه، كان يشك في سلوك (نهى) حول (نادر) والآن يتحدث (عمر) عنهما، فقال في نفاذ صبر: ماذا لاحظت؟

أجاب (عمر): صديقك يدعى (نادر عاصم رشوان عاصم).. أليس كذلك؟ الدكتورة (نهى) تدعى (نهى عاصم رشوان عاصم)، تحريت عن الأمر فوجدت أنهما توأمان ولدا لنفس الأم والأب.

-مهلًا، أسمها (نهى ممدوح).. قالت أن...

قاطعه (عمر): هذا اسم شهرة، أسمها الرسمي في الأوراق كما أخبرتك، (معاذ)، هل تسمعني؟ ألو.. ألو.

-..................

***

(9)

يصعد (معاذ) الدرج في ذلك المبنى المتوسط الحال.. العنوان في الطابق الثالث ولا يوجد مصعد.. الطبيبة تسكن في السيدة زينب، ينظر إلى ساعته التي تشير إلى الثامنة مساءً.. ضغط زر جرس باب الشقة ووقف ينتظر في تهذيب..مضت ثوان ثم فتحت امرأة جميلة حقًا ترتدي خمارًا الباب مواربًا بحذر وتطلعت اليه في خوف غريب.. قال (معاذ): السلام عليكم.. الدكتورة (نهى) موجودة، أنا زميل لها وأحتاج للتحدث معها بشكلٍ عاجل.

فتحت المرأة الباب وقالت: ستعود بعد قليل، ذهبت لشراء بعض الطعام، تفضل.

أجاب وهو يهز رأسه:لا بأس، سأنتظرها هنا.

وظل واقفًا ففتحت المرأة الباب أكثر وكان يطل على صالة نظيفة بها أثاث متوسط الحال وجلست على أحد المقاعد في الصالة تاركة الباب مفتوحًا، حدقت المرأة في السقف لثوان ثم قالت وهي تتطلع إليه: أنا والدتها.

-أسعدني لقاءك يا سيدتي.

-أنها طبيبة نفسية بارعة.

-هذا صحيح.

قالها متهكمًا في غيظ، بارعة وخبيثة، ما هدفها من إخفاء هويتها ولماذا لا يعرف (نادر) أن له أخت موجودة وأم.

-أنا والدتها وأنت زميلها.

عقد (معاذ) حاجبيه وهو يرمق الأم في حيرة ثم فطن إلى أنها تعاني من تأخر عقلي، طريقتها في الكلام ونظراتها تدل على ذلك، شعر بالشفقة على المرأة وعلى (نهى)، لا شك أن الابنة هي التي تعتني بوالدتها وليس العكس، هل لهذا السبب أنفصل عنها (عاصم) ولكن لماذا تزوجها منذ البداية؟

قالت الأم: لا أستطيع أن أعد لك الشاي، (نهى) منعتني من إعداد المشروبات الساخنة لأن الماء ينسكب علي أحيانًا، ولكن سأحضر لك عصير فهي لن تمانع.

ونهضت واختفت عن أنظاره ثم عادت بعد قليل حاملة كوب عصير في يدها ووضعته على الطاولة الصغيرة في الصالة وأشارت إليه أن يجلس فجلس وظل الباب مفتوحًا وتناول العصير شاكرًا أياها، هذه فرصة لمعرفة المزيد، فقال باسمًا: ليس لديك أبناء آخرين يا سيدتي!؟

تبدلت ملامح المرأة دفعة واحدة حتى أن (معاذ) شعر بالندم من سؤاله وبدا أنها ستنفجر في البكاء في أي لحظة، ثم قالت:

لدي، (نهى) تقول أن الوحش اختطفه ولكنها ستعيده إلينا قريبًا.

أتاه صوت (نهى) تقول وهي تدلف الى الشقة: ماذا تفعل هنا؟

استدار اليها (معاذ) ثم قال: جئت لرؤيتك دكتورة (نهى عاصم)..هذا أسمك.

نهضت الأم وتناولت الكيس من يد أبنتها وقالت: سأعد العشاء لنا جميعًا..سأعد العشاء لنا جميعًا.

قالت (نهى) في رفق وهي تقبل رأسها: أجل،كوني حذرة في أستخدام السكين.

أختفت الأم في المطبخ وجلست (نهى) أمامه وقد أطلت من عينها نظرة تحدي واضحة، فقط تجرأ على السخرية من والدتي وسترى ولكن (معاذ) ما كان ليسخر من تلك المرأة المسكينة أبدًا..ليس أحمقًا سخيفًا عديم النضج كي يفعل.

قال (معاذ): هلا شرحتِ لي؟

-أولًا، هل تأكدت من أن (عاصم) هو الجاني بالفعل؟

-أجل، لم يعد لدي شك، كدت أهاجمه لولا مكالمة (عمر)..من حسن الحظ أنه اتصل وقتها.. والآن.. هلا توقفت عن اللف والدوران والتهرب؟

زفرت (نهى) ثم ابتسمت ابتسامة مريرة وغمغمت: دعني أعرفك بوالدتي..(وفاء)..أول ضحايا والدي العزيز..سأقص عليك مأساة صغيرة..ولكنني لا أصدق أنك أستغرقت كل هذا الوقت حتى تدرك أسمي الحقيقي.

***

متى بدأ الأمر؟ يجلس (رشوان) في مكتبه غارقًا في الهموم والتفكير، متى بدأ (عاصم) يتغير، في بداياته كان رجل أعمال ورث المهنة من والده، ظاهرًا لديه مطعم صغير وشركة للأستيراد والتصدير، باطنًا التجارة في الآثار والمخدرات، لم يبالي يومًا بالحلال والحرام، شعاره أنا لا أجبر أحد على التعاطي وهكذا يحلل ويحرم تبعًا لهواه، ثري ولديه أموال طائلة ونفوذ وأتصالات ببعض ذوي السلطة ورجال يعملون تحت أمرته، قاسٍ لا يرحم..قتل بعض المنافسين له من قبل..قتل بعض رجاله ممن خانوه او تآمرو عليه مع المنافسين، نحن نتحدث عن عصابات شرسة لا ترحم ولا وقت لديه للإنسانية طالما أختار هذا الطريق.

في شبابه تزوج من فتاة جميلة جدًا، فقيرة من أسرة معدمة في الريف حيث أرضه التي يمتلكها ويذهب إليها للأستجمام..أعجبته ورغم أنها ليست مناسبة له أجتماعيًا فقد تقدم لطلب يدها ولم يخطر في باله أنها أرغمت بالضرب والضغط على الزواج منه، لم يخطر له أنها تحب شخصًا آخر سافر إلى ليبيا كي يجمع المال ويتمكن من الزواج منها، دفع مهرًا باهظًا من آلاف الجنيهات أستولى عليه والدها.

عاد بها إلى قصره في القاهرة كتحفة فنية جميلة أبتاعها..بعد عام أنجبت له (عاصم)..سيرث كل أمواله وأعماله كما حدث مع، زوجته ظلت مخلصة لسبع سنوات ثم لم تعد راغبة أو قادرة على الأستمرار فطلبت الطلاق، ببعض التحريات عرف ما كان ينبغي عليه أن يعرفه قبل الاقتران بها، هناك شاب تحبه وقد عاد منذ سنة الى مصر وظل تلك السنوات بلا زواج وهكذا اصطحبها معه إلى مخزن يمتلكه وهناك وجدت حبها الأول، مقيد، وبكل بساطة أخرج (رشوان) مسدسه ولم يقل سوى جملة واحدة: قولي وداعًا لحبيب القلب.

وأطلق الرصاص على رأسه أمام عينيها وظل صامتًا أمام صراخها الملتاع وبكائها ثم عاد بها إلى القصر وأمر لها بحجرة نائية تنتقل إليها ولا تخرج منها أبدًا إلا إلى قبرها،

كان يعلم أنها لم تخنه ولكن كبريائه أبى الرحمة أو المغفرة واكتفى بتركها حية فقط من أجل ابنه، وبعد أشهر توفيت بعد أن توقف قلبها بغتة وكان (عاصم) هو من أكتشف وفاتها بعد عودته من المدرسة وركضه إلى حجرتها كدأبه.

بعد وفاتها بثلاث أعوام وعندما بلغ (عاصم) عمر العشر سنوات..بدأ الأمر..أحضر (رشوان) قطة صغيرة مشمشية اللون لولده وكانت القطة اللطيفة تمرح وتلعب هنا وهناك وتتدلل كما تفعل القطط عموماً وتتمسح في قدمي (رشوان) أو تلعب مع (عاصم) وكانت الأمور على ما يرام لأشهر ثم بدأت القطة تموء بشكلٍ مزعج، لقد كبرت وترغب في التزواج وأن تصير أمًا.. هنا قام (عاصم) بتحطيم رأسها بعصا جده لوالده الخشبية والتي كان يحتفظ (رشوان) بها على سبيل الذكرى.

لم يصدق (رشوان) عينيه وهو يرمق جثة القطة وأدعى (عاصم) أنها قامت بعضه في يده ولكن يده كانت خالية من أي

أثر وهكذا أنهال عليه والده ضرباً..الموقف الثاني حدث بعد عامين، وكان قد بدأ يشرك ولده في أعماله كما فعل معه والده من قبل فوجد منه شراسة وذكاء حظيا باعجابه..(عاصم) في المدرسة وقد تشاجر مع زميل له وأضطر مدير المدرسة إلى إرسال استدعاء لولي أمره، انتهى الموقف ولكن (عاصم) أعترض طريق زميله هذا بعد يومين خارج المدرسة وأنهال عليه ضرباً وكسر له فكه..كانت أسرة الصبي على وشك تقديم بلاغ ضد (عاصم) لولا أن دفع (رشوان) لهم مبلغاً كبيراً كتعويض وأنتهى الأمر ثم قام بضرب ولده علقة محترمة ونقله إلى مدرسة أخرى، ثم قرر عرضه على طبيب نفسي ليطمئن وهكذا أصطحبه في أحدى رحلاته إلى لندن ذات مرة وأخذه إلى طبيب نفسي هناك وكان الطبيب متقدم في العمر وقور الهيئة أجرى العديد من الفحوصات والتحليل وجلستين مع (عاصم) ثم جلس مع (رشوان) وقال: ولدك لديه إعتلال سلوكي واضح، قد يصير سايكوباث إن لم يتلقى العلاج المكثف.

-ما معنى (سايكوباث)؟ وماسبب مرضه؟ هل ابني مجنون؟

-ليس مجنونًا بالطبع، سبب المرض الخلل في العوامل الوراثية والبيئية، لديه استعداد وراثي والبيئة التي يحيا فيها حاليًا تغذي هذا المرض، أما السيكوباث باختصار شديد

هو فقدان الإحساس بتأنيب الضمير بعد إيذاء الآخرين، قد يصل الأمر بولدك إلى القتل دون أن يشعر بالذنب.

وبدلًا من أن يثير الأمر فزعه شعر (رشوان) بالراحة، الأمر ليس خطيرًا إذًا، لا مشكلة أن يكون قلب ولده ميت فهو بحاجة إلى ذلك في مجال العمل حيث عليه أن يسيطر على رجاله ويرعب منافسيه، هذه ميزة لا مرض.

قال الطبيب:العلاج سيشمل أدوية مضادات الاكتئاب لتحسين الحالة المزاجيه والتخلص من الغضب واللامبالاة، مثبتات المزاج والتي تساعد على الحماية من التغيرات الحادة في الحالة النفسية وتقليل نبرة التوتر والعدوانية، وأيضًا مضادات القلق ومضادات الذهان.

لكن (رشوان) أجاب باسمًا وهو ينهض لمصافحة الطبيب: لا عليك يا دكتور، شكرًا لك فقد أطمئن قلبي.

وغادر بينما الطبيب يرمق ظهره في ذهول..أصطحب ولده في جولات للتنزه قبل العودة إلى مصر وقد أصبح رائق المزاج حقًا، وعاد الى مصر ومضت الحياة، صحيح أن (عاصم) كان يزداد عدوانية وشراسة وبرود ولكن والده رأى الأمر ايجابيًا وإن جعل أحد رجاله يراقب الصبي كالصقر ثم وقعت الكارثة.

***

دلف (نادر) إلى المكتب بعد أن طرق الباب فأخرج (رشوان) من وسط أفكاره وذكرياته وقال: جدي، لقد تأخر الوقت، ألن تنام؟

-بعد قليل، هل عاد والدك بعد؟

-لا.

قال (رشوان) ساخطًا:هل ينوي المبيت في الشارع مع خطيبته، أذهب أنت للنوم، سأنهي بعض الأمور أولًا.

وتأمل حفيده وهو يغادر بنظرة فخور فإن كان (عاصم) قد سبب له خيبة أمل فحفيده مدعاة للفخر.

ثم عاد يتذكر، كان عمر (عاصم) يومها 16 عامًا عندما أخبره الرجل الذي يراقبه: (عاصم) بك يراقب فتاة ما يا بك، يفعل هذا منذ عدة أيام، إنها طالبة في مدرسة (..) وقد رأها صدفة منذ أيام.

-أجمع المعلومات عنها.

-فعلت، أسمها (وفاء)، والدها متوفي ووالدتها عاملة نظافة في جامعة القاهرة و...

-يكفي، عاملة نظافة!! هذا الصبي غبي.

ولكن ولده المجنون هاجم الفتاة أثناء عودتها من درس فيزياء في وقتٍ متأخر، أسرع رجاله يزفون إليه الخبر،هذه المرة لايمكن أستخدام المال فهذا ليس كسر في الفك، هذه كارثة وجريمة بشعة،عليه أن يسرع بالتفاهم مع والدتها، سيدتي ما جدوى أن يتم سجن الصبي.. لا نريد فضائح.. أسمحي لي بتعويضك.. ربع مليون جنيه في البنك باسم ابنتك وسيتزوجها رسميًا لشهر أو شهرين، سأدخله بنفسي إلى مصحة للأمراض العقلية، إذا كانت حبلى فسأتكفل بنفقة الأولاد للأبد، لن تقبلي!! لدي نفوذ وجيش محامين ولن تنالي أي شيء إذا أستمريتي في عنادك.

ظل يحاول بالترغيب والترهيب حتى قبلت المرأة والحسرة والكسرة تطل من كل خلجة من خلجاتها، الفتاة كانت ذكية متفوقة والآن أدت إصابة رأسها التي سببها (عاصم) إلى إعاقة عقلية؛ أي أنه دمر حياتها بالكامل، تم الزواج وبعده مباشرة أرسل (رشوان) ابنه ليتم إحتجازه في مصحة خاصة دون جدوى فقد غادر بعد ستة أشهر وقد إزداد انطوائية وشراسة طباع مع غرابة أطورا ولا مبالاة غريبة، وكان يتصرف من تلقاء نفسه دون الرجوع إلى والده فقد جاءه (مختار) ذات يوم وأخبره أن (عامر) سيهرب خارج البلاد وأنه حتمًا رأى شيئًا خطرًا في البضاعة التي سينقلها.

هنا تساءل (رشوان) في حيرة: أي بضاعة؟ أنا لم آمر بنقل شيء.

ثم عرف أن (عاصم) قتل ثلاثة من رجالهم الجدد لأنهم أختلسوا بضع جرامات من المخدرات وقطع أجسادهم ووضعهم في صندوق وطلب من (عامر) أن يتخلص من الصندوق في عرض البحر.

هنا أدرك (رشوان) أن ولده ليس على ما يرام، إنه مجنون وقال ل(مختار): تخلصوا من (عامر)، أرسل ابنك مع ولدي المجنون.

وقرر بعدها أنه أكتفى، سيعتزل هذا العمل ويصبح رجل أعمالٍ مستقيم، لن تتاح الفرصة ل(عاصم) بعد اليوم لممارسة جنونه وسيتربى حفيده الغالي بشكلٍ نظيف.

***

تناولت (نهى) الأطباق من والدتها ووضعتها على الطاولة الصغيرة، فول وجبن وبعض الخيار والطماطم المقطع إلى شرائح وهناك ثلاث بيضات مسلوقة..لم يستطع (معاذ) أن يمنع شعور العطف والشفقة نحو (وفاء) وابنتها وتساءل عن شعور (نهى) نحو والدها..تناول لقمة أو أثنتين تحت ألحاح المرأتان ثم نهضت (وفاء) فجلست في الركن وأخرجت أبرتي تريكو وخيط..قالت (نهى): ماما..الدكتور (معاذ) لايريد ملابس تريكو فلا تتعبي نفسك.

فلم تجبها وراحت في تركيز شديد تعمل.

قالت (وفاء): الآن لن تشعر بما يدور حولها..دعني أكمل لك القصة..أنجبت والدتي توأم..أنا و(نادر)..كانت جدتي رحمها الله هي التي تعتني بنا وقتها فوالدتي حالتها كما ترى.

-ماذا عن (نادر)؟..ولماذا لايعرفك؟..ثم هل هناك سر ما وراء أغنية الأطفال؟

-أجل..كما قلت، كنا سعداء في الواقع، (رشوان) بك يرسل مالًا كل شهر، والدتي عقلها أقرب إلى عقلنا كأطفال، كنت أنا و (نادر) نلعب معًا ونرسم معًا وننام على سرير واحد معًا..الأغنية كانت المفضلة لدى (نادر) وكان لايمل من مشاهدتها وسماعها طوال الوقت..كوكو واوا..حتى أنه توسل لجدتي حتى تبتاع له كتكوت صغير فكان يلعب معه ويغني له الأغنية ..كنا لا نملك سوى بعضنا البعض ووالدتنا وجدتنا، ثم مرضت جدتي وتوفيت عندما كان عمري 5 سنوات.

وتطلعت نحو والدتها بحذر ولكن والدتها كانت بالفعل منهمكة تمامًا في العمل اليدوي وكأنها قد أنفصلت عما حولها.

قال (معاذ): بعد وفاة جدتك فقدت والدتك حتمًا الدعم الوحيد لها في الحياة.

-صحيح..بعد أشهر جاء (رشوان) لزيارتنا..كان يفعل هذا كل عدة أشهر وكانت جدتي تقابله بفتور ولا تسمح له بالبقاء لأكثر من عشر دقائق..المهم أنه كان يطيل النظر إلى (نادر).. لا أدري ما الذي خطر في باله وقتها ولكنني أظنه رغب في تعويض، تعويض عن خيبة أمله في ولده، ليس لدي شك أن (عاصم) أظهر خلله النفسي في سن مبكر وأن جدي أدرك أن ابنه مجنون، تعلق (رشوان) بك بأخي أكثر مني ربما لأنني كنت فاترة كجدتي على عكس أخي الذي كان مسالماً ودوداً وربما لأنه ولد..المهم أنه جاء يومًا وكنا قد بلغنا السادسة وتحدث إلى والدتي وأخبرها أنه سيأخذ (نادر) وأنها بإعاقتها تلك لا تستطيع تربية أطفال ولكن لأنه رحيم فسيتركني لها.

تنهدت (نهى) ومطت شفتيها ونظرت نحو والدتها ثم عادت تقول في غضب: لقد انتزعه من حضنها إنتزاعًا وأخذه بالقوة وهددها بأنه سيأخذني أيضًا إن حاولت التواصل مع (نادر) بأي شكلٍ مرة أخرى.

شعر (معاذ) بالغضب يملأه وهو يستمع إلى (نهى) مكملة: أخبرها أنها غير مؤهلة للحصول على الحضانة وأنه ما من قاضي سيمنحها اياها وغادر ولم يعد، كما أنه توقف عن إرسال النفقة ومن حسن الحظ أنه قد ترك لها من قبل مبلغ ربع مليون في البنك باسمها كنا ننفق منه، والآن يا دكتور (معاذ) هل تعلم كم مرة كانت تبكي أمي في اليوم شوقًا لولدها، هل تعلم أنها مازالت تبكي حتى اليوم، لهذا سأعيده، سأعيد أخي وأما جدي وأبي فلا بد من القصاص منهما.

-ولكن كيف نسي (نادر) والدته وشقيقته؟

-سأترك هذا لخيالك، تصور ما فعله (رشوان) مع طفل في السادسة من عمره حتى يمحو ذاكرته بالكامل هكذا ويصدق أن والدته ميتة وأنه بلا أخوة، ضرب، تعذيب، حرق، نحن نسمع عن هذا يوميًا في الأخبار.

هتف (معاذ) مذهولًا: مستحيل، ربما يُقدم (عاصم) على فعل ذلك ولكن عمو (رشوان)...

-يا دكتور، الوحش لايولد وحشًا وإنما تتم صناعته، هل تظن أن البيئة التي نشأ فيها والدي لم يكن عليها عاملٌ هام في تطور خلله النفسي.

-ولكن جدك يحب (نادر) حقًا، لا يطيق أن يمسه مكروه.

-و (عاصم) كان يحب والدتي حقًا.

قال (معاذ): هذا ليس حبًا، لقد دمرها وأذاها.

ردت (نهى) وقد شاعت ابتسامة حزينة متهكمة على شفتيها: هذا ما يجب أن تتوقعه من وحش عندما يحب.

-.................

ونهضت قائلة: لحظات وسأعود.

وتوجهت إلى والدتها فربتت على كتفها في رفق وقالت: هيا لنغسل أسناننا بعد الأكل.

ودلفت مع والدتها إلى ما يبدو أنه الحمام، بعد قليل فتحت الجارة المقابلة لهما الباب لتضع كيس القمامة ونظرت بفضول نحو (معاذ)، هالتها الزرقاء تحولت إلى برتقالية، إنها تشعر بالفضول والإثارة، ثم بدأت تتحول إلى الرمادي، فهم (معاذ) أن تلك المرأة فارغة العقل ستبدأ بالنميمة ونشر الشائعات في المبنى كله عن الشابة التي تستقبل شابًا غريبًا في منزلها

مساءً، لم يشفع لها أن الباب مفتوح على مصراعيه، اتسعت عينا (معاذ) بشكلٍ مخيف وقال: مرحبًا، أنا مريض لدى الدكتورة وجئت لزيارتها بشكلٍ عاجل، أسمع أصوات سكان المريخ في أذني.

بدا الذعر على الجارة وأسرعت تغلق بابها فابتسم (معاذ) في استمتاع وظهرت (نهى) مع والدتها التي قالت: غسلت أسناني.

ثم عادت إلى حجرتها ودلفت (نهى) معها وعادت حاملة ملف، وقالت: من أجل هذا الملف أصررت على العمل في تلك المصحة، وكنت كلما رفضوني أعود، لقد سرقته من الأرشيف، هذا ملف والدي عندم أودعه جدي منذ سنوات للمصحة.

***

هتف (عمر) مستنكرًا عبر هاتفه: ماذا؟ كلا.. كلا، لقد أمسكنا بالقاتل بالفعل، إنه (مازن مختار)، سيعترف قريبًا فنحن نضغط عليه، لولا نفوذ والده لضر.. أ.. لأستجوبناه بشدة.

كان (معاذ) قد فتح مكبر الصوت كي يتمكن الثلاثة من الحديث معًا، قالت (نهى):القاتل هو (عاصم رشوان)، كل الصفات تنطبق عليه.

عمر: وتنطبق على (مازن) كذلك، أعرف أنه والدك.. هل تقولين هذا لأنك غاضبة بسبب إهماله لك!؟

نهى: أقول هذا لأنها الحقيقة يا حضرة الرائد، (مازن) قتل حارس البوابة فقط، معي دليل حصلت عليه بالصدفة من المصحة التي أعمل بها، حصلت عليه بشكلٍ غير قانوني، يمكنك أن تطلع عليه، (عاصم) تم ايداعه في عمر ال16 عامًا لمصحة لعلاج الأمراض النفسية والعصبية.

عمر: ولكن بدون دليل ولا شهود لايمكنني القبض عليه.

معاذ: كل ما نطلبه منك هو تحريات حول كل أملاك تلك العائلة، أحد تلك الأملاك هو المخبأ حيث ينقل ضحاياه ويتسلى بتعذيبهم.

عمر: نفس المشكلة، بدون دليل لا أستطيع أقتحام البيوت وتفتيشها، كما أننا نتحدث عن أملاك (رشوان عاصم)، ليس شخصًا هينًا يمكن العبث معه.

معاذ:دع هذا الأمر لي، سأتسلل بنفسي إن لزم الأمر.

مضت برهة صمت، ثم قال (عمر): ولكنني لن أتدخل لحمايتك، إذا قبض عليك فستوجه لك تهمة التعدي على ممتلكات الغير، سأرسل من يحضر لي الملف غدًا،سيكون الأمر مسئوليتك وحدك.

نهى و معاذ معًا: ليكن.

***

سأل (معاذ): متى عرفتي أن والدك قاتل متسلسل؟

ناولته الملف وقالت: أنا الشاهد المجهول الذي اتصل من كشك في إمبابة، عندما أغير صوتي عبر الهاتف يصير كصوت صبي.. أجل.. رأيته، الواقع أنني رأيته مصادفة مرتين.

ومدت يدها لتتناول كوب الشاي الذي أعدته وأشارت إلى (معاذ) كي يفعل مثلها ثم قالت: عندما كنت طالبة في كلية الطب قررت ذات يوم أن أذهب ل (نادر)، حان الوقت كي أعيده، كبرت بما يكفي ولم أعد خائفة، توجهت إلى عنوان القصر ولكن

حارس البواب أخبرني أن (نادر) سافر إلى المانيا ليستكمل دراسته هناك، بالطبع فقد أنهى دراسته قبلي لأن دراسته 4 أعوام فقط، شعرت بخوفٍ شديد ألا يعود إلى مصر ثانية، حاولت دخول القصر ولكن تم منعي طبعًا، (رشوان) بك سافر معه كي يطمئن عليه ويعود، (عاصم) هو المتواجد.. لا أدري ماحدث لي يومها.. جلست بعيدًا وأقسمت أنني لن أغادر حتى التقي به وأطالبه بإعادة أخي، حل المساء وأنا جالسة ثم غادر (عاصم) بسيارته ذات الزجاج الداكن بوابة القصر.. صدقني أنا حتى اليوم لا أصدق ما فعلته.. لقد أوقفت سيارة أجرة وتبعته حتى توقف عند مطعم ودلف اليه..أردت أن أتبعه إلى الداخل أو أناديه ولكن شيئًا ما منعني فظللت خارجاً أنتظر ثم رأيته يغادر ويأمر سائقه بالمغادرة وقاد سيارته فقررت المغادرة وقد فقدت شجاعتي وقلت لنفسي متحججة بأنني سأذهب لرؤيته في مرة أخرى وتوجهت إلى محطة حافلات قريبة ففوجئت بأن سيارته تمر من أمامي في الشارع المقابل، أي أنه قام باللف بسيارته في الاتجاه المقابل ومنه إلى شارع جانبي قريب مظلم وخالي وظل جالسًا في سيارته دون حركة، لم أفهم ما يرمي إليه بوقوفه هكذا، وكنت بصراحة خائفة من بقائي وحيدة حتى وقتٍ متأخر في الشارع ومع ذلك جلست في محطة الحافلات و طفقت أراقبه، لا أدري لماذا لم أذهب للتحدث معه وأكتفيت بمراقبته في فضول، حتى أغلقت المحال وغادر عمال المطعم وبدأ بعض المارة يرمقونني بنظرات أرعبتني ومع ذلك خطر في بالي وقتها أنني إن تعرضت لشيء فسأهرع إلى حيث سيارة والدي.

ثم أنفجرت (نهى) ضاحكة من الفكرة ووضعت الكوب من يدها وتطلع إليها (معاذ) صامتًا، قالت: أعتذر، كنت وقتها حمقاء، المهم أن الخوف قد تغلب علي فركبت الحافلة

شبه الخالية وقررت عدم الانتظار لأكثر من هذا وجلست وألقيت نظرة أخيرة على سيارة والدي الواقفة فرأيته يغادرها ويسير خلف شاب ما من عمال المطعم ويضربه على رأسه.

-لمَ لم تفعلي شيءً وقتها أو تبلغي بعدها؟

-لا أدري، قررت أن أتجاهل أو أتناسى ما رأيت، كانت غلطة والندم يقتلني بسببها حتى اليوم كما أنني لم أستوعب وقتها ما فعله ثم مع تخصصي في الطب النفسي بدأت أشتري الكتب التي تتعلق بالقتل واهتممت بدراسة الجرائم، وقبل عودة (نادر) قررت مراقبة والدي من جديد، أعرف أنه ليس.. ليس رجلًا صالحًا؛ فوالدتي خير دليل، وظننت أن بوسعي تهديده لإعادة أخي، تتبعته ثانية في مرة فرأيته يحوم حول البيت المهجور في المعادي، هكذا تفحصت البيت دون جدوى ثم عاد أخي كما علمت فقررت إعادة مراقبته فرأيته وقد أتي مساءً ليدخل البيت وحمل معه شيئًا ملفوفًا يبدو كجثة ورفش ثم غادر بعد نصف ساعة تقريبًا ومعه الرفش فوضعه في سيارته وغادر، بالمناسبة أن لديه العديد من السيارات وبعضها بأرقامٍ مزورة، فاتصلت بالشرطة وأبلغتهم، أخترت كشك في منطقة مزدحمة بالسكان حيث يأتي للاتصال من الهاتف عشرات الأشخاص يوميًا.

تطلع (معاذ) إلى ساعته التي تشير إلى العاشرة مساءً ثم قال: كيف عرفتِ أنني الطبيب الشرعي الذي فحص الضحية وقتها؟

-لم أعرف، كانت مصادفة أو قدر أن تكون أنت من يفحص الجثث ووالدتك زميلة في المصحة.

-لم كل تلك اللعبة؟

-لأنني لا أملك دليلًا، ولأنني أردت أن يقبض عليه من خلال الشرطة ودون أن أظهر في الصورة، ولأنني لا أريد أن يزج بي (رشوان) بك في السجن ثم ينتقم من أمي المسكينة، أنت لا تملك فكرة عن نفوذه، ستنتهي القضية قبل أن تبدأ وسوف يقال أنني ابنة حاقدة على أبيها الذي أهملها وتحاول تلفيق التهم له، أعني تخيل فقط انني ذهبت إلى الشرطة وقلت لهم والدي قاتل متسلسل.

نهض (معاذ) وشكرها على كوب الشاي والعشاء وقال: إذا عثرنا على مخبأه سيقبض عليه وينتهي هذا الكابوس.

ظهرت (وفاء) على باب حجرتها وقد أحمر وجهها وانبعثت من جهتها رائحة تشبه البول فتوجهت إليها ابنتها فقالت

مرتبكة: تأخرت في الذهاب الى الحمام في الوقت المناسب.

لم يبدو على وجه (نهى) أي ضيق أو امتعاض وأنما قالت معتذرة: نسيت أن أدعك تذهبين إلى الحمام قبل نومك، أنشغلت، أسفة.. هيا بنا.

استدار (معاذ) مغادرًا وقبل أن يغلق الباب قال بصوتٍ مرتفع: خلال يوم أو يومين سأحضر ابنك يا سيدتي إليكِ.

وبينما يدلف إلى سيارته كان يفكر أنه أكتشف جانبًا جديدًا من شخصية (نهى)، إنها قوية وقد تحملت أزمات نفسية ليست هينة وظلت محتفظة بأتزانها النفسي، حبها يتسلل إلى قلبه ببطء.

***

(عاصم) مستلقِ على ظهره فوق فراشه الوثير يعقد ذراعيه خلف عنقه ويرمق السقف وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مستمتعة، يتذكر تفاصيل قتل (عماد)، صدر منه همهمة ضاحكة وهو يتذكر صرخات الألم المكتومة من (عماد) بينما الزجاج يمزق باطن قدمه، تركه حتى غادر الممر ووصل إلى الحجرة السحرية كما يحب تسميتها، من بين جميع الحجرات أختار الأحمق حجرة الأفخاخ وقد أطبق فخ الدببة على قدمه فمزق اللحم، على كلٍ فهو قد أنهى ألمه بضربتين من سلاحه الرائع والفريد، إنه قمامة، مجرد قمامة.. وقد قام هو (عاصم) بتنظيفها.

يخفق قلبه بعنف من فرط الشعور بالإستمتاع والإثارة ثم أغلق عيناه وغاص في نومٍ عميق وفي الصباح الباكر أستيقظ منتعشًا وسمع طوات قادمة نحو حجرته وهو يتوقع أن يعاود والده المزعج الشجار معه بسبب (مازن) والحقيقة أن ورطة هذا الأخير لا فكاك منها هذه المرة على الأغلب، ربما لو كان يعامل رجاله بشكلٍ أفضل لما باعه

أحدهم وأسلم السلاح ل (عاصم) مقابل المال، وأنفتح باب الحجرة ووقف على الباب والده وصاح (رشوان) في وجه (عاصم): أسمعني يا ولد، أنا لن أدخل في عداء مع رجل مهم ك(مختار) من أجلك، تصرف وأنهي تلك المشكلة اليوم كما بدأتها.

قال (عاصم) وهو يضع ربطة عنقه أمام المرآة في حجرته: سيتصرف والده، حتى لو أحضر شاهد زور أو شخص يتحمل القضية مقابل المال، دعك منهما.

سمع (نادر) صوت الشجار فزفر في ضيق ونهض يرتدي ثيابه كي يذهب إلى العمل دون أن يبقى لتناول الإفطار وهرع يغادر قبل أن يهبط جده ويلمحه، هتفت (يسرا) وهي تركض ورائه: مهلًا يا (نادر) بك.. خذ.

وناولته شطيرة أعدتها له فشكرها وأسرع يغادر إلى الشركة وبعد صلاة الظهر اتصل به (معاذ) يدعوه لتناول الغداء معه في مطعم أعتادا الذهاب اليه فوافق متحمسًا، توجه (معاذ) إلى المطعم بعد أن حصل على أذن من رئيسه فوجد (نادر) يتصل به..لوح بيده محيياً أياه ولم يكن يجلس وحده..فوجيء (معاذ) بوجود (عاصم) وخطيبته (رانية) فلا بد أنه حاول أبلاغه بوجود ضيفين..أستجمع (معاذ) أعصابه..القاتل يجلس معه على نفس المائدة..لن يضربه أو يهاجمه بل سيسعى ليتم القبض عليه ومحاكمته وأعدامه غمغم لنفسه: لاتفقد أعصابك..لاتفقد أعصابك.

ثم أجبر نفسه على الأبتسام وهو يحي الحضور بهزة رأس ويجلس وقال (نادر) معتذراً: السيدة (رانية) تريد التعرف الي.

قالت (رانية):أعتذر عن تطفلنا المباغت..كنت مع (عاصم) وصارحته برغبتي في اللقاء و التحدث إلى (نادر) فأصر فجأة على أن نذهب الآن.

قال (عاصم): لأني مشغول يا حبيبتي بعد ذلك.

هذه المرة تفحص (معاذ) (عاصم) عن قرب وبأهتمام، الآن فقط يلاحظ..أنه قوي البنية رغم أنه في منتصف الأربعين،ثم من قال أن (عاصم) طبيعي..عيناه تخونه وتفضحان سره، تطل منهما نظرة قاسية شريرة مخيفة من وقت لآخر، لاحظ (عاصم) نظرات (معاذ) إليه فتلاعبت على ثغره شبح ابتسامة مستمتعة، خيل ل (معاذ) أن الزمن قد توقف.. لم يعد يسمع ما يدور حوله من ثرثرة.. فقط هو لوحده في مواجهة الوحش،

تبادلا نظرات مليئة بالمقت والغضب من جهة (معاذ) والسخرية والتهكم والاستمتاع من جهة (عاصم)، ثم قال (عاصم) فجأة: هل مازلتما تلعبان دور المحققين؟

أرتبك (نادر) وربما شعر بشيء من الخوف وهو يتمتم: لا.

قال (معاذ) في تحدي: أنا لم أتوقف، أقتربت جدًا من العثور على عرين الوحش.

قال (عاصم) في سخرية: حقًا؟ الوحش.. هه.

ثم نهض وأردف: سأذهب إلى الحمام.

نهض (معاذ) بدوره وقال: وأنا أيضًا.

دلف (عاصم) إلى الحمام فتبول ثم شرع يغسل يديه وهو ينظر الى المرآة ووقف (معاذ) بجانبه يغسل يديه كذلك..مضت ثوان دون كلمة، ثم قال (عاصم) وهو يجفف يده في المناديل الورقية: تريد سماع الحقيقة؟

لم يعد يحاول أخفاء الأمر وقال (معاذ): أجل، بعدها سأقبض عليك.

ضحك (عاصم) في أستمتاع واضح ثم قال: حاول إن إستطعت..ولكن كيف عرفت؟ دعني أفتشك..هل تقوم بتسجيل أعتراف لي؟..دعني أفتشك إن كنت تريد سماع الحقيقة.

فتح (معاذ) أزرار قميصه وترك (عاصم) يفتشه..يريد أن يحصل على أجابة تشفي صدره ولا وقت لديه للشجار الآن ثم قال:كيف أستطعت؟أنا جاد..كيف يطاوعك قلبك وعقلك وجوارحك على القتل؟..كيف؟

أطلت نظرة ساخرة مستفزة من عيني (عاصم) كانت فيها الأجابة ثم قال: بكل سهولة في الواقع.

-ألا تشعر بالندم؟

-ولا للحظة.

-لماذا؟..كل هؤلاء الضحايا الأبرياء..كيف أستطعت؟ لماذا قتلت (دنيا)؟ الموظف في الهايبر ماركت؟ طالب الكلية؟ وابن عمتي (منصور)؟ وغيرهم.

- تظن أنهم ضحايا أبرياء؟ لنرى إذًا، موظف الهايبر ماركت كان يتغزل في زميلته، غنه خائن لزوجته، ألم تكن تعلم!! ها أنا قد أخبرتك، طالب الكلية، آه.. كان يعمل في مطعم شهير ويقيم علاقة مع امرأة ثرية متزوجة أكبر منه بعشرة أعوام، رأيته مرة وهو يوصل الطعام إلى منزلها فيدلف إلى البيت ولا يغادر إلا بعد عشر دقائق، (دنيا) التي تبكي أنت وولدي الأحمق لأجلها حاولت الإيقاع بابني طمعًا في ثروته؛ فالأمر واضح لأي شخص، أما (منصور)، أجل..أذكره فقد حطمت عظامه، هل تعلم أنه كان يلاحق (دنيا) وينوي أختطافها، ترى ما الذي كان ينوي فعله بها بالضبط؟!

-ماذا عن (وفاء)؟

تبدلت ملامح (عاصم) وامتقع وجهه قليلًا، ثم قال وقد اكتسى صوته بنبرة عصبية: هل تظن أنه توجد فتاة محترمة تسير في الشوارع بعد العاشرة مساءً وكأنها تدعو الشباب للتحرش بها، لقد كانت تلك غلطتها.

قال (معاذ): (وفاء) كانت طالبة مجتهدة وفتاة أمامها الحياة والمستقبل قبل أن تلقاك، (دنيا) كانت فتاة بريئة طيبة وليست كما تزعم، كل البشر يخطئون ولا يحق لك معاقبتهم، أنت هو الشرير في تلك القصة فلا تحاول لعب دور المصلح أو المنتقم، أستطيع رؤية السواد الذي يفعم روحك وقلبك أيها الوحش الشرير المريض

لكم تمنى (معاذ) أن يحطم وجهه باللكمات ولكن (نادر) في الخارج كما أنه قد يزج به في السجن بتهمة التعدي عليه بالضرب..تتداعى أمام ناظريه صورة (دنيا) ترتدي فستانها وتذهب للقاء صديقاتها..(وفاء) تضم ورق الدرس إلى صدرها بينما تحاول العودة سريعًا، موظف الهايبرماركت يلهث محاولًا اللحاق بولده قبل أن ينام عله يظفر ببضع دقائق يمضيها معه..وحتى ابن عمته..ربما كان (منصور) شريراً ولكن من منح هذا الوغد الحق في أيذاء وتعذيب وقتل إنسان آخر؟!!

هكذا غادر (معاذ) الحمام بعد أن كور قبضته كي يسيطر على أعصابه، وراح يتنفس بعمق، عاد إلى المائدة وكانت (رانية) تقول في قلق: تصور أن زوج جارتي الأستاذ (عماد) مختفٍ منذ أيام، بدأت أشعر بالقلق بعد أن حكيت لي عثورك علىجثة مدفونة في حديقة فيلا.

تجمد (معاذ) وتطلع تلقائيًا إلى (عاصم) القادم نحوهم ببرود متناهٍ وكأنه لم يعترف بجرائمه للتو، وقد رسم على شفتيه ابتسامة مرحة، هذا الجار المختفي، هل هي مصادفة أم... إن ظل لثانية واحدة فسينفجر.

نهض (معاذ) وقال آمرًا صديقه: هيا بنا يا (نادر)، يجب أن تأتي معي الآن لأمرٍ في غاية الأهمية، لا تجلس محرجًا،الآن.

جلس (عاصم) وقال: أذهب مع صديقك فهو يبدو منفعلًا، سنعقد لقاءً آخر فيما بعد.

غمغم (نادر): ولكن، سأدفع الحساب أولًا.

ودفع حساب الطعام ثم غادر مع (معاذ) وقال وهو يدلف الى سيارة الأخير الجديدة: هل سنركب سيارتك؟ ليكن سأرسل من يحضر سيارتي، ماذا هناك؟ من قلة الذوق أن أترك والدي هكذا و...

قاطعه (معاذ): هل لديك شهادة وفاة والدتك؟

-مع جدي، لماذا تسأل؟

-هل أطلعت عليها من قبل؟ فعلت، حسنًا، إنها مزورة، والدتك على قيد الحياة، بل وأختك كذلك.

حدق (نادر) فيه فقال: الرائد (عمر) لاحظ تشابه الأسماء بينك وبينها، أعني شقيقتك وأخبرني، ذهبت إليها وتأكدت.

هتف (نادر): هل تمزح؟ لأنها مزحة سخيفة حقًا،أم لعلك جننت ؟

-الدكتورة (نهى) هي أختك وتعيش مع والدتك، سأخذك الى هناك، أسمع تفاصيل القصة وتأكد بنفسك.

-ولكن جدي...

-جدك أخذك بالقوة والتهديد من والدتك وكذب عليك، أنتزعك عندما كان عمرك 6 سنوات.

مضت لحظة صمت ثم قال (نادر):أوقف السيارة، أنت لست على ما يرام.

-أغنية كوكو واوا، كانت أغنيتك المفضلة في طفولتك، متى كذبت عليك من قبلك؟ متى لم أكن صديقك؟

-..............

-ستتأكد بنفسك خلال دقائق.

تمتم (نادر) بصوتٍ ضعيف:ولماذا لا أذكر شيئًا عن ذلك؟

-لا أدري، ولكنني أقسم بالله أخبرك الحقيقة.

-ولماذا تخلت أمي عني؟ ألم أكن وقتها في سن صغير وفي حضانتها؟

-عندما ترى حالتها ستفهم.

وصلا إلى عنوان (نهى) وغادر (نادر) وتطلع حوله ثم صعد مع صديقه، طرق (معاذ) باب البيت ففتحت (نهى) ونظرت إلى (نادر) بنظرات جمعت بين السعادة والأسى بتناقض غريب ثم إلى (معاذ) وقالت: شكرًا جزيلاً لك.

ظل (نادر) واقفًا في مكانه فقال (معاذ): لندخل.

في حذر دلف (نادر) وجلس على أقرب مقعد إلى الباب وتطلع إلى (نهى) مفكرًا أن لها نفس لون عينيه، ثم قال: أريد أن أرى الأوراق الرسمية التي تثبت مزاعم صديقي وإلا سأغادر فورًا.

أشارت (نهى) إلى الطاولة الصغيرة وقالت: شهادة ميلادي والبطاقة وبعض الصور القديمة التي تجمع بيننا مع أمي وجدتي، ستجد نفسك في الصور، تفضل، يمكننا تحليل ال (دي إن أيه) إن رغبت.

مد (نادر) يده فتناول الأوراق والصور بوجوم وراح يتفحصها ومال (معاذ) على أذنه وقال: أنا أسف يا صديقي، كان يجب أن أمهد لك الأمر بصورة أفضل، أنا سأغادر الآن.

تحركت شفتا (نهى) لتقول دون أن تصدر صوتًا: شكرًا لك.

وغادر وهو يفكر أيهما أكثر قسوة، من يقتل للمتعة أم من يقتل الناس معنويًا لمصلحته، كلما فكر في الأمر وجد أن انتزاع طفل وحرمانه من أمه وحرمان الأم نفسها من فلذة كبدها قسوة ما بعدها قسوة، لا يجد عذرًا أو مبررًا ل (رشوان)، ثم خطر في باله بغتة والدته التي أنجبته وتخلت عنه، هل كان الأمر سهلًا عليها، أم لعلها تبكي فراقه حتى اليوم،هل ستسأل عنه يومًا ما، فهو يسكن في نفس البناية التي ألقي على مدخلها منذ سنوات طويلة، ثم خطرت أسرته على باله الآن، كم تعبت وعانت (حسناء) في رعايته وتربيته رغم أنه ليس ولدها.. أجل ربما فضلت أبنائها بعض الشيء عنه وقد كان يستشعر ذلك ولكنه يدرك الآن أن تلك المشاعر كانت تفرض نفسها عليها برغمها، والده العظيم (هشام)، لم يجلس معه منذ وقت، أخوته كذلك، (حازم) المدلل، (حسام) الطيب، (حبيبة) الشقية المزعجة، إنه سعيد لأن الله أكرمه حقًا بنعمة عظيمة وهي تلك الأسرة وهو سعيد لأن (نهى) سعيدة ولأن (نادر) وجد شقيقته ووالدته، من يدري، ربما يشفى صديقه من آلامه قريبًا.

***

# (10)

أمضى (رشوان) سنوات عمره في تنمية ثروته وسلطته ونفوذه وعلاقاته، ولهذا عرف على الفور أن (عمر) يتحرى عن عقاراته وممتلكاته، في صباح يوم الثلاثاء جاء سكرتيره المخلص إليه في المنزل وكان يفعل هذا في بعض الأحيان إن كانت هناك ضرورة وقال: (رشوان) بك، علمت من مصادري أن الشرطة تتحرى عن ممتلكاتك يا بك.

وضع (رشوان) فنجان القهوة من يده وتساءل: ولماذا؟ أعمالنا كلها مشروعة منذ سنوات، هل هو (مختار)؟

-كلا يا بك، الأمر كما فهمت متعلق بقضية سرية، القضية التي كان (نادر) بك يتابع أخبارها.

شحب وجه (رشوان) قليلًا وقال:قضية قتل الفتاة.

-هناك عدة قتلى وليست الفتاة فقط.

شرد (رشوان) مفكراً هل لابنه علاقة بتلك الجرائم كما يخبره عقله وينفي قلبه، وماذا عن (نادر)؟ فهو منذ ثلاثة أيام لم يره تقريبًا وكأنه يتجنبه، يذهب الى العمل باكرًا ويعود في وقتٍ متأخر ويتحجج بأنه متعب ويغلق على نفسه حجرته والقولون العصبي لديه يؤلمه على الدوام، هل أدرك شيء ما عن طبيعة والده؟ هل ربط بينه وبين تلك الجرائم؟

قال (رشوان): أفعل اللازم، وبالمناسبة، أريدك أن تبحث عن مصحة نفسية مناسبة في سويسرا مثلًا أو أي دولة أوروبية.

-أمرك يا بك.

وبعد نصف ساعة جلس (رشوان) إلى مائدة الإفطار وأقترب منه (نادر) حاملًا حقيبة صغيرة مما يوضع فيها الثياب وقد بدا عليه الأرهاق وعلامات الأرق والحسم كذلك.. قال (رشوان) باسمًا: صباح الخير يابني، أخيرًا تكرمت على جدك ببعض من وقتك.

ثم نظر إلى الحقيبة فوجه حفيده الذي قال: اليوم سوف أعود إلى والدتي.

أمتقع وجه (رشوان) دفعة واحدة وبدا عليه عدم التصديق وألجمت المفاجأة لسانه لوهلة، ثم قال في أضطراب: والدتك توفيت...

قاطعه (نادر): والدتي حية ترزق، وأختي كذلك وأنا سأذهب للعيش معهما.

-تريد الآن أن تتركني وترحل، بعد أن ربيتك وراعيتك وعلمتك طوال تلك السنوات.

-لن أنسى فضلك أبدًا يا جدي، سأظل دومًا حفيدك، ولكنني لا أستطيع حاليًا مسامحتك على ما فعلت.

هتف (رشوان) منفعلًا في غضب:هل رأيت حالتها؟ هل تستطيع تلك المرأة رعايتك؟ لقد كنت أبحث عن مصلحتك.

أجابه ببرود: رأيت حالتها وجلست معها وأحتضنتني وبكت لدقائق، هذا الحضن منحني إحتواء وحب لا تمنحه سوى الأم، منحتني أمرًا أفتقدته ل21 عامًا.

-إذا غادرت القصر فسأتبرأ منك وسأطردك كذلك من الشركة، إن كنت تريد رؤيتها وزيارتها فأفعل ولكن لا تتركني، أذهب إليها كل يوم فهذا حقك.. أجل.. لقد كنت مخطئًا وأعترف بذلك، هيا يا بني، أبقى مع جدك وأدر ممتلكاتك وثروتك، لا تتخلى عن كل شيء من أجل لحظة غضب عابرة.. مهلًا.

أطلت من عيني (نادر) نظرة لامبالية لم يرها جده منه من قبل ودون كلمة حمل حقيبته وغادر القصر إلى الأبد.

***

اليوم الأربعاء حصل (معاذ) على أجازة فهي أجازة والدته والجميع في البيت فالدراسة الجامعية قد أنتهت وحتى (حازم) أنهى عمله باكرًا وعاد..بعد أيام سيسافر الوالدين لأداء العمرة ولابد من حفلة صغيرة تعبيراً عن السعادة..سيأتي (نادر) لتوديعهما ويمكث لنصف ساعة ويغادر، سمع صوت وصول رسالة على الواتس ففتح هاتفه..رسالة من (عمر): لقد تم نقل القضية إلى ضابطٍ آخر سواي، وتم نقلي إلى محافظة (..) بالصعيد.

معاذ: كيف؟ هل نفوذ (رشوان) متشعب إلى تلك الدرجة؟

عمر: وأكثر، كن حذرًا أنت أيضًا فقد علم بتحرياتنا عن ممتلكاته، سأرسل لكما التفاصيل فعلي أن أغادر خلال أيام، بالمناسبة الضابط الجديد إنسانٌ جيد ولكنه لا يرغب في التعاون معكما.

نهى: أرسل لنا ما توصلت اليه.

عمر:ليس هناك الكثير، القصر وأنتما تعرفان عنوانه، شاليه في المعمورة بالأسكندرية، بيت في محافظة الفيوم، مصنع في العاشر من رمضان، شقة في شرم الشيخ، شركته وعنوانها معروف، سأرسل العناوين بالتفصيل.

وجم (معاذ) بعد تلك المحادثة وكتب: ولا عنوان منهم يصلح، إنه غالبًا لا يبتعد كثيرًا عن القاهرة، عرينه لن يكون في محافظة أخرى ويخاطر بأن يتم تفتيش سيارته أو أن يستيقظ الضحية ويقاوم.

نهى: معك حق..ربما يعرف (نادر) شيئًا ولكن علينا أن نمهد له أولًا.

أعدت (حبيبة) مع والدتها الطعام وتناولوا الغداء معًا ومع (نادر) الذي تلقى اللوم من (حسناء) على أنخفاض وزنه: أفهم أنك حزين بسبب ما عرفت ولكنك بخير الآن..ألم تذهب لوالدتك..سوف تحزن إن رأتك بتلك الحالة.

فيجيب باسمًا: أنها تطعمني طوال الوقت وكأنني بطة أو دجاجة.

-هذا ديدن الأمهات..أريدك أن تتحدث معي بمفردنا عندما تشعر برغبة في الفضفضة.

قال ضاحكاً:وهذا أيضًا تفعله (نهى)..تلعب دور الطبيبة النفسية معي.

خلف ضحكته الكثير من الحزن وكان هذا ظاهرًا، غادر إلى الشرفة مع (معاذ) لتناول الشاي والحلوى ثم قال: تحدثني والدتي عن أمور كنت أفعلها وأنا صغير، ولكنني لا أذكر شيئًا على الأطلاق، ولا ذكرى واحدة، كل الناس لديها ذكرى أو أثنتين أو بعض الذكريات من الطفولة.

ورشف من الشاي فسأله (معاذ): كيف حالك؟

-أتلقى حفاوة شديدة في بيتي الجديد، وأشعر بالذنب.. كيف نسيت كل شيء عنهما؟ كيف لم أبحث يومًا وأتأكد من صحة كلام والدي وجدي.

تأمله (معاذ) في تردد ثم قال: (نادر)...

-هل تعلم ان للأمهات رائحة، رائحة طيبة لا مثيل لها.

-لقد عرفت القاتل.

تطلع إليه (نادر) بلهفة ثم قال: من هو؟ هل رأيت هالته سوداء؟ أين رأيتها؟ أم أن الشرطة هي من عثرت عليه؟

-رأيتها، هالته سوداء، رأيته في حفل خطبة والدك.

-أحد الحضور؟

-القاتل هو والدك.

سقط كوب الشاي ليتحطم جزء منه على أرضية الشرفة، لا وقت ليضيعه (معاذ)، ليخبره كل شيءٍ الآن في التو.

قال (نادر): ماذا تقول؟ هذا مستحيل صدقني، والدي قاسٍ بعض الشيء ولكنه ليس قاتلًا مجنونًا.

-هالته سوداء.

-أبحث من جديد، حتمًا هناك العديد من الأشخاص ذوي الهالة السوداء.

-(نادر)، أنا أقول الصدق.

-وأنا لا أصدقك، أنا لا أرى تلك الهالات التي تدعي أنك تراها.

-لقد أعترف لي في الحمام بالمطعم منذ أيام، لقد أعترف لي بأنه القاتل.

صاح (نادر):أنت مخطيء، ربما يمزح أو لم تفهمه.

-هل رأيت حالة والدتك؟

-ماذا عنها؟ لقد سقطت أثناء حملها وأضرت رأسها.

تبًا!! (نهى) لم تخبره الحقيقة والآن قد وقع بلسانه أمام صديقه الذي تبدلت ملامحه وهو يغمغم: لقد سقطت، أليس كذلك؟

-(نادر)، جميع الممتلكات باسم جدك أو أسمه لا تصلح مخبئًا له، إن كنت تعلم شيئًا...

دون كلمة غادر (نادر) الشرفة فالمنزل كله وأغلق هاتفه.

***

"من قال أنني سأسافر إلى أي مكان"

صاح (عاصم) بتلك العبارة محتجًا وبلا تردد هوى (رشوان) على وجهه بصفعة وهو يصيح بصوتٍ أعلى منه: ستسافر رغم أنفك،أم أنك تريد أن تمضي حياتك في السجن؟

-هل تضربني ؟

-بل وبوسعي تحطيم رأسك إن أستدعى الأمر..والآن أخرس وأستعد للسفر إلى سويسرا خلال يومين..التذكرة في حجرتك..ستمكث هناك عام أو أقل حتى تهدأ الأمور ثم تعود.

-وخطيبتي؟

-فلتنتظرك،أو إذا لم تستطع العودة باكرًا فلتسافر اليك وتتزوجا في سويسرا..لا أظن أن أي شخص بكامل قواه العقلية يرفض العيش هناك.

-ومالذي سأفعله هناك؟ ولماذا أسافر وأهرب، أنا لم أفعل شيء...

-قلت لك أخرس، إذا قلت أنك لم تفعل شيئًا ثانية فسأسلمك إلى الشرطة بنفسي، أنهم يتحرون عن ممتلكاتنا أيها الأحمق، الله وحده يعلم ما فعلت هذه المرة بالضبط، أنت مصيبة.. مصيبة قد أبتليت بها، ولكنك ولدي الذي أحبه وأحاول حمايته، لذا ستسافر خلال يومين من الآن، هل تفهم؟ إذا رفضت فلن أقف بجانبك عندما يتم القبض عليك.

أحتقن وجه (عاصم) في غضب شديد وتمتم من بين أسنانه: ذلك الولد الحقير هو السبب.

ليكن..سيقوم بعملية أخيرة قبل سفره..هدية أخيرة ل(معاذ) أما الآن فعليه أن يلتقي ب(رانية) كي يخبرها بأنه سيسافر لدواعي العمل وأنه قد يعيش هناك لسنوات في سويسرا وسيكون سعيداً إن قبلت العيش معه.

التقى بها في أحد المطاعم المطلة على نهر النيل..صارحها بكل شيء وهو يتأمل ملامحها التي تذكره بوالدته..من أجل ملامحها تلك مال قلبه اليها وعدل عن قرار قتلها.

قالت: توفي والداي، ليس لي أقارب سوى عمتي، أجل، إن اضطررت للعيش في سويسرا لسنوات فسأكون معك.

قال وعيناه تلمعان بنظرة مخيفة: سأسافر بعد الغد، فقط أمامي مهمة أخيرة سأقوم بها قبل السفر.

-أتمنى لك النجاح والتوفيق في مهمتك.

***

(حبيبة) ستذهب إلى درس اللغة الانجليزية في الجامعة الأمريكية، ولكن (معاذ) نهض، وقال بصرامة: سأوصلك، وقبل أنتهاء الدرس بعشر دقائق اتصلي بي وسآتي لأصطحابك.

قالت (حبيبة): ولم كل هذا؟

-لأن الشوارع خطرة هذه الأيام.

(نادر) لم يتصل، ولم يتحدث في شأن والده ثانية، ولا حتى مع (نهى)..أنه يجلس هادئًا في البيت على حد وصفها ولكنه يمضي الكثير من الوقت مع والدته ويتحدث معها مطولًا ويشفق على حالها.

قالت (نهى) عبر الهاتف: لقد اتصلت به فتاة تدعى (يسرا)، تريد أن تعمل في منزلنا..بيني وبينك..والدتي تحتاج إلى الرعاية عندما أكون في العمل وقريبًا سيكون (نادر) في العمل أيضًا..أخبرته أنه لامانع..حاولت التحدث معه بشأن التحقيقات والقضية فطلب مني ألا أفعل.

أجاب (معاذ) وهو يوقف السيارة ويلوح مودعاً شقيقته: دعيه وشأنه الآن حتى يقرر ما سيفعل.

ثم أنهى المكالمة وتوجه إلى العمل..كان القلق ينهش قلبه..ماذ لو قرر الوحش أيذاء أحد من أخوته..لايدري من أين ستأتي الضربة..(حازم) يعود من العمل متأخراً لذا كان يقلق عليه أكثرمن البقية..متى تساعدنا يا (نادر) كي ينتهي الأمر؟..متى؟

أما (نهى) فقد قالت باسمة في رفق: سأغادر إلى العمل، أستودعكما الله.

وتركت شقيقها المهموم ووالدتها جالسة بجواره تتأمله في قلق.

ولكن (عاصم) في المساء أوقف سيارته في أحدى الشوارع الهادئة وجلس بداخلها يرقب..هاهو ذا الفتى يغادر محل بيع أجهزة الألعاب..ابتسم في تشفي ثم غادر سيارته وتتبع (حسام)..يعلم أنه سيدخل إلى ذلك الشارع كي يصل بشكلٍ أسرع إلى محطة قطار الأنفاق، أمسك هاتفه وأجرى الاتصال.

في المنزل كان (معاذ) جالسًا في حجرته وقد فتح جهاز الكمبيوتر وباستخدام خرائط جوجل راح يحدد الأماكن التي وجدوا فيها جثث الضحايا، كلًا في جهة، ولا شيء مشترك بين الموقعين، بدأ يبحث في الطرق عندما أرتفع رنين هاتفه، مد يده

يفتح الهاتف وقال: السلام عليكم.

جاءه صوت (عاصم) المتأني وهو يجيب: فكرت في منحك هدية أخيرة، ذكرى تظل محفورة للأبد في عقلك.

عقد (معاذ) حاجبيه بينما أكمل (عاصم): فتى وسيم، يسير في نشاط ويضع السماعات على أذنيه، إلى اللقاء.

وأغلق هاتفه، وبسرعة نهض (معاذ) حاملًا هاتفه وشرع يرتدي ثيابه وهو يجري الاتصال ب(حسام).. أجب يا (حسام).

أجاب (حسام): ألو

-أين أنت؟ إن كنت تسير في شارع خالي فغادره فورًا إلى أحد الشوارع المزدحمة.

-ماذا؟

ثم تناهى إلى مسامع (معاذ) صوت الضربة ثم صوت سقوط، ثم إغلاق الهاتف، اتسعت عينا (معاذ) في ذعر وأقسم أنه سيقتل (عاصم) بيديه إن مس شقيقه بأذى..لن يصير أخاه ضحية لوحش مختوم عليها..هرع مغادرًا حجرته فهتف (هشام): إلى أين؟

-مشوار هام.

وغادر البيت..لم يخبر أحدًا لأنه لا يرغب في أن يثير خوفهم..ركب المصعد واتصل ب (نادر)، رنين دون إجابة، أعاد الاتصال مرة ثانية وثالثة دون إجابة ثم في الرابعة أجاب في ضيق: ماذا؟

هتف (معاذ) وهو يغادر مدخل البناية: لقد أختطف (حسام)، هل تسمعني؟

مضت ثوان دون رد، فهتف (معاذ): (نادر)، لقد اتصل بي للتو وأخبرني أنه سيكون ضحيته انتقامًا مني، لا وقت للتردد الآن، أرجوك.. فكر أين قد يكون مخبأه.

اتاه صوت (نادر) المرير يجيب: لا أعلم، أقسم بالله، (معاذ) أنا أسف.

أنهى (معاذ) المكالمة ودلف إلى سيارته وأدار المحرك، البداية من حيث كان (حسام)، قام بتشغيل برنامج تحديد المواقع في هاتفه جي بي إس، هاتف أخيه في شارع جانبي يدعى (الحسين) متفرع من شارع محي الدين أبو العز، إنه قريب نسبيًا..قاد السيارة بسرعة وكاد يصطدم بسيارة أخرى حتى وصل إلى الموقع..كان الهاتف ملقى أرضًا وهناك شابان يقفان عنده فصاح فيهما:هل رأيتما صاحب الهاتف؟ هل رأيتما شيئًا مريباً.

تراجع الشابان في توتر وقال أحدهم: نحن لم نرى أحدًا ولم نسرق شيئًا.

وغادرا بسرعة..تلفت (معاذ) حوله..هناك بقالة قريبة، يدعو الله أن يكون لديها كاميرا قد ألتقطت ما حدث بشكلٍ ما، ولكن البقال أخبره أنه لم يرى شيئًا وليس لديه سوى كاميرا داخلية فقط، هكذا أسقط في يده فأطلق صيحة يائسة وراح يدور حول المنطقة وهو يتفحص الأرض، هناك بقعة دم طازجة، لا شك أنه أثر الضربة بذلك السلاح، هناك أثر إطار سيارة تحرك بسرعة إلى خارج الشارع ثم لا شيء.

انهار حرفيًا على الرصيف. وجلس وقد أمتقع وجهه، سيقتله بنفسه، ذلك الوغد لن يُقبض عليه أبدًا، سيستمر في شره ويعيث في الأرض الفساد كالشياطين والطغاة، لن يرحمه إن آذى (حسام).

إرتفع رنين هاتفه وفي تخاذل جذب الهاتف وتطلع إلى المتصل..إنه (نادر)..أسرع يجيب في لهفة وأتاه صوت (نادر) القلق: هناك مكان أشك فيه ولكنني لست متأكدًا، هناك بيت في ضواحي الجيزة، في المنيب حوله أرض ومخزن، إنه في الواقع ملك لجدي ولكنه بأسم السكرتير، يستخدم كمخزن من الباطن، منذ عامين أو ثلاثة سمعت جدي يسأل والدي مالذي يفعله هناك..على كل حال..أنا أحاول الأتصال بوالدي ولكنه لايجيب وهاتفه مغلق، أنا متجه إلى هناك بسيارتي وسأرسل لك العنوان في رسالة.

وأنهى المكالمة وبعد دقيقتين كاد (معاذ) يجن فيهما وصلت رسالة بعنوان البيت بالتفصيل فضغط بقدمه لزيادة سرعة السيارة، اتصل ب (عمر) وقال :مرحبًا سيادة الرائد، ليس لدي وقت لذا أسمعني من فضلك، القاتل هو (عاصم رشوان) وقد أختطف أخي (حسام) منذ حوالي ساعة ألا ربع..هناك مكان نشك أنه قد يكون مخبأه حيث يعذب ضحاياه ويقتلهم وسأرسل لك العنوان..لايهمني الأدلة ورؤسائك..تصرف..سوف يقتل أخي وبعدها سيستمر في القتل.

وأنهى المكالمة وضغط دواس السرعة من جديد.

***

أخيرًا أفاق (حسام) ففتح عينيه ببطء وشعر بألم في رأسه من أثر الضربة..حاول الحركة ثم أدرك أن يده مقيدة خلف ظهره بأصفاد حديدية وفمه مكمم..يرتدي فانلة داخلية..حافي القدمين وقد أختفى قميصه العلوي بشكلٍ ما، حجرة شبه مظلمة، حاول النهوض حتى تمكن من الوقوف أخيرًا وأتاه صوت من أحد الأركان المظلمة: أستيقظت، حان وقت اللعب.

تحرك (عاصم) ببطء مسرحي نحوه وهو يطوح بالسلاح، المدراس أو نجمة الصباح.. لا يهم.

قال (عاصم): سأمنحك دقيقة كي تهرب، إن وصلت إليك فأنت ميت، أكمل اللعبة للنهاية لعلك تنجو.

شعر (حسام) بالذعر، هذا مشهد من فيلم رعب أو كابوس وليس واقعًا يحدث له الآن، تراجع إلى الخلف حيث المخرج الوحيد من تلك الغرفة العجيبة، صعد الدرج حتى وصل إلى الممر شبه المظلم الذي غطت أرضيته قطع الزجاج المكسور وكغيره من الضحايا الذين حاولوا الهرب أنغرزت بعض قطع الزجاج في باطن قدمه وأطلق صرخة ألم مكتومة وتوقف وقدمه ترجف وتنبض بالألم.. هناك حجرة جانبية في الممر..إنها حجرة المرايا ولكن (حسام) لم يرتح لها وبدلًا من التوجه نحوها تحرك بحذر شديد وهو يعرج لنهاية الممر وتحمل في صبر ألم باطن قدمه والزجاج ينغرس فيها.

ظهر (عاصم) في الممر وقال في جذل: أنت شجاع، تجاوزت أول أختبار، ممتاز.

محاولًا السير بصعوبة وقد ترقرقت دموع الألم في عينيه غادر (حسام) الممر ليجد نفسه أمام حجرة واسعة دائرية بها خمس أبواب خشبية موزعة من الطراز الذي يفتح بالدفع وبدون مقبض..لايدري ما ينتظره في تلك الحجرات ولكن لا مخرج آخر أمامه، جلس على ركبتيه ثم بدأ يزحف عليهما بصعوبة إلى الحجرة الرابعة فتحامل على نفسه ونهض ودفع الباب ليدخلها ثم أغُلق الباب من خلفه تلقائيًا وسقط أرضًا فهو لم يعد يحتمل الضغط بباطن قدمه على الأرض، تأمل الحجرة التي كان بها مصباح مضيء وقد تم تعليق الخطاطيف بها، ما وظيفة الخطاطيف لدى شخص لا يعمل بالجزارة أو بيع اللحوم!!؟

***

وصل (نادر) إلى الأرض المحاطة بسور ويقبع على بوابة السور حارسان شرسان عملا سنوات طوال مع أبيه، في الداخل يقع البيت ومخزن بجواره، توجه (نادر) إلى البوابة فتعرفه الحارسان وبدا عليهما الارتباك.

قال أحدهما: (نادر) بك، معذرة ولكن (عصام) بك أعطى الأوامر بعدم دخول أحد إلى البيت فهو ممتليء بالبضاعة وفي حالة فوضى و...

قاطعه (نادر) بلهجة حاسمة: أعرف أن والدي في الداخل وأعرف ما يفعله بالضبط في الداخل..تنحى جانبًا.

قال الحارس: أسف يا بك..لايمكنني السماح لك..

قاطعه (نادر): خلال عشر دقائق ستصل الشرطة إلى هنا، يمكنكما إضاعة الوقت في النقاش أو الهرب بجلديكما.

تبادل الحارسين النظرات في توتر وأزاحهما (نادر) جانبًا بيده ودلف إلى الداخل ثم أسرع الخطى.. الآن وبعد رد فعل الحارس لم يعد لديه شك أن هذ هو المكان المنشود..والده هو القاتل..هو الوحش..هو من قتل (دنيا)..ترى هل أطلع على رسالتها إليه فعرف بأنها تحبه وقرر قتلها لهذا السبب؟ أنقبض قلبه، حتى آخر لحظة يتمنى أن يجد أنه أخطأ وأن والده في الداخل ينظم المخزن أو يجرد البضاعة، يتمسك بأهدابِ أملٍ ضعيفة واهية، البيت صامت ومخيف حقًا، من الواضح أن والده قام بتعديلات في البيت، أدرك عندما فتح باب البيت الموارب أن تصميم البيت غير طبيعي..كانت أمامه الآن حجرة عريضة تشبه القوس فيها باب واحد حديدي به مقبض، توجه إلى الباب الحديد وفتحه فأصدر صريرًا مخيفًا وانفتح على حجرة خالية لا شيء بها سوى مصباح واهن وبابٌ آخر.

هتف (نادر):حسام.. حسام.. أبي.. هل يسمعني أحد؟

توجه إلى هذا الباب وغادر فوجده في الجهة الأخرى على شكل مرآة تزين الحجرة الجديدة ومن الصعب أن يلاحظ أحد أنه باب، تطلع إلى حجرة دائرية بها أربع أبواب من الطراز الذي يُفتح بالدفع، بجانب الباب الذي خرج منه.

توجه إلى أول باب مجاور وفتحه ثم تراجع سريعًا في هلع لأنه ما إن خطى إلى داخل الحجرة حتى فوجيء بكرات حديدية تنحدر من السقف بسلاسل تتجه إليه، لقد داس على شيء ما في أرض الحجرة حرك تلك الكرات نحوه، لم يكن يدري أن موظف الهايبر ماركت قد أختار تلك الحجرة من قبل وتلقى الضربتين في ظهره، أدرك أن الحجرات مبطنة بعازل للصوت وهو ما يعني أن (حسام) ربما في حجرة أخرى ولن يسمعه، أسرع يغادر الحجرة إلى الحجرة التالية التي كان بها أغرب وآخر شيء توقعه

(نادر)، عدة مصائد للدببة في الأرض من النوع الذي كان يراه في أفلام الكرتون، تراجع غير مصدق ثم دلف إلى الحجرة التالية ولمح بسرعة الخطاطيف المعلقة ولمح (حسام) وقد عُلق على خطاف أنغرس في لحم ظهره ووالده يرفع السلاح ليوجه ضربة قاتلة فصاح: توقف.

تجمد (عاصم) لثانية، ثم استدار يرمق ابنه غير مصدق ثم هتف آمرًا: لاتتدخل وغادر حالًا وإلا...

وحتى في هذا الموقف ظل (نادر) لا يصدق، ربما والده ممسوس أو مريض بالفصام، ربما أي أحتمال غير كونه وحش عديم الشفقة قتل حبيبته وقتل كل هؤلاء الناس، عاد (عاصم) يستدير إلى (حسام) الذي شحب وجهه وبدا أن إصابته ليست هينة فتوجه (نادر) ومد يده يوقف والده، سيكون هو من يوقفه كما رغب منذ البداية ولكن (عاصم) استدار إليه في شراسة وبسلاحه وجه لرأسه ضربة قوية جعلته يسقط أرضًا وتسيل الدماء بغزارة من موضع الاصابة والتي لم تكن هينة.

***

عندما وصل (معاذ) رأى سيارة (نادرة) أمام البوابة فأوقف السيارة وغادرها مسرعًا..لم يكن هناك أثر للحارسين والأرجح أنهما هربا ودلف (معاذ) من البوابة إلى الداخل، لا يملك سلاحًا ولكنه يملك قبضتيه، الساحة الواسعة والبيت والمخزن بجانب البيت على مسافة بسيطة..قرر التوجه إلى المخزن أولًا، ولكنه وجد المخزن ممتليء بصناديق لبضائع ما، هم بالمغادرة ثم استرعى أنتباهه أمرًا ما، مرآة مثبتة على الحائط حال لونها، توجه نحوها وتحسسها فإذا بها تُفتح على ممر طويل، خفق قلبه في توتر وهو يسير في الممر المظلم مستعينًا بإضاءة هاتفه وتذكر مغامرته مع (نادر) في المبنى المهجور.. فكر في الاتصال بصديقه ولكنه أكتشف عدم وجود إشارة أو شبكة في هذا الممر، في نهاية الممر باب أزاحه بيده فأنفتح على غرفة بها منضدة عليها سلاح (نجمة الصباح)، الباب جهته الثانية لها نفس شكل ولون الحائط ومع الإضاءة الضعيفة من الصعب جدًا اكتشاف وجود الباب أصلًا.

بسرعة توجه (معاذ) إلى الباب الثاني في الحجرة حيث السلم، هذه الحجرة في قبو، صعد ليجد الممر الذي تناثرت على أرضيته قطع الزجاج المكسور، هناك آثار دماء طازجة جعلت قلبه يخفق ويهمس في جزع: (حسام) سأنقذك.

تحرك في الممر وصوت الزجاج من أسفل حذائه تثير الأعصاب، وكاد يدخل الحجرة الجانبية حيث المرايا لولا أنه رأى الدخان الأصفر الضعيف القادم من نهاية الممر، أخوه مذعور وهالته من هذا الإتجاه، أسرع الخطى حتى وصل إلى الحجرة شبه الدائرية وكور قبضته.

***

تطلع (عاصم) إلى ولده وزفر في ضيق وقبل أن يُقدم على فعل شيء ظهر (معاذ) أخيرًا، بنظرة واحدة أدرك ما يحدث، هذه المرة لن يتردد ولو لثانية، لن يكرر أخطائه، كور قبضته ووجه لكمة عاتية إلى (عاصم) أسقطته وطوحت سلاحه بعيدًا ثم راح يكيل له اللكمات واحدة تلو الأخرى دون تمييز، ربما عشر لكمات أو أكثر حتى تورم وجهه بالكامل وفقد الوعي أخيرًا، وقف (معاذ) يلهث ويحاول السيطرة على نفسه كي لا يقتله ثم هرع إلى أخيه فحمله وأزال بقوة هذا الخطاف وأنزله، لا يستطيع فك قيد يديه ولكن يستطيع إزالة الكمامة، أحتضن أخاه المذعور الذي أنفجر في البكاء بعد كل تلك التجربة المريرة وربت على رأسه وهو يقول: لا بأس، لا تقلق، أنت بخير.. أخي.. أنت بخير.

ونظر نحو (نادر) وأدرك أن الإصابة قوية ولن يكون فقدان الوعي هو أقصى ما ستسببه، ثم أخرج الهاتف وطلب الإسعاف ثم توجه إلى صديقه محاولًا مساعدته بأي شكل.

بعد نصف ساعة وصلت الشرطة ووصل (عمر) ووصلت الإسعاف.

***

ألقي القبض على (عاصم) وتم القبض بعد يومين على الحارسان اللذان شهدا على إجرامه وشاركا بالصمت، وجدت الشرطة والمعمل الجنائي بصمات وعينات شعر ودماء في البيت تعود لضحايا مختلفة، تم أكتشاف مخبأ ثالث وأخير في منزل مهجور

آخر وقد دفنت فيه ثلاث جثث أحدهما كانت قديمة ولعلها كانت ثاني الضحايا، وقد عثرت الشرطة فيها على بصمة يد تعود ل(عاصم) وهناك عثرو على جثة (عماد)، الأهم أنه تم التحفظ على السلاح وعلى الختم الذي يحمل الرسالة العجيبة "تم قتلك بنجاح" وكذلك كان البيت يحوي كاميرات مراقبة وتسجيل، أتضح أن (عاصم) يسجل أعماله ليشاهدها ويستمتع بها، لم يعلم أحد أن المخزن بجوار البيت هو المكان الذي قام فيه (رشوان) بقتل الشاب الذي أحب زوجته في الماضي وحطمها فيه.

تم ايداع (نادر) إلى قسم العناية المشددة بعد أن أجريت له جراحة في المخ، وقال الطبيب ل (نهى) التي وقفت قلقة بجوار (معاذ): هناك أحتمال أن يصاب بتلف في الدماغ، حاولوا الاستعداد لهذا الأحتمال.

لم ينطق أي منهما ووقفا خارج حجرة العناية المشددة يرمقان (نادر) المستلقي بلا حركة وقد أحيطت به الأجهزة ووصل بجسده الخراطيم والآنابيب، ظلت خصلة شعره المميزة على جبينه وكأنه نائم بعمق وليس راقدًا بين الحياة والموت.

قال (معاذ): سيكون بخير، قد يبدو ضعيفًا ولكنني أعرفه، إنه قوي من الداخل جدًا.

وصل (رشوان) إلى المشفى وهو يصيح: أين (نادر)؟ أين حفيدي؟

وأقترب منهما وخلفه رجلين من رجاله، دون خوف قالت (نهى): أنت لن تقترب منه في حياتك مرة أخرى.

تطلع إليها (رشوان) في استهجان وصاح: ومن تكونين؟ لقد رأيتك من قبل في مكان ما.

-(نهى)، حفيدتك.. وها أنا أنذرك.. إنه بين الحياة والموت بسبب الوحش الذي صنعته ودافعت عنه، قد يموت قبل أن تشبع منه أمي بسببك، أنت ليس لديك حفيد، أخرج من هنا ولا تعود.

بهت (رشوان) وهو ينظر إليها، ثم قال : سألقي عليه نظرة فقط.

عقدت (نهى ) ذراعيها أمام صدرها وقالت: هل ستترك ولدك يدفع ثمن أفعاله؟

-ليس مؤكدًا ما...

قاطعته: أنا شاهدة عليه، سأدلي في المحكمة بشهادتي، رأيته مرتين، أنت تعلم أنه فعلها، فعل كل تلك الفظائع.

تطلع (رشوان) نحوها بنظرة غضب تحولت إلى نظرة كسيرة وهو يغمغم: إنه ابني.

-وهم أيضًا كانوا أبناء أناس آخرين.

استدار (رشوان) نحو باب حجرة العناية وقال: سأرى حفيدي.

أجاب (معاذ) هذه المرة وهو يكور قبضته :لا، لو حاولت سأمنعك بالقوة وسأمنع حارسيك.

ساد الصمت للحظة ثم قال (معاذ) وقد لان قليلًا: الطبيب منعنا من الدخول إلى حجرته وسوف يمنعك أيضًا، إنه في حالة حرجة حاليًا.

وقالت (نهى) بقسوة: أنت السبب في كل معاناة تعرض لها أخي، أخرج من هنا.

قال في لهجة حاول جعلها صارمة: سأذهب للتحدث مع الطبيب بشأن حالته.

بعد مرور ثلاثة أيام غادر (حسام) المشفى وكانت جروحه قد ألتئمت وأصبح بحالة افضل واستجوبته الشرطة ثم عاد إلى المنزل، أما (نادر) فمازال في حجرة العناية المشددة، ولم يتوقف (معاذ) عن القدوم لزيارته يوميًا ومواساة (نهى) التي أصبح يشعر بالإعجاب نحوها أكثر وأكثر وبدا أنها قد بدأت تبادله الشعور.

في قصر (رشوان) قال السكرتير: لقد أستخدمت كل صلاتنا يا بك وضغطت بشدة وسيتم إخلاء سبيل (عاصم) بك على ذمة القضية، ولكنني أصارحك الأدلة ضده دامغة وسوف يحكم عليه حتمًا ولن يحصل على البراءة، يرى المحامون أنه من الممكن إدعاء أنه مجنون وايداعه مستشفى الخانكة، بهذا سيفلت من السجن أو الإعدام.. ما رأيك يا بك؟

أجاب (رشوان):لا يهم، سوف أقوم بتهريبه إلى سويسرا.

-لقد تم وضع أسمه على قوائم الممنوعين من السفر.

-تصرف إذًا، أدفع رشاوى أو أستخرج له أوراقً مزورة باسم مزور، المهم أن يهرب إلى سويسرا.

-أجل يا بك.

رفع (رشوان) عينيه إلى سكرتيره وقال: هل أتفقت مع المصحة كما أخبرتك، أحسنت.. والآن تغيير في الخطة، (عاصم) سيدخل المصحة بمجرد أن تطأ قدمه أرض سويسرا ولن يغادرها أبدًا.

-حسبتك قلت يا بك أنه سيظل في المصحة لعدة أشهر أو عام.

-غيرت رأيي، أرسل إليهم وأتفق معهم، سيظل لديهم حتى يموت، لن يخرج، مفهوم.. لن يغادرها أبدًا.

-مفهوم.

عاد (عاصم) إلى البيت واكتفى والده بنظرة نارية وجهها إليه وقال: لقد أفتضحنا لدى الجميع أيها اللعين، غدًا ستغادر إلى

سويسرا، مفهوم، لو مات (نادر) فسأرسل إليك من يقتلك.

ابتسم (عاصم) في برود فصاح (رشوان): لماذا أنت هكذا؟ لماذا؟

أجاب (عاصم) وهو يتوجه إلى حجرته: كنت دائمًا هكذا وكنت أعجبك كثيرًا وقتها.

تناول (عاصم) العشاء وجهز حقيبته أستعدادًا للسفر فجرًا، جلس في حجرته مسترخيًا على سريره، أغلق عينيه مفكرًا أنه خسر (رانية) حقًا، إنها مصدومة وغير مصدقة بعد أن نشرت الصحف خبر القبض عليه وأنه متهم بقتل عدة أشخاص فقط، لم تذكر الصحف شيء عن كونه قاتل متسلسل أو عن المزيد من التفاصيل، ولكن من يدري، ربما تقبل بالعيش معه في سويسرا يومًا ما، نام على ظهره كعادته وتأمل السقف مفكرًا إن (نادر) في حالة حرجة، ابنه في حالة حرجة فلماذا هو بارد جدًا هكذا، لماذا لا يشعر بأي شيءٍ على الأطلاق بل ولم يشعر من قبل بأي شيء اتجاه ولده، ربما قليل جدًا جدًا من العطف من وقتٍ لآخر، لطالما كان إنسانًا بارد المشاعر جدًا، منذ طفولته وهو هكذا، شعر بتلك الحركة الخفيفة، فتح عينيه فوجد أمامه تلك الخادمة الصغيرة (يسرا)

وفي عينيها نظرة مقت وفي يدها سكين مطبخ كبير، وقالت وهي تغرز السكين في عنقه: من أجل (نادر) بك أيها الشرير.

ثم أسرعت تركض مغادرة الحجرة فالقصر، بينما راح هو ينشج والدماء تسيل من عنقه بغزارة، إنه يحتضر، لا يصدق أن تنتهي حياته على يد تلك الطفلة وبهذا الشكل، لطالما توقع أنه سيعيش حتى يطعن في السن، اتسعت عيناه في ذعر، تذكر والدته الحبيسة التي كانت تبكي وتقص عليه حكايات عن قسوة والده، تذكر (وفاء) أول فتاة أعجب بها وآخر فتاة غالبًا، لم تكن تشبه والدته، حاول أن يصرخ مستغيثًا دون جدوى.. أصدر صوت حشرجة ثم همدت حركته إلى الأبد.

وقبل الفجر أنتفض (رشوان) مستيقظًا من نومه على صراخ إحدى الخادمات وتوجه مسرعًا إلى حجرة ابنه حيث تصرخ الخادمة ليجده على تلك الحالة.

***

عندما فتح (نادر) عينيه وجد من حوله وجوه باسمة..صديقه وشقيقته ووالدته..وعلى الفور أحتضنته والدته بتلقائية وقال (معاذ): حمد لله على سلامتك..أنت بخير الآن.

تمتم (نادر): ماذا حدث؟..هل (حسام) بخير؟

-بخير والفضل لله أولًا ثم لك..ولكن لاتسأل الآن..بمجرد أن تتحسن صحتك سنخبرك بكل شيء.

مر بعد ذلك ثلاثة أشهر..أوشك الصيف على الرحيل وبدأ الخريف يقبل..مازال الطقس حاراً نوعاً ما رغم ذلك..عاد (معاذ) إلى عمله وعادت الأمور تستقر،عاد (هشام) و (حسناء) من العمرة راجين الله أن يتقبلها والآن تقاعدت (حسناء) من عملها في الجامعة وإن أستمرت في عملها في المصحة ونشأت علاقة من المودة بينها وبين (نهى) رغم أن الأخيرة تركت العمل في المصحة وعملت في عيادة خاصة، تناسى (حسام) التجربة التي مر بها وعاد إلى طبيعته ونشاطه ودراسته وكذلك (حبيبة) بدأت الدراسة، أما عن (نادر) فقد كان لوجود والدته الحنون المشتاقة إليه على الدوام، وشقيقته التي جعلت من علاجه من بعض الاكتئاب الذي أصابه وظيفتها، كان لهما الدور الفاعل في تجاوزه لأزمته الصحية والنفسية، لم يعد يعاني من نوبات القولون

المتكررة كالسابق وأصبح الأمر أقل وطئة بكثير، وجد عملًا في شركة أجنبية لها فرع في مصر، وساعدته دراسته في ألمانيا على الحصول على الوظيفة ولم يعد ثانية إلى القصر وإن ظل يتصل بجده من وقت لآخر ويسأل عن أحواله، وأما (يسرا) فلم يُفهم سبب إقبالها على قتل (عاصم)، ربما كان ينهرها كما يفعل مع بقية الخدم ولكن المنطق أنها إن كانت ستقتل شخصًا ف(مازن) يستحق ذلك لأيذائه لها، ولكن الأطفال العرضة للإساءة والقسوة كثيرًا ما تكون ردود أفعالهم المتألمة نحو الشخص الخطأ، ولكن من قال أن (عاصم) لم يؤذيها، لعل ايذائه ل (نادر) كان ايذاءً لها أكثر من سواه، (عمر) تم إلغاء قرار نقله وعاد إلى عمله، وظلت علاقته جيدة ب (معاذ).

ألتقى (معاذ) ب(نهى) بناء على طلبه أمام العيادة التي تعمل بها بعد أنتهاء دوامها..لم يكن راغباً في إضاعة الوقت خاصة وأنه بعد مرور تلك التجربة ومرور هذا الوقت أستيقن من مشاعره ولكنه سألها أولًا: كيف حال (نادر)؟

- أفضل بكثير..ولكنك تعلم بالفعل فأنت تتصل به وتسأل عنه يوميًا، وتلتقي به كذلك.

مضت لحظة صمت ثم قال (معاذ) في خجل: (نهى)، هل تقلبين الزواج مني؟

أحمر وجهها في خجل وتمتمت مرتبكة: أتزوجك؟

-أجل، أنا معجب بك، بذكائك وشخصيتك، إعجابي بك يزداد كل يوم، سأمنحك وقتًا لتفكري وترسلي لي الرد.

أستجمعت جرأتها وقالت: ولكن بشرط.

-ما هو؟

-سأظل مع والدتي، حالتها لا تسمح لي بالأبتعاد عنها، إن كنت تقبل فسأفكر بالأمر.

-لدي شقة في العبور، إنها بعيدة عن عملي للأسف ولهذا أفكر في بيعها وشراء شقة أصغر بالقرب من السيدة زينب حيث تقطنين، ربما في نفس الشارع.

تأملت ابتسامته وقالت ممتنة: فكرة ممتازة، تكلم مع (نادر) إذًا.

ومع مطلع شهر نوفمبر أقيمت حفلة الخطبة في المنزل وتطوعت الجارة بفتح شقتها كذلك للضيوف ثم رأت (معاذ) فأتسعت عيناها في خوف غير مصدقة أنه العريس وجلست صامتة.

وفي حذر صعد (رشوان) الدرج إلى حيث حفلة الخطبة..وقف بعيدًا ينظر في حذر الى (نهى) حفيدته الجميلة التي ارتسمت السعادة على محياها وبجوارها (معاذ)، لم تدعوه ولن تدعوه لأي مناسبة تخصها أبدًا، يدرك ذلك فهي تكرهه كما كانت تكره والدها، (نادر) يثرثر مع (هشام) في أمرٍ ما، بينما (حسناء) ترمق (معاذ) دامعة العينين، إنهم أسرة متوسطة لا يملكون الكثير بينما منح هو لولده وحفيده أموال طائلة وممتلكات وحياة مرفهة، لماذا هم سعداء أكثر منه بكثير في تلك اللحظة، كان يعرف الإجابة ولكنه سيظل ينكرها حتى الرمق الأخير.. استدار مغادرًا لأن لا مكان له هنا.

[تمت]